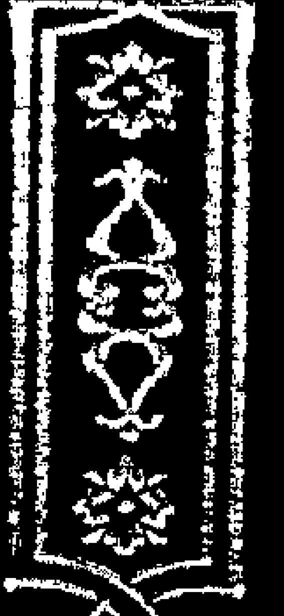




معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام حتى حرب الخليج



معارك العرب (20)

اسم الموسوعة : معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب : عصر الإمارة الشهابيّة (2) والثورة العربيّة الكبرى
المؤلف : العميد الركن أبو طلال الفغالي
قياس الكتاب : 20x28 سم
عدد الصفحات : 304
عدد صفحات الموسوعة : 5920
مكان النشر : بيروت - لبنان
دار النشر والتوزيع : دار نوبليس
تلفاكس : 961 1 58 34 75
هاتف : 961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني : NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى : 2007

العميد الركن أبو طلال الفغالي

ماجستير في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (20)

عصر الامارة الشهابية (2)

والثورة العربية الكبرى

NOBILIS
2007

القسم الأول

جيش الإمارة الشهابية
في عهد الأمير بشير الثاني الكبير
- تنظيم وعمليات عسكرية -
(١٧٨٨ - ١٨٤٠)

الفصل الأول
التجنيد والتعبئة

١ - توطئة

قضت الظروف بأن يكتفي الأتراك العثمانيون، عند فتحهم بلاد الشام، بالطاعة والضرائب، وبقيت شؤون الأقطار الشامية في معظمها على ما كانت عليه قبل الفتح السنة ١٥١٦. ابتعد اللبنانيون عن المماليك في أثناء الفتح أو قبله وانحازوا إلى العثمانيين، فنالوا بذلك امتيازات في الحكم لم يتمتع بها غيرهم من الشعوب ما بين جبال طوروس وصحراء سيناء، فاعترفوا بحكومة لبنانية تدير شؤون لبنان الداخلية بزعامة أمير لبناني، معني أو شهابي.

لم تسمح أحوال الأمراء الشهابيين الداخلية بشيء من الإهتمام بالإستقلال قبل عهد الأمير بشير الثاني الذي رأى بثاقب بصره أنّ لا فائدة تُرتجى من الأتراك العثمانيين وسلطنتهم. لذلك راح يبني إمارة قوية يتكوكب حول أميرها الشعب بكامله من خلال مؤسسات وطنية تحكم. هذه المؤسسات كانت: القضاء - الأمن وجهاز حكومي مترابط ومتين. وبوفاة أحمد باشا الجزار وزوال الشيخ ظاهر العمر قبله، عاد إلى الإمارة نفوذها، لا بل سيطرتها على مقدرات بلاد الشام السياسية. ويرجع هذا النفوذ إلى عاملين أساسيين، أولهما قوّة الإمارة العسكرية والثاني شخصيّة أميرها ومدبّر أمورها الأمير بشير الثاني الشهابي الكبير.

بعد خروج الأمير فخر الدين الثاني المعني على السلطنة وثورته عليها ومقاتلته ولاتها السنة ١٦٣٣ بواسطة جيش

الإمارة المنظّم عسكرياً، منع السلطان أمراء الشوف عن إنشاء جيوش نظامية وأجبر حكّام الإمارة على اتباع نظام الإقطاع العسكري فقط. كما أن ارتفاع تكلفة المرتزقة السكمان أو المغاربة الذين كانوا يشكّلون بنية الجيوش النظامية في الولايات العثمانية، منع الأمراء الشهابيين من اعتماد هذا النوع من الجيوش.

٢ - التجنيد والتعبئة

٢١ - أثناء حكم الأمير بشير الثاني:

كانت أساليب التجنيد والتعبئة التي اتبعها الأمير بشير الثاني في جيشه، لا تتناقض مع عادات الإقطاع في تلك الحقبة من الزمن، لذلك أعطاها جلّ وقته واهتمامه. كان التجنيد والتعبئة حاجة ثابتة وضرورية بالنسبة له، إما للدفاع عن إمارته أو لمساعدة حلفائه الولاة العثمانيين وبعدهم العزيز حاكم الديار المصرية. لأجل ذلك كان يصرّ دوماً على المقاطعجية التابعين له بوجوب البقاء على استعداد تام عسكرياً، كل في مقاطعته، وعلى جهوزية كاملة لتنفيذ المهمات العسكرية حين الطلب. وفي أكثر الأحيان، كان الأمير يقوم بالتفتيش على هؤلاء عند إعلان التعبئة الجزئية أو العامة.

وعندما يطلب منه مساعدة حلفائه، كان الأمير بشير ينظّم جند الإمارة في وحدات جبلية صغيرة، على رأسها قادة لبنانيون، يضعها بتصرّفهم.

كان قرار الحرب أو السلم في الإمارة الشهابية ، قراراً جماعياً يأخذه الأمير مع أعوانه المشايخ والأعيان في اجتماع عام[١]. في حال اتخذ قرار الحرب، كان المقاطعجية يستدعون رجالهم بوسائل مختلفة، تكلمنا عليها سابقاً. وكان على الرجال القادرين على حمل السلاح، من أي طبقة اجتماعية كانت، المشاركة في القتال من دون تردد. وبعد الإبلاغ يلتحق الجميع بنقاط التجمع المحددة لهم مزودين بأسلحتهم وذخيرتهم وأرزاقهم، ولم يكن اللباس موحداً. ويقسّم هؤلاء في نقاط التجمع إلى وحدات مقاتلة

(١) لامنس، هنري - سوريا - بيروت المطبعة الكاثوليكية، ١٩٢١، ج٢، ص٩٨.

متجانسة ومتقاربة نسبياً، على رأس كل منها واحد من الأعيان أو المشايخ أو الأمراء.

وأكثرية هؤلاء المقاتلين كانوا من المشاة، باستثناء الأمراء والمشايخ الذين كانوا يمتلكون الجياد المطهّمة، ينتقلون ويقاتلون من على ظهورها. ومن أبرز صفات هؤلاء الجبليين أنهم يتقنون فن الرماية، إلى جانب الشجاعة والعصبية والاتحاد عند الشدائد(١).

يقول أحد الرحالة الفرنسيين، الذي زار الأمير بشير في قصره العام ١٨١٦، إن الأمير بشيراً كان في إمكانه تعبئة مقاتلين من الدروز والنصارى، حوالى الخمسين ألفاً. بينما هنري غيز يقول إن الأمير كان يمكنه تعبئة ستين ألف مقاتل تقريباً، منهم ٣٥ ألف ماروني و١٥ ألف درزي وشيعي وسني والباقي من الكاثوليك والأرثوذكس.(٢)

يقول الرحالة لوروتي صاجي، الذي زار لبنان في نهاية حكم الأمير بشير، إنه «يوجد في الإمارة جيش نظامي ولكن الجميع بمثابة مقاتلين، فعلى حوالى ١١٥ ألف نسمة من الذكور الموارنة يمكن تجنيد ٣٥ ألف مقاتل». والله أعلم؟؟

قال عزيز مصر، محمد علي باشا، لقاضي القاهرة عند استقباله الأمير بشير الثاني السنة ١٨٢١ في ديوانه «هذا كبير عشائر جبل لبنان وهو يحكم على مئة ألف مقاتل..»(٣). ويقول هنري غيز «يقال إن الأمير في إمكانه تجنيد مئة ألف مقاتل من عمر ١٥ سنة إلى عمر ٧٠ سنة... ولكن العدد الأقرب إلى الحقيقة هو ستون ألف مقاتل»(٤).

---

(١) لامنس، ج٢، ص٩٥-٩٦.

(٢) توما، توفيق، فلاحون ومؤسسات الإقطاع لدى دروز وموارنة لبنان، من القرن ١٨ إلى ١٩١٤، بيروت منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٧١، ج١، ص٢٠٣.

(٣) رستم، أسد - بشير بين السلطان والوزير - القسم الأول، منشورات الجامعة اللبنانية - ط ٢٠، ١٩٦٦، ص١٦.

(٤) غيز، هنري، قصة إقامة بعض سنوات في بيروت ولبنان، باريس، المكتبة الفرنسية والأجنبية ١٨٤٧.

وفي ما يختص بالتعبئة يقول رستم باز في مذكراته ص ٢٨: «في السنة ١٨٢٧، عصى على عبد الله باشا ابن طوقان وابن الجرار من أعيان نابلس، فكتب عبد الله باشا إلى الأمير أن يحضر برجاله لمحاربتهم. فكتب الأمير إلى مناصب البلاد أن تحضر برجالها إلى بتدّين،.. وكانت جارية عادة الذي لا يمكنه التوجّه للحرب، - يستأجر رجلاً عنه - وبلغت أجرة الرجل من ٥ غروش إلى ٧ غروش يدفعها من كيس مستأجره، هذه كل يوم. وأما الأكل والشرب والجباخانه والخيام والعليق للخيل فيقدمها الأمير..».

٢٢ - خلال الحكم المصري للبنان:

كانت مشكلة التجنيد، أثناء احتلال القوات المصرية هذه البلاد، من المشاكل الكبرى التي برزت وأدت إلى قيام العصيان المسلح وثورات عدة متتالية، أبرزها ثورة ١٨٤٠ بحيث أن تأثيرها الكبير طبع المرحلة اللاحقة بطابع الدموية وبروز الانقسام الطائفي في مجتمع فسيفسائي يحمل في طياته بذور الانشقاق والعصبية الدينية.

ما أن بسط محمد علي باشا المصري سيطرته على بلاد الشام، حتى راح يفكر في تطبيق التجنيد الإلزامي على سكان البلدان التي احتلها. فكتب إلى ولده إبراهيم باشا، القائد الأعلى للحملة (آب ١٨٣٢) طالباً رأيه في هذه الفكرة، وفي إنشاء جيش جديد محلي، خاصة أن دلائل ثورة ما بدأت تلوح هنا وهناك في بلاد الشام.

كانت وجهة نظر إبراهيم باشا معاكسة لرأي والده، والسبب يعود إلى أن أهالي صيدا لم يوافقوا على الحكم المصري إلاّ تحت الضغط والإكراه، وكذلك سكان دمشق الذين قبلوه مكرهين بعدما توغلت القوات المصرية عميقاً في مدينتهم وغياضها. أما أهالي حمص وحلب فلم ينحازوا إلاّ جانبه إلاّ بعدما تمّ دحر القوات العثمانية. فمن المصلحة والحكمة تأجيل هذه المسألة الحساسة إلى حين.

وقبل وصول جواب السرعسكر، أصر العزيز على تجنيد أبناء البلاد المحتلة بهدف ملء الفراغ العددي في الأفواج المصرية وإنشاء فوجين من الخيالة، وفوجين من المشاة. وقد كلف بتنفيذ هذه المهمة حاكم دمشق محمد شريف باشا، والأمير بشير

وحنا البحري كاتم أسرار إبراهيم باشا (أيلول ١٨٣٢)[١]. والجدير ذكره أن الأمير بشيراً، بالرغم من تنفيذ الأوامر الصادرة عن محمد علي، لم يكن موافقاً على قضية التجنيد لأسباب عديدة أهمها: أن الحرب الدائرة ضد الباب العالي ستطول وأن الأهالي في هذه البلاد يكرهون الخدمة العسكرية ولا يشعرون بالغبطة لوجود قوات أجنبية في ديارهم، وأن النفوس مشحونة لدرجة تنذر بانفجار ثورة أو عصيان مسلح، فمن الأفضل تأجيل تنفيذ هذا التجنيد[٢].

في تشرين الأول ١٨٣٣ اعتمد العزيز فكرة ابنه إبراهيم «بإنشاء فوج خاص من أهالي البلاد المحتلة حيث ثم تجنيد أولاد أعيان جبل الدروز ونابلس وعكا وبلاد النصيرية. وكان السرعسكر إبراهيم باشا قائداً (شرفياً) لهذا الفوج[٣].

وفي ما بعد اقترح إبراهيم باشا إنشاء كتائب نقّابين من مسيحيي الشوف وبقية المقاطعات، مقتدياً بالعثمانيين الذين فعلوا الأمر نفسه مع الأرمن في تشرين الثاني ١٨٣٣.

هكذا بدت مشاريع إبراهيم باشا هذه واضحة في رسالة موجهة من حنا البحري مدير الخزينة في سوريا (أيلول ١٨٣٤) إلى أحد الموظفين المصريين الكبار سامي بك، يقول له فيها «إن السرعسكر يصر إصراراً لا رجوع عنه على فرض التجنيد الإلزامي في البلاد المحتلة »[٤]. وبالفعل نقل الخواجا حنا البحري «الإرادة السنية» بالتجنيد الإلزامي إلى كل من حاكم دمشق محمد شريف باشا والأمير بشير الثاني.

ابتدأت الحوادث تأخذ منحى تصاعدياً نحو التأزم لعدم مراعاة المصريين تقاليد البلاد، والمباشرة في تنفيذ التجنيد الإلزامي في نابلس والقدس والخليل ويافا، مما استدعى تأجيل تنفيذ التجنيد في دمشق حتى الإنتهاء من القضية الفلسطينية.

(١) رستم، أسد - المحفوظات الملكية المصرية - بيان بوثائق الشام، بيروت الجامعة الأميركية ١٩٤٠، ج٢، ص٩٥-١٠٢.

(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج٢، ص٢٠٧.

(٣) رستم، المحفوظات الملكية، ج٢، ص٣٦٤.

(٤) رستم، المحفوظات الملكية، ج٢، ص٣٩١.

لـذلك شـكـلت إجـراءات إبـراهـيـم بـاشـا العسكرية الدوافع الحقيقية والجذرية للكثير من الاضـطـرابـات والـقـلاقـل الـتي حدثت السنة ١٨٣٤ في فلسطين، وابتدأ العصيان في قريتي «البيره» و«الشيخ» ومنطقة الخليل وبلغ صداه حتى جبل الدروز في حوران، وحصلت حـوادث كـثيرة وكـمائن متعددة ضد القوات المصرية، الأمر الذي أجبر الوزير وولـده إبـراهـيـم عـلـى أخـذ هـذه الأمـور المستجدة بجدية تامة لمنع تفاقمها. وقد بدا لهما في صورة أكيدة أن السلطنة العثمانية هي التي تعمل على إثارة الشغب والفتن في بـلاد الشـام، مـن دون إغـفـال دور الـقـوى الخارجـيـة وتـدخـلات الـقـنـاصـل والعـمـلاء كمحرضين ومثيرين للشغب وللعصيان ضد حكومة محمد علي.(١) «لـقـد بـاتـت بـلاد الشام خلال حقبة الحكم المصري كمرجل تغلي فيه ثورات السكان وانتفاضاتهم».

كان التجنيد الإلزامي سلاحاً ذا حدين، فـهـو مـن جـهـة مـصـدر مـهـم لـزيـادة عـديـد القوات المسلحة ومضاعفة قدراتها، لكنه من جـهـة ثـانـيـة سـبـب مـن أسـبـاب الـثـورات والعصيان ضد الحكم المصري. فالسكان في لـبـنـان لم يـكـونـوا لـيـألـفـوا هـذا الـنـمـط مـن التنظيم والتعبئة مع ما تعوّدوه في السابق في أثناء حروبهم ومواقعهم تحت ألوية زعمائهم من أمراء ومقدمين ومشايخ. إذ كانوا يعودون بعد المعارك إلى بيوتهم وعائلاتهم.(٢)

لـقـد أصـبـح كـل شـخـص يـعـمـل جـاهـداً للفرار «خوفاً من أن يقبض عليه ويساق إلى الجبهة سوق النعاج..» فكان التجنيد سبباً لألوف من الرزايا، فبارت الحقول وأقفلت الـدكـاكين وأهـمـلـت الأعـمـال الـصـنـاعـيـة والتجارية وأقفرت القرى خوفاً من أن يؤخذ الـنـاس لـلـنـظـام».(٣) لـقـد شـمـلـت عـمـلـيـة الـتـجـنـيـد، لـيـس فـقـط حـوران وفلسـطـين وسوريا، بل أيضاً سكان «المقاطعات اللبنانية» إذ حاول إبراهيم باشا تجنيد مئات عدة من

(١) غنام، رياض، المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، الدار التقدمية - المختارة - طبعة أولى ١٩٨٨، ص٦١.
(٢) أبو عزالدين سليمان، إبراهيم باشا في سوريا، بيروت، المطبعة ١٩٢٩. ص ١٦٢ - ١٦٣.
(٣) كتافاكو أنطون، فتوحات إبراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسوريا، عرّبها الخوري بولس قرألي ١٩٣٧، مطبعة القديس بولس حريصا، ص٥٩.

الدروز بحجة أنهم رجال بأس ونشاط ولا يتهربون من الحرب والقتال، وكذلك النصارى، خاصة بعد أن أطاح إبراهيم بنظام الملّة العثماني وأعلن المساواة بين كل السكان، فسيق أولادهم إلى التجنيد فرضاً وعنوة. هذه الإجراءات غذّت التربة الخصبة لتنامي التيارات الرافضة للحكم المصري، وترافقت حركات العصيان والتمرد مع إجراءات عنيفة صارمة كانت تولّد عوامل ضغط وتفجير. وأخذت الثورة تنتقل من فلسطين إلى جبال العلويين، فشمالي سوريا، فحوران، فلبنان بكامله. وقد حاول الثوار في لبنان مرات عديدة إقناع الأمير بشير الثاني بالانضمام إليهم وترك إبراهيم باشا، لكنهم لم يفلحوا في ذلك، إذ ظل الأمير وفياً لتحالفه مع العزيز على الثائرين[١]. فقد كلف ابنه الأمير أمين على رأس قوة عسكرية من رجاله بالذهاب إلى فلسطين لقتال العصاة هناك.

وقام هو شخصياً بدحر الثائرين في ولاية صيدا. بعدها أشرك ابنه الأمير خليل على رأس قوة من ستة آلاف رجل في قمع الثورة في اللاذقية وإنطاكية، كما أرسل قوة من رجاله لقمع العصيان في عكار وصافيتا وضواحيها[٢] السنة ١٨٣٤-١٨٣٥.

بالرغم من توسلات أهالي الإمارة وخاصة الدروز منهم، للأمير بشير لإعفائهم من التجنيد، فقد رفض طلبهم بحجة «التهرب من التجنيد لإثارة الفتن بالداخل[٣]. أما محمد علي باشا فقد قرّر رفض التجنيد على الدروز أسوة بسكان العراق والأناضول والرقة وأرزروم» وفي حال التمنع والفرار من الخدمة... «فسيلاحقون إلى أي مكان في الدنيا» وقد أعطى أمراً بإعلام الأمير بشير بأن الخدمة هي ١٥ سنة فقط للمجندين الجدد وليس للقدامى (١٨٣٥)[٤]. وكان إبراهيم في هذه الأثناء قد شكّل هيئة إدارية قوامها محمد شريف

(١) رستم، المحفوظات الملكية، ج٢، ص٤١٤ حتى ٤٢٠.

(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج٢، ص٤٨٢.

(٣) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص٣.

(٤) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص٧.

باشا، حاكم دمشق والأمير بشير الثاني والخواجا حنا البحري للنظر في قضية التجنيد في بلاد الشام[1].

لقد برزت مشكلة جديدة أمام إبراهيم باشا، إذ راجت الشائعات في الجبل بأن إبراهيم باشا قرر تجنيد ألف وخمسماية مسيحي، وإن البطريرك الماروني قرّر مقاومة هذا التجنيد مهدداً بالاستنجاد بفرنسا للتدخل لإعفاء الموارنة من الخدمة، الأمر الذي أدى بالوزير إلى نقض هذه المزاعم والتعميم على الأهالي النصارى بأن «ما عدا الـ ٢٥٠ مجنداً الذين أرسلوا إلى المشاغل في عكّا، فليس بالنية تجنيد أي نصراني على الإطلاق بالرغم من استعمال المسيحيين في مثل هذه الأشغال يسهّل عملية تجنيد المسلمين»[2].

وقد كتب العزيز أيضاً إلى ولده إبراهيم السنة ١٨٣٥ بأنه اطّلع على رسالة حنّا البحري التي يروي فيها تمنّع الدروز من التقدّم من مراكز التجنيد، وإنه يأمل من الأمير بشير الثاني بالتوصل إلى حل موفق لهذه المشكلة[3]. لقد أثبتت بلاد الشام، وقد أنهكتها قرون مديدة من الإهمال وسوء التدبير، إنها عبء ثقيل على كاهل أسيادها المصريين الجدد. ومما لا شك فيه، إلى جانب أن النصارى كانوا يعتبرون أنفسهم معفيين من الخدمة في جيوش دولة إسلامية بل يدفعون البدل عنها، فعقّال الدروز أبوا أن يخدم «فتيانهم جنباً إلى جنب مع جنود مسلمين في جيش واحد، خوفاً على درزيتهم من الإفساد»، أضف إلى ذلك وكما قلنا سابقاً، إن الخدمة العسكرية هدّدت بالقضاء على طبقة الفلاحين اللبنانيين، إذ كان من شأنها إبعاد أفضل عناصرها من المزارع والحقول إلى القتال في حروب لا مصلحة لها فيها.

ومراعاة لعقّال الدروز ولعدم رضى الأمير بشير عن معاملة الدروز مثل هذه المعاملة علماً منه بعواقبها الوخيمة، استطاع الأمير أن يزوّد إبراهيم باشا بألف نفر من الدروز ورضي إبراهيم، مراعاة لخواطر هؤلاء، بتنظيم

(١) رستم، المحفوظات الملكية، ج٢، ص١١٤.
(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص١٤.
(٣) الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٦٨، ص٦٢.

المجندين منهم في فرقة خاصة، بمعزل عن بقية الجيش. وما أن تمّ ذلك حتى ألحّ العزيز على ولده بتجريد الدروز من السلاح، بحجة أنهم قاوموا أوامره بالتجنيد في جيشه، إلى جانب أنه لم يجد في سلوكهم عموماً ما يشجعه على الركون إليهم. إنما داخله الشك في أنهم كانوا على صلة خفية بالعثمانيين.

ففي السنة ١٨٣٥ وفي الخريف، سار إبراهيم باشا على رأس خمسة ألوية من قواته (الأول والثاني من المشاة) إلى الشوف لتنفيذ المهمة عند الدروز والنصارى ودعا الأمير بشير إلى معونته. فرضخ الأمير وناشد الدروز والنصارى في المنطقة تسليم سلاحهم من دون مقاومة، وتفرّق أولاده في المقاطعات اللبنانية بغية جمع السلاح من الدروز(١). وما أن أنهى إبراهيم باشا جمع السلاح من هؤلاء بمساعدة الأمير، حتى ارتد نحو المسيحيين، فأمر بجمع سلاح الموارنة من أهالي دير القمر خلال ساعتين لتشمل سائر النصارى في مختلف مناطقهم، فبلغ ما جمعه منهم حوالى ٩٦٥٠ بندقية ومن الدروز ٥١١٣ بندقية بعد ذلك أوجب تقديم ألف وستماية شاب درزي للتجنيد «فابتدأت تتوارد الشباب إلى بتدين». وتذكر المحفوظات الملكية أن محمد علي باشا قال لناظر خارجيته، بوغوص بك، بشأن قضية تجنيد الدروز «إنه آن الأوان لدكّ جبل لبنان دكاً حتى يعود قاعاً بلقعاً»(٢).

بعد بتدين، نُقل حوالى /٦٠٠/ مجند متطوع إلى صيدا فجمعوا بثلاث وحدات قتالية قوام كل منها ١٨٠ رجلاً مع أربعة بواقين. وفوّض المصريون قيادتها إلى أبناء المشايخ الدروز بعد ترقيتهم إلى رتبة ملازم. ثم توجّهت هذه الوحدات بحراً إلى الإسكندرية في مصر(٣). «وقد كتب إبراهيم باشا إلى القائمقام محمود أفندي أن يعنى بالفرق الثلاث، الأولى التي أرسلت إلى الإسكندري، فيأمر بإسكانها في الثكنات

(١) الدبس، يوسف، تاريخ سوريا، بيروت ١٩٨٧، ج٤، ص٦٥٠.

(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص١٩.

(٣) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص٧٥.

وبتوزيع الكساوي عليها وأن يلتفت بنوع خاص إلى أبناء الوجوه فيخصص لهم تعيينات ملازمين. وهكذا فيكون السرعسكر قد أجاب سؤال «الأجاويد» من رجال الدين الدروز عندما أمر بإبقاء الشبان المجندين مجتمعين كتلاً غير موزعين أفراداً على فرق الجيش متباعدة»[(١)].

أما الباقي من المجندين فقد استعمل قسم منهم لتكملة عديد الفوج الرابع من لواء المشاة التاسع عشر ولسد النقص في عديد اللواء الثالث عشر المتمركز في الرملة في فلسطين، وما تبقى أرسل إلى السويدية[(٢)]. لم يطل الوقت حتى تبين لإبراهيم باشا أن عدد العشرة آلاف مجند المطلوبين لبلاد الشام كان مبالغاً فيه، فخمسة آلاف كانت تكفي وبالإمكان الحصول على هذا العدد من التجنيد المحلي، لذلك اقترح السرعسكر على والده خفض هذا العدد فأتت الموافقة وتقرّر تجنيد أربعة ألوية فقط لا غير[(٣)] في بلاد الشام.

بالرغم من أن الأمير بشير لم يكن راضياً ضمناً عن تصرفات العزيز في ما يختص بالتجنيد الإلزامي، إنما كان منسجماً معه في أشياء أخرى، فقد لبس هو وأولاده الطربوش المغربي بدلاً من «العمة»، اقتداءً بلباس الرأس عند إبراهيم باشا كما أنه وضع بتصرف السرعسكر قرابة ٩ آلاف مقاتل لاستعمالهم في عمليات قمع أهالي بلاد الشام.

إنّ تشبّث القيادة المصرية بفرض الخدمة العسكريّة في بلاد الشام عامة وفي جبل لبنان خاصة، كان الحجّة الأولى في استنهاض أهالي هذه البلاد للقيام بالعصيان والثورة ضد السلطات المصرية، الأمر الذي استغله العثمانيون والدول الأوروبية، بعدما تبينت لهم خطورة محمد علي على مصالحهم في السلطنة، فأمدوا الثائرين بالأسلحة والأموال والخبراء. وهكذا تنامت الثورة في حوران ومني المصريون بهزائم متعددة وخسائر جسيمة في عدد كبير

(١) رستم، بشير السلطان والوزير، ج٢، ص١٣١.
(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص٦١.
(٣) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص٢٨٥.

مـن المعـارك مـع الـدروز في الـلـجّـاه في حوران(١).

ومع تنامي هذه الثورة وتهديدها الوجود المصري، بدّل المصريون تكتيتهم بناء على اقتراح محمد شريف باشا، حاكم دمشق، وتنفيذاً لما كان إبراهيم باشا يردده «وكما إنه لا يقطع الألماس إلاّ الألماس كذلك لا يقهر الجبليين إلاّ الجبليون»(٢).

فقد كتب إبراهيم باشا إلى الأمير بشير «يأمره بجمع أربعة آلاف من الموارنة وأن يسلمهم أسلحة مؤبدة لهم ولذريتهم» ويوجههم صحبة ولده الأمير خليل إلى وادي التيم لقتال الدروز(٣). فضلاً عن تهديده بتدمير البيوت والقرى الدرزية إذا ما انضم أهاليها إلى جماعات الثوار. فكان هذا القتال بين الطائفتين، الأول من نوعه في تاريخ تعايشهم الطويل، ما ورّث الأحقاد والضغائن وأجّج نيران العداوة بين أبنائهما.(٤) وكان ذلك في شباط ١٨٣٨. لقد اشترك في هذا القتال ضد الثوار، الأمير بشير وأولاده وأحفاده ومناصروه. فحفيده الأمير مجيد قاتل في بيت جنين في إقليم البلان وسعد الدين وأحمد شهاب في سعسع وحاصبيا(٥).

في العام ١٨٣٩ قاتل المسيحيون مع الأمير بشير الثاني في أغلب معاركه القمعية ضد العصيان والثورات أينما اندلعت في بلاد الشام. لقد أرسلهم البشير لقتال الحماديين في عكار بناءً لطلب السرعسكر، وكانوا من ستمائة إلى ألف نفر بإمرة أحد أحفاده مجيد الذي تمكن بسرعة من قمع ثورتهم(٦).

---

(١) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص٣١٢.

(٢) مزهر، يوسف، تاريخ لبنان والشام، بيروت ١٩٨٧.

(٣) الشدياق، طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج٢، ص٢٢١.

(٤) المعلوف، تاريخ زحلة، ص١٥٣.

(٥) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص٣٧٢-٣٧٤.

(٦) رستم، المحفوظات الملكية، ج٤، ص١٥٩.

وفي هذه السنة أيضاً، كتب السرعسكر إلى الأمير بشير بتجهيز الأربعة آلاف ماروني الذين بحوزتهم الأسلحة التي منحها لهم ولذريتهم، للذهاب إلى حوران بإمرة الأمير خليل لمقاتلة الدروز في حال وصول الأمر له بذلك. وكذلك طلب الشيء نفسه من الشيخ سليمان عبد الهادي، شيخ نابلس، ولكن الأمور سويت في ما بعد بأن أصدر السرعسكر عفواً عن الثوار في حال تسليم سلاحهم. «فمثل أمام الحكمدار (حاكم دمشق) أربعون شيخاً يتبعهم ألف رجل وقدّموا الطاعة إليه مشفوعة بسبعمائة بندقية من سلاحهم وألفي بندقية غنموها من الجيش المصري. فتلا عليهم الحكمدار أمر العفو فعادوا إلى قراهم آمنين... »[1]. وقد كتب السرعسكر إلى حسين باشا الباشمعاون في ٤ آب ١٨٣٨ يقول «حينما أصبح عصاة اللجاة في حالة النزاع والاحتضار ثار دروز راشيا وحاصبيا... ففتحنا راشيا وقتلنا ٣٠٠ درزي واستعدنا المدافع والجبخانة التي كانت قد وقعت في يد الثوار قبلاً... وما تبقى منهم هرب إلى اللجاة فاعترض سبيلهم سليمان باشا وأهلك منهم عدداً يزيد على المئة... ولما وصلنا إلى اللجاه بعثنا رسولاً إلى داخل البلد يبلغهم الأمان... ولقد آمنّاهم رحمة بأطفالهم ونسائهم وأخذنا أسلحتهم وسقناهم إلى قراهم...».

والجدير ذكره أن رجال الجبل، بقيادة الأمير مجيد، اشتركوا بهمة ونشاط، في قمع عصياني عجلون والشيخ حسين شبيب في بلاد بشارة[2].

إن الأخبار المتواترة تقول إن المسيحيين اللبنانيين أبوا مقاتلة الدروز يومذاك، وتؤيد هذا الزعم روايات شعبية كثيرة، إلاّ أن معركة نشبت بين فرقة الأمير خليل وبين القوات الدرزية في شبعا بناءً على إصرار إبراهيم باشا، انهزمت في خلالها قوات الأمير التي قتل منها الشيخ فضل الخازن

(١) رستم، البشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٤٥.
(٢) رستم، البشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٧١-١٧٢.
- الصليبي، ص٦٧.

وسبعة عشر رجلاً، وغنم الدروز بأمتعتهم[1].

والجدير ذكره أن طلب السرعسكر من الأمير بشير أن يرسل ابنه خليل على رأس أربعة آلاف مقاتل من نصارى لبنان للاشتراك بالعمليات العسكرية في حوران ووادي التيم ضد الثوار الدروز، يتنافى تماماً مع ما درجت عليه تقاليد الإمارة. فقد كانت هذه التقاليد تحذر كل التحذير من وقوع اصطدام مباشر بين الطوائف، وخصوصاً بين الدروز والموارنة، وكان بشير يعلم كل العلم أن العودة عن هذه السياسة التقليدية قد تؤدي إلى عواقب وخيمة، لكنه لم يرَ بداً من إطاعة إبراهيم باشا والنزول عند طلبه.

وللتقليل من خطر هذه المجازفة ما أمكن، أشار على ابنه خليل بأن يمارس حرية التصرف في القتال إلى أقصى حد، واختار الأمير جرجس الدبس، الذي عنده معرفة بوادي التيم، ليعمل دليلاً لإبراهيم باشا في حملته تلك. وحرص جرجس هذا على أن يحيط الدروز علماً بتحركات الجيش المصري، بل إنه غالباً ما أعطى المصريين، عن قصد، توجهات مضلّلة.

وكانت بريطانيا وحليفاتها على اتصال مباشر بكل العناصر الناقمة على الحكم المصري في بلاد الشام وعلى رأسهم الدروز. وكان الشيعة في بلاد بشارة قد أعلنوا العصيان في خريف ١٨٣٩، فأخضعهم المصريون بمعونة الأمير بشير الثاني. وما كان عام ١٨٤٠ حتى أقلع المسيحيون عن تأييد الحكم المصري، لأنهم لم يستسيغوا تجنيدهم لقتال الدروز، فتعاهد الجميع على القيام بثورة ضد الاحتلال المصري المتحالف معه الأمير بشير الثاني، وقد كانوا دروزاً ونصارى وسنة وشيعة. برز العصيان وأخذ ينمو، خاصة بين المسيحيين، في كثير من مناطق الجبل. وسرت شائعة عن أن إبراهيم باشا سيجرّد المسيحيين من سلاحهم ومن ثم يطلبهم إلى الخدمة، وإن إبراهيم هذا كان يخشى، إذا ما بقي المسيحيون على سلاحهم، أن ينضموا إلى الدروز والمسلمين في ثورة شاملة ضده. وقد كتب السرعسكر

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٢٣.

إلى والده يقول «... لنفرض أننا تقدمنا إلى الأمام وهزمنا الروس فما الذي نستطيع أن نفعله بعد ذلك؟ كنا صرفنا لمسيحيي الجبل أربعة آلاف بندقية نظراً للظروف الحاضرة ولكن الدروز أكثر استعداداً للعصيان فإذا اتفقوا مع بعضهم فلا شك أن أهالي عربستان تقوم بأجمعها علينا...»[١].

كانت مظالم إبراهيم باشا بحق الشعب اللبناني متعددة وجائرة عاونه على تنفيذها الأمير بشير الثاني. وأهم هذه المظالم، عدا عن التجنيد الإلزامي، كان تجلّى على نزع سلاح المواطنين ومن ثم الضرائب المتعددة والمتراكمة والسخرة...

ففي أعقاب انتصار إبراهيم باشا في «نزب»، على العثمانيين السنة ١٨٣٩ قررت القيادة المصرية نزع سلاح المسيحيين في بلاد الشام، رغم أن هذه القيادة نفسها كانت قد وعدتهم سابقاً بعدم نزع السلاح الذي أعطي لهم، الأمر الذي أقلق خواطرهم، وأخافهم تغيير سياسة المصريين. كما انتشرت شائعة بين النصارى في أن نزع السلاح سيعقبه التجنيد الإلزامي، وكان على رأس هؤلاء موارنة لبنان الذين شعروا بأن كونهم مسلحين في مجتمع منزوع السلاح، يشكل ضمانة لهم[٢].

٢٣ – اندلاع الثورة:

في السنة ١٨٤٠ أمر محمد علي باشا باسترجاع الأسلحة التي وزعها ابنه إبراهيم باشا على الموارنة خلال تمرد الدروز السنة ١٨٣٨. لتنفيذ هذا الأمر السلطاني، طالب الأمير بشير الثاني، بفظاظة تسليم هذه الأسلحة الموزعة، فتخلى الموارنة عنه. وكان الدروز، بفضل عصيانهم وثورتهم، محسوبين على أعداء محمد علي.

وكانت الشائعات قد تكاثرت وتقاطعت مع تدخلات العملاء الأجانب، الوافدين إلى بلاد الشام، إن بحجة الاتجار أو تقديم الإعانات والمساعدات، وما كان يثيره هؤلاء من شائعات عن التجنيد ونزع السلاح،

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٧٣.

(٢) غنام، ص١٢٨-١٢٩-١٣٠.

وقرب قدوم قوات أجنبية تستخلص بلاد الشام من يد محمد علي[1] وتعيدها إلى السلطان العثماني. فكان كل ذلك الأثر الحاسم في النفوس ما جعلها أكثر استعداداً وتقبلاً للانضواء تحت لواء الثورة والقيام. بما تفرضه عليهم من أعمال عدائية ضد الأمير بشير الثاني ومحمد علي باشا.

ثار اللبنانيون واهتاجوا وألفوا جمعية للدفاع عن لبنان، خاصة بعدما هددهم إبراهيم باشا «بإبادتهم وتدمير منازلهم على رؤوسهم» إذا لم يؤدوا الطاعة، بدلاً من الإعتراف بشكواهم المحقّة والعمل فوراً على تصحيح الأمور والتحالف معهم بنية صافية. وقد بلغ التهديد ذروته في البلاغ الذي أصدره في السادس من حزيران ١٨٤٠ وضمّنه تهديداً بالدمار الشامل والإبادة الجماعية لسكان الجبل اللبناني. تجاه هذا الواقع قرر أعضاء الجمعية، الأنفة الذكر، بالإجماع الأمور التالية[2]:

أ - الإمتناع عن تسليم الأسلحة الموجودة بيد اللبنانيين.

ب - عدم الإذعان لأي تجنيد جديد.

ج - الإمتناع عن تسليم أي شخص يلجأ إلى لبنان حتى لو فرّ من الجيش.

د - إنشاء صندوق عام للدفاع عن لبنان يتبرع إليه كل لبناني بمبلغ شهري يراوح ما بين نصف قرش وثلاثة قروش.

٢٤ - تمرّد الشوف:

عندما شرع الأمير بشير في جمع السلاح الذي وزع على الموارنة السنة ١٨٣٨، قام تمرد في الشوف إذ هبّ شبان دير القمر إلى سلاحهم وتحالف النصارى مع الدروز في «خلوة الدير» وبثوا الدعوة للثورة، وامتد لهيب الحركة هذه إلى تلال بيروت وانضم إليها بعض الأمراء الشهابيين ومن أهالي الشوف العدد الكبير وقد رفعوا مطالبهم

(١) العقيقي، أنطون ضاهر، ثورة وفتنة في لبنان - نشر يوسف إبراهيم يزبك - لا تاريخ - بيروت ص ٢٦-٢٧.
- أبو عز الدين، ص٢٥٧-٢٥٨.

(٢) غنام، ص١٣٠-١٣١.
- رستم، البشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٧٣-١٧٤.

في شــكــل عــريضــة إلى الأمير بشير الشهابي[1] ومحمد علي:

أ - عدم جمع السلاح الذي كان قد وزع السنة ١٨٣٨، خاصة على الموارنة (١٦ ألف بندقية) لمحاربة الدروز السنة نفسها.

ب - إلغاء التجنيد الإلزامي.

ج - عدم دفع الفردة - ضريبة على الرأس عن المدني وعن الجنديين. وقد طلب من الأهالي بدفعها السنة ١٨٣٩، ثلاثة أشهر قبل الموعد المعهود وقبل أن يتمكنوا من جني الحرير الذي كان يمثل موردهم الأساسي.

وعندما يطالب الثوار بعدم دفع الفردة، يمكننا أن نأخذ فكرة كم كان كبيراً ظلم الدولة المصرية على السكان، إذ حاولت أن تستنفد طاقاتهم لأنها كانت بحاجة إلى المال.

د - تخفيف أعمال السخرة التي كانت تشكل وسيلة قديمة جداً في مصر لتعبئة العمل الفلاحي جماعياً. لقد احتاج الجيش المصري إلى مزيد من المساعدات السنة ١٨٤٠، خاصة للنقل، فصادر كل وسائل النقل المعروفة آنذاك (البغال والحمير والخيول) وشغّلها بالسخرة مع أصحابها. وقد طالب الثوار بتنظيم هذه السخرة وأن تدفع أجور عادلة لمعيشة وسيلة النقل وصاحبها.

هـ - التخلص من الظلم المصري والاحتفاظ بالأمير بشير «المعظّم».

و - ضمانة الدول الأوروبية: لقد قال الثوار إنهم لا يتراجعون عن مطالبهم إلاّ بضمانة فرنسا وإنكلترا وروسيا. فإنهم لا يثقون بحكم محمد علي باشا.

ز - عدم دفع ميرة ثانية.

ح - طرد بطرس كرامة من الديوان: كان بطرس كرامة يتظلّم الناس في معاملته وكان يرتشي في شكل ساخر من دون معرفة الأمير بشير. وقد هاجم الثوار منزله بقصد قتله لكنه هرب إلى بتدين.

---

(١) غنام، ص١٣٠-١٣١.

- سويد، ياسين، التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، منشورات الجامعة اللبنانية، ج٢، ص٦٠١-٦٠٢.

ط - تعيين ستة أعضاء منتخبين يمثلون الطوائف لمشاركة الأمير في إدارة شؤون الجبل. وهذا الشيء لم تعرفه السلطنة العثمانية في تاريخها، وهو مطلب ديموقراطي بني على تعدد الطوائف والأخذ في الاعتبار عدد كل طائفة.

لقد اتصل أعيان الشوف بالأمير بشير الثاني، عارضين عليه هذه المطالب ملتمسين منه بالرجاء العمل على رفع الظلم عنهم وعن أبنائهم... مؤكدين خضوعهم التام له وعدم رغبتهم بإبداله بحاكم آخر[١]. تجاهل الأمير كل هذه التوسّلات وعمد إلى المباشرة بجمع السلاح من أهالي دير القمر والمناصف والشحار[٢]، فهاج سكان تلك المناطق، وتحرّك أهالي الدير بقيادة آل أبي نكد وبقية أعيانها المسيحيين الموارنة[٣]. وفي ٢٧ ايار ١٨٤٠، تحرّك مائتان من رجال الدير والمناطق المجاورة لها في اتجاه «نهر الحمام» قرب غريفة، لمنع سليمان باشا المصري القادم من صيدا لجمع سلاح الأهالي. كما توجّه بعض الشبان نحو مقاطعة إقليم الخروب وتحديداً إلى ضهور بلدتي داريا وعانوت.

تخطت الثورة المناطق المشار إليها سابقاً لتدق أبواب صيدا عندما تقدم هؤلاء الشباب إلى عين مزبود ثم نحو المغيرية، بقصد التحكم بجسر الأولي ومدينة صيدا، والتحرش بالحامية المرابطة في صيدا وجوارها[٤].

لقد وقع الأمير بشير في موقف حرج نظراً لخروج الثورة من المقاطعات القريبة من عاصمته بتدين. فكتب يحذر أعيان المقاطعات «من الوقوع بهذا الغلط الذي يوجب خراب الديار وقلع الآثار». كما أرسل ينصح مشايخ دير القمر بالرجوع عما

---

(١) رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي، منشورات الجامعة الأميركية، ص١٠٨-١١٠.

(٢) الشدياق، ج٢، ص٤٥٨.

(٣) أبو عز الدين، ص٢٦١.

(٤) رستم، المحفوظات الملكية، ج٤، ص٣٤٢.

- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٧٥.

قاموا به «فلم ينتصحوا»[1]. لم يطل الوقت، وبناءً على نصيحة محمد علي باشا، عمد الأمير إلى معالجة قضية الثوار سالكاً فيها طرق المفاوضة مع أعيانهم، زارعاً بذور الشقاق في صفوفهم. وقد وصل الأمر العالي بالعفو عن طلب السلاح وذلك في ٩ حزيران ١٨٤٠.

٢٥ - الثورة في ضواحي بيروت:

في الوقت الذي استتبت الأمور حول صيدا ودير القمر والمناصف والشحار، كانت الثورة في ضواحي بيروت تأخذ في التصاعد، على يد بعض الأمراء الشهابيين المعارضين لسياسة الأمير بشير الثاني. ومن هناك كانت الدعوات توجه إلى مقاطعات كسروان والمتن والبقاع والشمال بغية استنهاض الأهالي وحضهم على العصيان[2]. وقد تميزت نداءات زعماء معسكر بيروت بطرحها مسألة الوجود المصري في بلاد الشام.

بدأت حركة العصيان في بيروت في الأول من حزيران إثر خروج أحمد داغر من برج البراجنة وأبي سمرا غانم من بكاسين وتوافد عدد كبير من الثوار إلى معسكر حرج بيروت، كان في طليعتهم بعض الأمراء الشهابيين كفارس حسن، وسلمان ملحم ومحمود سلمان، وبعض الأمراء اللمعيين كعلي منصور قايدبيه وعبد الله شديد مراد وعلي فارس وإسماعيل حسن قايدبيه، ومن الحرافشة الأميران خنجر وسلمان. ومن آل الخازن الشيخ فرنسيس أبو نادر من غسطا وعفيف حكم وشمسين صفا وصالح هيكل وبشاره فرنسيس وابنه حصن ويوسف عيد وعيسى الخوري[3]. ثم انضم من شيوخ الشباب الأشداء أبو سمرا غانم وأحمد داغر ويوسف الشنتيري[4].

---

(١) رستم، الأصول العربية، ج٥، ص٨٢.

(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج٤، ص٤٠١.

(٣) الشدياق، ج١، ص٧٤، وج٢، ص٤٥٩-٤٦٠.

(٤) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٧٦.

وازداد عدد الثوار وانتخبوا لهم زعيماً الشيخ فرنسيس ابو نادر الخازن فاتخذ لنفسه لقب «سرعسكر النصارى». لم يتمكن الأمير أمين ابن الأمير بشير من لجم ثوار بيروت رغم تطمينهم بعدم أخذ سلاحهم وقد أجابوه: «إننا لا نطيع هذه الدولة المصرية ولا نسكن بمحل تحت تسلطها»(١).

٢٦ - الثورة في كسروان والمتن والمقاطعات الشمالية والبقاع:

لم تكن هذه المقاطعات مسرحاً لعمليات قتالية، إنما شكلت مورداً بشرياً لمعسكر بيروت، حيث تقاطر إليه الثوار المسلحون بالعصي والخناجر، أما حاملوا البنادق فأغلبهم كانوا يحشونها بالبارود والحصى الكروية وذلك لعدم وجود الرصاص(٢).

وقد هاجم أهالي كسروان باخرتين مصريتين حاولتا الرسو في مرفأ جونية بغية نقل الغلال. فقتلوا بعض عناصرها وأجبروا الباقين على التراجع نحو سفنهم. بعد ذلك اجتمع حوالى ١٤ شخصاً من أعيان الدروز والنصارى والشيعة، وشكلوا ديواناً عسكرياً، قضى بأن يحلف «جمهور الدروز في جبل لبنان ونصارى ومتاولة وإسلام بوجه العموم» اليمين على مذبح كنيسة القديس مار الياس أنطلياس «والذي يخون منا يكون مار الياس خصمه ولا يكون له موتة على دين المسيح»(٣). ثم توجه المجتمعون إلى «طاحونة السلطنة» القريبة من أنطلياس «وأخذوا منها مقدار أعدال عدد ٦٠ طحين». ثم ذهبوا إلى ضواحي بيروت وانقسموا هناك إلى ثلاثة أرتال لمساعدة الثوار في معسكر بيروت.

---

(١) رستم، المحفوظات الملكية، ج٤، ص٣٧٠.

(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج٤، ص٣٧٠.

- الشدياق، ج٢، ص٤٦٠.

- الحتومي، ص٢٧٧-٢٧٨.

(٣) رستم، الأصول العربية، ج٥، ص١٠٠.

- الصليبي، ص٧٤.

- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٨٠.

.إن ثورة كسروان تختلف بعض الشيء عن تمرد الشوف. فمن المعروف أن في هذه الثورة، تألفت القيادة من الشيخ فرنسيس الخازن وهو من المشايخ الثانويين (مخلخل) بالإضافة إلى بعض المشايخ من المتن وبعلبك، حيث يظهر اسم خنجر الحرفوش، وكان من أعداء الثورة المصرية لأن إبراهيم باشا صادر كل أمواله وأخذ أراضيه في بعلبك. إنما يبدو من الوثائق الرسمية التي تعود إلى السنة ١٨٤٠ وموجودة في وزارة الخارجية الفرنسية، إن القيادة اللبنانية كانت «شكلية» والقيادة الفعلية كانت بيد الأجانب؟. وقد تمكنت هذه القيادة من ضبط مجلس القيادة فكان هناك:

- الكونت أونفروا (فرنسي)، قائد الثورة.
- السنيور فوسّولي (FOSSOLI) (إيطالي)، مرافق القائد.
- شازيل دي ليريتييه (CHEZELLE DE L ERITIER) (فرنسي) رئيس الأركان.
- الأب فانسان ريللو (فرنسي)، المسؤول عن اللوجستية وقد أطلقوا عليه اسم «روح الثورة».

وتضيف المراجع الأجنبية انه تمّ تعيين عقداء لقيادة المتمردين وكانوا من الأمراء: بيت بو اللمع - بيت مراد - بيت الخازن وهؤلاء يأتون في المرتبة الثالثة من حيث السطوة.

بعد قسم أنطلياس انفرد الأجانب، هؤلاء، بتحديد أهداف الثورة وقالوا إن «القضية دينية طائفية» ويجب أن تحل بضمانة دولية.

إلى جانب تدخل الأجانب في قضايا الجبل، كان تدخل عناصر أخرى في الثورة مثل: القناصل والتجار والإرساليات الأوروبية وخاصة اليسوعية. ويجب ألا ننسى دور رجال الدين الموارنة فقد انقسم الإكليروس الماروني إلى قسمين: الإكليروس الأعلى (البطريرك والمطارنة) كانوا يقفون موقف المحافظ من الثورة وكانوا يحاولون تهدئة الخواطر، بينما الكهنة كانوا مع الثوار، وهم الذين أثاروا الرأي العام في كسروان والمتن، والسبب في ذلك يعود إلى نتيجة تطور حكم الأمير بشير الثاني ومفهوم الدولة التي حررت الشعب من سيطرة المقاطعجية. إن خطاب أونفروا الذي ألقاه بعد قسم أنطلياس، شدد فيه على الاستقلال والتحرر من السيطرة المصرية،

معتبراً إن هذين العاملين هما في أساس الدين في شكل خاص، بمعنى أن التحرر فيه معنى ديني أكثر منه سياسي. وكانت للثوار مطالب عرضوها، كما قلنا، أثناء هذه الثورة. من هنا نرى اختلافاً في وجهات النظر بين مطالب أونفروا ومطالب الوطنيين الذين ثاروا بقيادة هؤلاء الأجانب. ذلك أن اللبنانيين ثاروا لقضايا سياسية اقتصادية، بينما الأجانب تدخلوا لأهداف سياسية دينية تطرح على مستوى الشرق وضمن المسألة الشرقية (محمد علي والسلطان العثماني). ويتأكد هذا الأمر من أن الأجانب الذين تدخلوا في الثورة هم أولاً:

- القنصل الفرنسي بورّره (BOURRE) الذي اقترح على رئيس الوزراء تيار (THIERS)، بإنشاء ما سماه إمارة مسيحية في لبنان (LA PRINCIPAUTE CATHOLIQUE AU LIBAN) تكون تحت الحماية الفرنسية والسيادة المصرية.

- القنصل الإنكليزي المستر ريتشارد وود (RICHARD WOOD)، الذي كان يحرّض على الثورة ضد محمد علي وذلك بإثارة الثوار وبدفع الأموال، والسبب أن فرنسا كانت مع إنشاء إمبراطورية مصرية في الشرق وإنكلترا كانت ضد هذا التوجه. وقد كتب رئيس الوزراء الفرنسي تيار إلى محمد علي بواسطة قنصل فرنسا العام في الإسكندرية كوشله (COCHELET):

«على محمد علي أن يواجه ثورة الموارنة باللين (والتوقف عن الحديث عن الاستقلال) والحزم حقاً. فإذا ما رفضوا فلهم الحديد والنار».

بعد هذه الرسالة، اجتاح الجيش المصري جبل لبنان وقضى على الثورة نهائياً، و«دخل الخوف والهلع على الجميع فالتجأوا إلى الأمان مقدمين بالوقت والساعة الخضوع والطاعة»(١). وتمّ توقيف بعض الأمراء وجُمعَ السلاح.

---

(١) رستم، المحفوظات الملكية، ج ٤، ص ٤١٠-٤١٢-٤١٤-٤١٨.

- الشدياق، ج ٢، ص ٦٠٠-٦٠١.

٢٧ - جلاء القوات المصرية عن بلاد الشام:

تباينت مواقف الدول الأوروبية ومصالحها إزاء الوجود المصري في بلاد الشام، من حيث أنها أجمعت، وباستثناء فرنسا، على ضرورة خروج محمد علي من سوريا وإعادتها إلى سلطة السلطان العثماني. ففي الخامس عشر من تموز ١٨٤٠ انعقد مؤتمر لندن وتمّ باختصار طرد المصريين من لبنان وسوريا وفلسطين. لأجل ذلك شجعوا من جديد الثورة في الداخل وتمّ إنزال قوات عثمانية وإنكليزية في ٩ أيلول في جونية وانتهت العمليات العسكرية بين الحلفاء والمصريين باندحار إبراهيم باشا مع جيشه وإجباره على ترك بلاد الشام نهائياً والإنسحاب متقهقراً إلى الديار المصرية.

٢٨ - إقالة الأمير بشير الثاني وتولية الأمير بشير الثالث:

لم يستطع بشير الثاني قطع صلاته مع إبراهيم باشا وسائر أعضاء حكومته في بلاد الشام، ولم يتمكن بالتالي من فك عرى تحالفه مع محمد علي. وانقضى الأجل الذي ضربه له الحلفاء للالتحاق بهم من دون أن يحسم أمره لا رفضاً ولا قبولاً. وكانت إنكلترا هي صاحبة الحل والربط في الأمر. وكان ريتشارد وود قد استصدر فرماناً سلطانياً من دون تاريخ، يقضي بعزل بشير الثاني وتولية الأمير بشير الثالث الملقّب ابو طحين مكانه. وعندما انقضت المهلة المعطاة لبشير الثاني، دعا وود أعيان البلاد إلى ميروبا وتلا على مسامعهم في ١٠ تشرين الأول الفرمان السلطاني الذي قضى بعزل بشير الثاني وتولية بشير الثالث مكانه «أميراً على عشائر الدروز».

استسلم بشير الثاني إلى الحلفاء، فنزل إلى صيدا مع حاشيته المؤلفة من أولاده الثلاثة وزوجته الست حسن جهان وأحفاده ومدبره وبعض الأعيان والمناصرين وحوالى ٣٠ نفراً[1]، وسلم أمره إلى الإنكليز، فنفي إلى مالطة ومنها إلى اسطنبول حيث بقي فيها حتى وفاته فيها السنة ١٨٥٠.

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص٢١٠.

١ – التنظيم العسكري

١١ - التنظيم:

بقي الأمير بشير الثاني أميناً في تنظيم جيشه، على تقاليد وعادات الإقطاع الدارجة في عهده. ومهما قيل عن القوة العسكرية للأمير، فالحقيقة، كل الحقيقة، إنه لم ينشئ جيشاً نظامياً كما نفهمه اليوم أو كما كان مفهوماً في الدولة العثمانية أو غيرها من الدول المستقلة في أوروبا. فالقوة الوحيدة المنظمة عسكرياً والتي كان يملكها الأمير الشهابي آنذاك، لم يتعدّ عديدها الألف رجل: نصفهم من الخيالة والباقي من المشاة. هؤلاء هم حرس الأمير الحاكم. وكان الخيالة يتصدرون براتبهم على المشاة ويتمتعون بامتيازات أكثر(١). كان الأمير، في حروبه، يتكل على الرجال الذين يجمعهم للقتال في إمارته وعلى حلفائه وأنصاره في المقاطعات الأخرى خاصة في جبل لبنان ووادي التيم والبقاع. إلى جانب ذلك، كان بإمكانه طلب المساعدة العسكرية من والي صيدا أو والي الشام أو والي طرابلس إذا كان على صداقة معه. وكل هؤلاء الجنود كانوا من أبناء المقاطعة أو الإمارة، وكذلك عسكر الوالي كانوا محليين أو من أصول مختلفة: مثل الدالاتية والهوّارة والارناؤط والمغاربة والعرب والسكمان(٢).

(١) (غيز) GUYS, Henri, Relation d'un séjour de plusieurs années à Beyrouth et dans le Liban, Librairie française et Etrangère, Paris 1847, vol 2, P.159.

(٢) المعلوف، ص٢٥٩.

الفصل الثاني

التنظيم والإعداد العسكري

على الرغم من عدم وجود جيش نظامي في الإمارة، لم يهمل الأمير بشير القضايا العسكرية في حكومته. لقد كان البشير، طيلة مدة حكمه، في صراع عسكري مع أخصامه في الداخل وفي الخارج، لذلك كان يعطي الالتزامات العسكرية جل اهتماماته ويفرضها بدقة متناهية على رعاياه في الإمارة وفق ما كان ينص نظام الإقطاع العسكري من عادات وتقاليد. وكان يسهر على تطبيق تعليماته وتنفيذ أوامره بدقة، وكثيراً ما كان يشرف بنفسه عليها: فعندما يأمر بالتعبئة الجزئية أو العامة، كان الأمير، قبل المعركة، يعرض رجاله، رؤساء ومرؤوسين، للتأكد من مستوى لياقتهم الجسدية واستعدادهم للقتال، وفق مقتضيات الحاجة والظروف العسكرية.

كان أمر التعبئة يبلّغ إلى أهالي القرى بواسطة السعاة والرسل. يستدعون الرجال للقتال، إما بدعوة عامة توجّه إلى كل الذين يحملون السلاح أو لا يحملونه، وإما بدعوة محدّدة توجّه فقط إلى الذين يحملون السلاح بدون استثناء أحد منهم(١).

وهناك طريقة ثانية للاستدعاء، وهي المناداة إلى الحرب من رؤوس الجبال التي تحيط بالقرى أو بإشعال النيران على قممها لإعلامهم بأن يستعدوا للحرب وأن يجتمعوا في سرايا الأمير الحاكم. وكان عندما يجتمع الأمير وأعيان البلاد في السرايا ويقررون الحرب، يذهب المنادون مساءً إلى قمم التلال ويبدأون بالمناداة بصوت مرتفع: «يا سامعين الصوت صلوا على النبي أو على المسيح (وفق مذاهب أهل القرى)، عن أمر سعادة مولانا الأمير... استعدوا للحرب... استعدوا للحرب. جهزوا بنادقكم ومسدساتكم وسيوفكم وحرابكم وخيولكم، أمراء وأعيان والاجتماع في سرايا الأمير». هذا النداء يسمعه الأهالي وينقلونه إلى القرى المجاورة فيستعد الجميع للقتال. وبعد ٣ أيام على الأكثر، يجتمع في السرايا حوالى خمسة عشر ألف مقاتل جاهزون للانتقال فوراً إلى ساحة المعركة.

---

(١) أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص٢٢

يتجاوب رجال الإمارة بسرعة مع هذه النداءات، وينتقلون ظرافات ووحدانا، إلى سرايا بتدين «بالحدي والغناء الحربي»، فيصل الجميع - مشاة وخيالة، كل مزود بسلاحه وذخيرته وتغذيته، على الأقل لمدة ٣ أيام قتال.

يجب ألا ننظر إلى جيش الأمير بشير الثاني كجيش نظامي شبيه بالجيوش الحديثة، أو على الأقل بفرقة من الفرق العسكرية النظامية العثمانية في عصره، من حيث اللوجستية العملانية والتنظيم المتكامل والعتاد والمعدات وغيرها.

كانت التشكيلات القتالية لا تعتمد على الفصائل والسرايا بل على العائلات وفق عادات وتقاليد جيوش الإقطاع في ذلك الزمان. فالسلطنة العثمانية لا تسمح بإنشاء جيوش نظامية في المقاطعات والسناجق، خوفاً من العصيان والطموح إلى الاستقلال وحرية تقرير المصير.

لم يكن في حوزة المقاتلين اللباس والأسلحة الموحدة: فالمطايا كانت حكراً على الذين يعيشون برغد وسعة عيش، وكالعادة فهم الأعيان والمشايخ من أهل الإمارة.

ومن أشهر القادة العامين في جيش الأمير بشير الثاني:

- الشيخ بشير جنبلاط، زعيم الغرضية الجنبلاطية وآل جنبلاط. وقد بقي قائداً عاماً حتى تاريخ خصامه مع الأمير، بعد معركة دمشق العام ١٨٢٢.

- الأمير خليل ابن الأمير بشير الثاني، الذي حل محل الشيخ الجنبلاطي في قيادة جيش والده. وقد مثّل دوراً مهماً في القتال إلى جانب إبراهيم باشا المصري في بلاد الشام.

- الأمير مجيد، حفيد بشير الثاني. وهو أيضاً لعب دوراً بارزاً مع إبراهيم باشا في صراعه ضد الثوار.

كانت الراية العسكرية للأمراء الشهابيين تتألف من هلال أبيض اللون على بطانة زرقاء. وهذه الراية اعتمدها الشهابيون بعد أن تخلوا عن الراية القيسية حزبهم القديم. ولا يجب أن ننسى أن كل عائلة إقطاعية من عائلات الجبل، لها بيرقها الخاص، تدافع عنه دفاع الأبطال لأنه كان يمثّل شرفها وعنفوانها أثناء القتال.(١)

(١) شبلي، ص٩٩.

وهكذا نرى أن الأمير بشير الثاني تمكن من إعداد جيش ممتاز في إمارته، على الطريقة الإقطاعية، يتمتع بانضباط صارم. ويقال إن الأمير كان في إمكانه أثناء التعبئة تجنيد أكثر من ثلاثين ألف مقاتل: ستة آلاف من الدروز وخمسة وعشرين ألفاً من الموارنة[1]. وبفضل هذا الجيش، استطاع الأمير أن يمنع أي تعكير أمني في بلاده وأن يصون حرية الانتقالات وصفاء العيش[2]. وعلاوة على ذلك، وبفضل وقاره وهيبته وسلطته، استطاع، حتى تحت الحكم المصري، أن يفرض حالاً من الأمان والأمن لا مثيل لهما وبمساعدة شرطة صارمة إنما عادلة، فرض في البلاد نظاماً وأمناً لم تعرفهما البلاد منذ قرون بعيدة[3].

إلاّ أن الحكم المصري حل هذا الجيش بين العامين ١٨٣٣ و١٨٣٥، وحل كل جيوش الإقطاع في بلاد الشام عندما جمع بالقوة أسلحة المواطنين من دون تمييز وأدخل الخدمة الإلزامية في البلاد. وهكذا نزع إبراهيم باشا من حليفه الأمير بشير الثاني، القوة التي كانت مصدر سلطته وهيبته. حتى تاريخ وصول المصريين إلى لبنان كان بإمكان الأمير بشير، عندما يريد، تجنيد ثلاثين ألف مقاتل أكثريتهم من الخيالة. لكنه، منذ ذلك الحين، أصبح تحت رحمة القائد المصري الذي أحاط بتدين، عاصمة الأمير، وقصره بالجنود بينما كان الجبل لا ينام بسبب ضوضاء نعال المفارز العسكرية المصرية التي كانت تظلم مواطنيه.

١٢ - العديد:

اختلفت آراء المؤرخين في شأن الأرقام المعطاة لعديد جيش الأمير بشير الثاني، لذلك لا نستطيع أن نعتمد أياً منها كرقم صحيح. فقد تراوح العديد من ثلاثة آلاف مقاتل إلى مئة ألف، والرقم الأخير ورد على لسان محمد علي باشا عندما التجأ

---

(١) إسماعيل، المحررات، ج٣، ص٤٩.

- ديب، بطرس، الكنيسة المارونية، دار الحكمة، مطرانية بيروت للموارنة، بيروت ١٩٦٢، ج٢، ص١٩١.

(٢) سويد، ١٩٦٢، ج٢، ص٦٢١.

(٣) لامنس، سوريا، ج٢، ص١٥٧.

إلى دياره الأمير اللبناني «هذا كبير عشائر جبل لبنان وهو يحكم مئة ألف مقاتل».

في العام ١٨١٩، وأثناء عصيان أهالي المقاطعات الشمالية (جبّة بشري وكسروان)، نقل المستشرق الفرنسي الأديب لامارتين، أن عديد جيش الأمير بشير كان حوالى ثلاثة آلاف، بإمرة الشيخ بشير جنبلاط[(١)]. وكذلك قنصل فرنسا في بيروت، السيد هنري غيز، فقد روى لوزير الخارجية الفرنسية، إن الأمير بشير، انتقل إلى دمشق، في ٢٩ تشرين الثاني ١٨٣٢، للاجتماع مع واليها شريف بك، على رأس جيش صغير قوامه ثلاثة آلاف رجل[(٢)].

وفي مكان آخر، يروي هذا القنصل أيضاً، أن الأمير بشير انتقل إلى مرفأ صيدا على رأس جيش قوامه خمسة آلاف نفر. ومن هناك أرسل ابنه الأمير خليل إلى صافيتا في فلسطين على رأس قوّة من ألفي رجل لإخضاع العصيان الذي قام هناك، وكان ذلك في ٢٣ تموز ١٨٣٤[(٣)].

يقول الشدياق، إن الأمير استطاع السنة ١٨٠٤، بعد وفاة الجزار، تجنيد قوة من ستة آلاف مقاتل، لمساعدة السرعسكر إبراهيم باشا للقضاء على إسماعيل باشا الذي استولى على عكا بالحيلة[(٤)]. في السنة ١٨٢٢ كتب قنصل فرنسا في صيدا إلى وزير خارجيته يعلمه أن الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط تمكنا من تجنيد ستة آلاف مقاتل وتوجّها بهم إلى دمشق لقتال جنود واليها[(٥)]. وفي السنة ١٨٣٨ كان بإمكان الأمير تجنيد حوالى سبعة آلاف مقاتل بينهم ألفان من الخيالة[(٦)]. وفي السنة ١٨٢٣، ورد

---

(١) لا مارتين – ألفونس – رحلة إلى الشرق، هاشيت – باريس، ١٩١٠ – ١٩١١، ج١، ص٢١١.

(٢) إسماعيل، عادل، المحررات الدبلوماسية القنصلية، بيروت ١٩٧٥، ج٥، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٣) إسماعيل، المحررات، ج٥، ص٢٩٥.

(٤) الشدياق، ج٢، ص٣٨٣.

(٥) إسماعيل، المحررات، ج٣، ص١٨٢.

(٦) إسماعيل، المحررات، ج٣، ص١٨٢.

في المحفوظات الملكية أن الأمير كان لديه حوالى عشرة آلاف مقاتل يمكن ضخهم في المعركة عند اللزوم(١).

في السنة ١٨١٠، انتقل الأمير بشير لمحاربة الوهابيين في سوريا على رأس جيش تعدى الخمسة عشر ألف رجل منهم أربعة آلاف من النصارى. ويقال إن الأمير كان بإمكانه مساعدة الجزار عند محاصرته من قبل بونابرت، بجيش قوامه من ١٥ إلى ٢٠ ألف رجل(٢).

يقول أحد الرحالة الفرنسيين هوراس ڤارني، إن الأمير بشير وضع بتصرف إبراهيم باشا السنة ١٨٣٩، لاستعماله عند الحاجة، جيشاً مؤلفاً من ٣٠ ألف رجل(٣). ويقال أيضاً إن جيش الإمارة على أيام الشيخ بشير جنبلاط بلغ عديده الأربعين ألفاً، منهم عشرة آلاف من الخيالة(٤). أما محمد علي باشا نفسه، فأبلغ قنصل فرنسا في مصر أن إمارة جبل لبنان وبلاد نابلوس يمكنهما تزويده بحوالي ٤٠ ألف رجل عند اللزوم(٥). ومنهم من يقول ٥٠ ألفاً من الرجال الأشداء، مسلّحين تسليحاً ممتازاً(٦).

بعدما فُتح الأرشيف العثماني أمام المؤرخين، تبين أن عدد سكان إمارة الشوف حتى العام ١٨٣٧، كان حوالى ٢١٠ آلاف نفس. ومن المسلم به إن الدولة لا يمكن أن تجند من أهاليها سوى ١٠٪ لذلك نرى أن مقولة المئة ألف مقاتل التي تكلّم عنها محمد علي باشا لم تكن سوى مزاحاً للإطراء والملاطفة. أما إذا أخذنا كل هذه الأرقام التي وردت سابقاً على لسان قائليها، فيمكننا تصنيفها ضمن فئات ثلاث:

---

(١) رستم، المحفوظات الملكية، ج١، ص٥٩

(٢) لا مارتين، ج١، ص٢٠٦.

(٣) توما، ج١، ص١٦٦.

(٤) أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص٢٥.

(٥) ديب، بطرس، الكنيسة المارونية، ج٢، ص ٢٣٠.

(٦) ديب، بطرس، الكنيسة المارونية، ج٢، ص٢٥٨.

أ - البعض منها قدر لمعركة معينة بناء لأمر تعبئة جزئية وليست عامة.

ب - تقديرات تتعلق بمرحلة زمنية محددة، استطاع الأمير الإفادة من دعم ومساندة حلفائه في المقاطعات الأخرى بالرجال والعتاد.

ج - البعض منها كان تقديرات محض شخيصية لا تستند إلى أي قاعدة منطقية أو علمية.

بناء على ما تقدّم نرى أن عديد جيش الأمير بشير الثاني لم يتعدَّ في مطلق الأحوال وطيلة حكم الأمير، العشرين ألف مقاتل.

٢ - الإعداد العسكري

٢١ - التجهيز:

تختلف تنشئة جيوش الإقطاع للقتال اختلافاً تاماً عنها في الجيوش النظامية. ففي هذه الأخيرة يستند على قواعد علمية منتظمة، هدفها تنشئة مقاتلين في إطار وحدة نظامية طبقاً لمبادئ تكتيكية وتقنية واضحة. أما في جيوش الإقطاع، فتنشئة المقاتل تتم أغلب الأحيان عبر الفرد نفسه وبمبادرة شخصية منه، ليس إلاّ، من دون الرجوع إلى طريقة محددة أو إلى قوانين عسكرية واضحة وصريحة. فإذا اعتبرنا أن التنشئة العسكرية في معناها العصري الحديث، تعني تجهيز الجيش (لباس موحد، أرزاق، أسلحة، عتاد وذخيرة) وتدريبه وتنشئته الجسدية والمعنوية وجمعه في وحدات وقطع متجانسة، (كتائب، أفواج - أولية - فرق إلى آخره) طبقاً لعقيدة عسكرية صريحة ودقيقة، كي يتمكن من تنفيذ المهمات القتالية، فكم نجد أن جيوش الإقطاع كانت بعيدة عن تطبيق مثل هذه المبادئ والأساليب يومذاك.

في الحقيقة لم ينشئ المقاطعجية، أمراءً وأعياناً، جيوشاً حديثة كما نفهمها. فقد كانوا يستدعون رجالهم إلى القتال على الطريقة التي وصفناها سابقاً. فيلبي هؤلاء الاستدعاء وينتقلون إلى نقاط التجمع وبحوزتهم بنادقهم وأرزاقهم وذخيرتهم ومطيتهم إذا كانت لديهم. والقاعدة المتبعة آنذاك، أن كل رجل قادر على حمل السلاح، وجب عليه الذهاب إلى المعركة في اللحظة التي يطلبونه فيها. أساساً كانت

التنشئة والاستعداد للقتال تقعان على مسؤولية المقاتل نفسه وعلى نفقته الخاصة. ومع ذلك وجب على المقاطعجية، أمراء ومشايخ، أن يأخذوا مقاتليهم على حسابهم الخاص خلال المعركة، خاصة الذين لم يكن لديهم أية أسلحة أو أعتدة فيؤمنونها لهم بالسرعة القصوى كي يشتركوا في القتال. لذلك كانوا يقدمون لمقاتليهم المأكل والمشرب والذخيرة وعدة التخييم والعليق لجيادهم. وكانت وجبة المقاتل تتألف عادة من الخبز والبصل والجبنة والزيتون وبعض الفاكهة وقليل من النبيذ (أو العرق اللبناني)(١).

إن تزويد المقاطعجي رجاله بالعتاد والمعدات، قبل المعركة أو أثناءها، لم يكن من حسابه الشخصي. لقد كان يستوفي هذه المصاريف من «الميرة» المترتبة على الأهالي في مقاطعته: بأن يفرض عليهم أن يدفعوا، علاوة على الضريبة السلطانية، مبالغ إضافية يحتفظ بها لتغطية مصاريف رجاله أثناء القتال. وكذلك السنة ١٨٠٤، بعد موت الجزار، طلب خليفته إبراهيم باشا، من الأمير بشير مساندته بستة آلاف مقاتل لمحاربة مغتصب ولاية عكا، إسماعيل باشا. وقد طلب منه أيضاً الإسراع في تحصيل أموال الميرة لتغطية مصاريف الجنود المقاتلين. وقد نفّذ الأمير بشير الثاني هذا الطلب، وأرسل رجال «التحصيل دار إلى كافة البلاد لجمعها» وإرسالها إلى إبراهيم باشا. والشيء نفسه حصل مع الأمير يوسف شهاب السنة ١٧٨٢، فقد ابتدع ضريبة جديدة «الشاشية» وحصّلها من أهالي الجبل وكانت بمثابة غرشين على كل ذكر بالغ(٢).

في السنة ١٨٣٣ فرض إبراهيم باشا ضريبة جديدة على أهل البلاد من دون استثناء، هي «الفردة»، وقد فرضت على

(١) أبو شقرا، الحركات، ص٢٢.
- فولتار، ص٢٣٩-٢٤١.
- باز، رستم، مذكرات، بيروت، الجامعة اللبنانية ١٩٦٨، ص٢٨.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٣٤.

الأفراد الذكور البالغين من العمر ما بين خمسة عشرة سنة إلى ستين سنة. وكانت قيمتها تصل إلى ١٢ بالمئة من دخل المكلفين، على ألا تزيد عن خمسماية قرش على المكلف الثري، ولا تقل عن خمسة عشر قرشاً على المكلف الفقير[١]. فكان مجموع المكلفين في الامارة فقط حوالى ١١٠٣١٣ شخصاً منهم ٧٧٥٨٩ من الموارنة وذلك بعد أن عدّت النفوس لهذه الغاية وسجلت في دفاتر معينة تمت الجباية بموجبها[٢]. شكلت هذه الضريبة العمود الفقري لخزينة محمد علي باشا، وبالرغم مما كان يكتنفها من سوء في التقدير ومحاباة في التوزيع، فإن الشكوى منها كانت تتفاقم بسبب تجبير تناقص المكلفين الحاصل نتيجة الوفيات والتجنيد والهجرة، إلى الرجال الباقين في البلدة أو المقاطعة، فضلاً عن أن رجال الدين والموظفين والعسكريين أعفوا أو فرضت ضريبتهم على ذويهم وأقاربهم. ويقول هنري غيز إن المكلف لا يموت فعلاً في نظر الحكومة المصرية إلاّ بعد انقضاء سنتين أو ثلاثة على موته الحقيقي. بعدها فرض محمد علي ضريبة «الشونة» وهي ضريبة عينية تقتطع لمصلحة الجيش من الحاصلات الزراعية كالحبوب والسمن والزيت والشعير والزبيب... وكان المكلفون يقومون بنقلها على نفقتهم الخاصة إلى أقرب شونة (أو ثكنة) عسكرية بغية تسليمها. والغريب في الأمر أن الحكومة كانت تستعمل أيضاً «ميزانين ومكيالين مختلفين في الوزن والكيل. فالميزان أو المكيال الكبير تتسلم بموجبه من الأهلين، والصغير تستعمله عندما يكون التسليم منها إليهم. وكان الفارق ما بين الاثنين نحو الربع تقريباً. وكان الملاّك مكلفاً أيضاً بسداد العجز عيناً، أو دفع ثمنه نقداً[٣].

ومما كان يزيد من مأساة الأهالي، لجوء إدارة محمد علي إلى تسخيرهم وتسخير حيواناتهم في سبيل مصالح الجيش والحكومة. وقد تناولت طرق استغلالهم

(١) بازيلي، ص١٨١.
(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج٢، ص٣٤٤.
(٣) غنام، ص٧١.

شتى الأساليب. ولحقت الرجال والنساء، كما تناولت الفلاحين والملاّكين والمكاريين والعمال والبنائين وسائر القوى العاملة(1).

لقد تعذر على صاحب أية دابة أن يبعد دابته عن تسخيرها. ومن مظالم السخرة إرسال البنائين والفلاحين إلى القلاع التي هدمتها الحرب بغية إعادة ترميمها وتأهيلها.

مقابل هذا كان إبراهيم باشا يدفع رواتب ثابتة للجنود. فعندما أرسل الأمير قاسم ابن الأمير بشير على رأس قوة عسكرية من ألفي مقاتل إلى زحلة «لحفظ العلف» المعد للجيش المصري، دفع إبراهيم باشا لكل جندي خمسين قرشاً في الشهر كراتب(2). وفي السنة ١٨٣٥، دفع لأولاد أعيان الدروز الذين كانوا قادوا القوات الدرزية لتنفيذ مهمة في مصر، راتب ضابط ملازم(3).

ويبدو أن إبراهيم باشا كان يهتم كثيراً بجنوده وبعتادهم ومعداتهم ورواتبهم بالرغم من الضائقة الاقتصادية التي كان يقاسي منها آنذاك في بلاد الشام.

٢٢ - الأسلحة:

كان جيش الأمير بشير الثاني مجهزاً بثلاثة أنواع من الأسلحة:

أ - الأسلحة القاطعة:

- السيوف على مختلف أنواعها، والخناجر والسواطير وفؤوس الاقتحام والدبابيس الحديدية والرماح...

ب - الأسلحة النارية:

- البنادق على مختلف أنواعها وأشكالها منها: الفتيلة والصوانة وبندقية الخرطوشة.

---

(1) غيز، هنري، بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن، منشورات دار المكشوف ط٢٠، بيروت ١٩٤٩، ج٢، ص١٦٣-١٦٤.

- سميليا نسكايا- الحركات الفلاحية في لبنان، دار الفارابي بيروت، ودار الجماهير دمشق، ١٩٧٢، ص٧٣.

(2) الشدياق، ج٢، ص٤٤٥.

(3) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص٧٥.

- الغدارات والمسدسات والمسدسات ذات النباض.

- البنادق ذات الاستونين.

- المدافع التي تستعمل النابط أو البارود: منها مدافع الشظايا والهواوين. وكانت قذائفها تخترق عند نقطة الإصابة (القنابل)[1].

ج - المتفجرات:

- الألغام المتنوعة وكانت تصنّع محلياً من قبل اختصاصيين من أهل البلاد.

كان البارود يصنع محلياً في جبل لبنان. وأشهر مصانعه كان في قرية كفرعقاب في المتن، حيث كان يوجد ثلاثة مصانع كل منها مزود بثلاثة أحواض. وقد أشعل النار فيها السنة ١٨٤٢ عمر باشا النمساوي. وأيضاً كانت بلدة بكفيا التي اشتهرت كثيراً في صنع البارود بالرغم من أن الإنتاج كان غير كافٍ وتنقصه النقاوة[2] أثناء ثورة ١٨٤٠، اضطر أهالي جبل لبنان، بسبب نقص البارود، إلى تذويب رصاص دواليب غزل الحرير ليصنعوا منه رصاص البنادق. وعملية التذويب هذه لم تكن جديدة على الأهالي، في هذه الحقبة الزمنية، اشتهر الجبل بمصانع تذويب الحديد، خاصة في دوما والشوير وزحلة حيث كانت تصنع حدوات الحيوانات والمسامير وبعض الأدوات الحديدية.

عند قدوم المصريين إلى بلاد الشام، كانت الأسلحة غزيرة ومتنوّعة في أيدي سكان الجبل. وقد زادت كميتها كثيراً السنة ١٨٣٢ عندما وزع إبراهيم باشا على أنصاره عدداً كبيراً منها وفي السنة ١٨٣٣، أعطى أسلحة كثيرة (٢٤ ألف بندقية) إلى النصارى لاستعمالها في قمع الثورة في حوران والنصيرية ونابلس[3].

إلى جانب إبراهيم باشا، أنزلت البوارج الإنكليزية السنة ١٨٤٠ على الشاطئ

---

(١) الشهابي، الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان، الجامعة اللبنانية ١٩٦٩، ج٣، ص٨٠٢-٨٠٩.

(٢) إسماعيل، المحررات، ج٦، ص٦٩.

(٣) ديب، الكنيسة المارونية، ج٢، ص٢٦١.

اللبناني كمية كبيرة من الأسلحة (٨٠ ألف بندقية في جونية والضبية وطبرجا) والذخيرة المتنوعة لمساعدة الثوار ضد المصريين. وكذلك فعلت المراكب اليونانية، إذ أصبح آنذاك، الشاطئ اللبناني، مكاناً فسيحاً لتوزيع السلاح. «كانت الأسلحة توزع بسخاء كبير في عشرات من نقاط التوزيع على طول الشاطئ اللبناني... ومن دون إعادة حساب... وكان الأهالي يأتون بالمئات لاستلامها»[1]. حتى أن الكثيرين من الشيعة كانوا يستلمون أسلحة من يد الإنكليز والعثمانيين ثم ينضمون إلى القوات المصرية للقتال إلى جانبهم[2].

ومع حاجة إبراهيم باشا إلى المواد الأولية من خشب وفحم حجري وحديد، وضرورة استخراجها ونقلها، قام نوع جديد من السخرة، فكان على المُسخّرين العمل في مناجم قرنايل السنة ١٨٣٥[3]، بغية استخراج الفحم الحجري منها ومن ثم نقله إلى جونية لتصديره إلى مصر «سداً لحاجات العزيز»[4] وكذلك استخرج الحديد السنة ١٨٣٣ من منطقة السنديان بين مشغرة وكفرحونة، ومن الشوير وبزبدين، فضلاً عن قطع كل أشجار الجميز في بيروت والجوز في أضنا وبيلان لصنع ٢٠ ألف ساق بندقية[5].

وتقول الحوليات في تلك الحقبة إن مظالم حكومة محمد علي شملت «إخراج الناس من بيوتها لأجل إسكان العساكر التي لا تفترّ من الجولان في البلاد وخاصة مدن الساحل... ولا يعفى من ذلك أحد لا كبير ولا صغير إلاّ من كان ذا رتبة معروفة بين خدام الميري».

غذّت إجراءات إبراهيم باشا التعسفية ومظالمه المتعددة، التربة الخصبة لتنامي التيارات الرافضة للحكم المصري... فارتبط

(١) توما، ج١، ص٢٠١.
(٢) توما، ج١، ص٢٠١-٢٠٢.
(٣) لامنس، ص٢٠٨.
(٤) رستم، المحفوظات الملكية، ج١، ص٥٨.
(٥) رستم، المحفوظات الملكية، ج٢، ص١٠١

النظام بجمع السلاح وجمع السلاح بالنظام... فانفجر بركان الأحقاد وثورة كبير متنقلة في بلاد الشام. فكان ما فقده محمد علي من جيشه في محاربة الأهالي بسبب تنفيذ قانون التجنيد أكثر بكثير من عدد الذين تمكن من تجنيدهم... وانتهى الأمر بخروج إبراهيم باشا بجنوده وسائر رجال حكومته من بلاد الشام.

لقد استورد المصريون من أوروبا كافة أنواع الأسلحة. وكانت فرنسا المصدر الأساسي لها. وقد كلف الخواجا «بوغوص» الاتصال بالجنرال ليورون (LIORON) لعقد صفقة شراء خمسة آلاف مسدس ذات اسطونين وخمسة آلاف سيف لتجهيز وحدات من الخيالة أنشئت حديثاً. وقد دفع مئتي ألف فرنك على الحساب[١].

كانت بلاد الشام مليئة بالأسلحة المصرية، منها تلك التي وزعت من قبلهم أو تلك التي استولى عليها الأهالي أثناء حملات التنكيل بهم. وقد حاول المصريون جمع هذه الأسلحة لكنهم لم يفلحوا إلاّ بالتي كانوا هم قد وزعوها أي حوالى ١٦ ألف بندقية[٢] والباقي استعمله الثوار ضدهم السنة ١٨٤٠ إلى جانب استيلائهم على كميات وفيرة من الأسلحة والذخائر أثناء نصب الكمائن للارتال العسكرية المصرية[٣] خاصة في البقاع.

٣ - التدريب والتكتية العسكرية

بما أن جيش الأمير بشير لم يكن جيشاً نظامياً، بل كان أشبه بتجمع من المقاتلين، كل يحمل بندقيته وتغذيته وذخيرته ويذهب بإمرة شيخه أو أميره إلى المعركة. لذلك لا يمكننا القول إن هذا الجيش قد عرف التدريب والتعليم العسكري كما كان يحصل في الجيوش الأوروبية يومذاك، أو على الأقل في الجيش العثماني. فكل قروي

(١) رستم، المحفوظات الملكية، ج١، ص١٠٩-١١٠.
(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج٥، ص٣٣٥.
(٣) رستم، المحفوظات الملكية، ج٤، ص٦١.

في جبل لبنان كان يدرّب نفسه بنفسه. وهذه العادة لا تزال متبعة في قراه وبلداته حتى يومنا هذا وإن اختلفت الأسلحة ونوعيتها. فالقروي كان يتدرب وفق مزاجه على الفروسية والرماية، وضرب الجريد والمبارزة كي يبقى جاهزاً حين استدعائه إلى القتال من قبل أميره أو شيخه. نستنتج من ذلك أن الأمير لم يكن لديه عقيدة قتالية خاصة، وكان جيشه كناية عن تجمع من القرويين المسلحين بأسلحة فردية والقليل منهم من الخيالة، يحمل كل منهم بندقية في كتفه أو في يده. لا تنظيم معين ولا لباس موحد. ليس لديهم أي فكرة عن التشكيلات القتالية. كانوا يبرعون في قتال المراكز الدفاعية والمخافر. كان فن الحرب محصوراً لديهم بتسلق الصخور والتمركز وراءها أو وراء الأكمات والتلال الصغيرة. برعوا في القتال الليلي وفي نصب الكمائن والإغارة[(١)]. يطيعون رؤساءهم بشكل لا غبار عليه، ويتمتعون بالتعقل والنشاط وقوة احتمال لا تضاهى، مما يسمح لهم بتحمل كل مشقات القتال. وبالرغم من عدم معرفتهم بعلم التحصينات أو المدفعية أو التخييم، كان بمقدورهم، وبكل سهولة، تعلّمها وإتقانها. لقد شكّل جيش الأمير ميليشيا مخيفة يحسب لها ألف حساب[(٢)].

لقد ذاع صيت رجال الأمير في بلاد الشام على أنهم مقاتلون نشيطون يتحملون المشقات في الأحوال الطبيعية الصعبة، وبإمكانهم قضاء أيام وشهور في البراري من دون خيام تقيهم شر القر والحر. وكانوا إلى جانب هذا، رماة تقنين. وأكثر ما كان يخيفهم هجوم الخيالة، لأن أسلحتهم وبنادقهم كانت غير مزودة بالحراب التي تساعد رجل المشاة على رد مثل هذه الهجمات.

لقد تطوّر التدريب في جيش الأمير أثناء وجود الجيش المصري في بلاد الشام، إذ كان إبراهيم باشا يهتمّ في شكل خاص بالتدريب العسكري في هذه البلاد. ففي صيف ١٨٣٢ أرسل إلى المدرسة الحربية في مصر ستين شاباً من بلاد الشام لمتابعة الدروس العسكرية، وفي صيف ١٨٣٣ أرسل بعثة

(١) فولناي، ص٢٤٠.

(٢) فولناي، ص٢٤٠-٢٤١.

ثانية إلى مصر (بعض أولاد العرب من الإيالات الجديدة، يعرفون الكتابة والقراءة والحساب والرسم، ليتعلموا فن حصار القلاع). وفي العام ١٨٣٤ أنشأ في دمشق مدرسة حربية أطلق عليه اسم «المدرسة الجهادية» وعيّن علي آغا قائداً لها[١].

في بداية العام ١٨٣٥، أرسل إبراهيم باشا، الأمير خليل ابن الأمير بشير إلى المدرسة الحربية في إنطاكية لتعلّم فن الحرب[٢].

وفي الخريف من السنة عينها اقترح إبراهيم باشا إنشاء مدارس حربية للضباط أبناء بلاد الشام في حلب وكلس وعنتاب. كما أنه أنشأ مدرسة للمدفعية في حلب[٣]. وقد اشتمل برنامج العلوم العسكرية في هذه المدارس على المواد التالية:

المبادىء الأساسية للتحصينات - استعمال الأسلحة - نظام الخدمة الداخلية - الطوبوغرافيا - التكتية - مناورات المشاة - نظام خدمة الموقع - خدمة السرايا والكتائب - علم المقاتل الفردي - علم المقاتل ضمن السرية والكتيبة والفوج[٤]. «ومهما يكن من أمر برامجها فالواقع الذي لا مفرّ منه هو أنها كانت محاولة جديدة في بابها لم يسبق للشوام أن رأوا مثلها من قبل، وإن من رعاها بعنايته كان واعياً يودّ اللحاق بالغرب في مضمار التعليم العسكري وإتحاف شعبه بأفضل ما توصّل إليه العِلم الحديث».[٤]

إلى جانب العلوم العسكرية وإنشاء المدارس الحربية، اهتمّ إبراهيم باشا بمحاربة الأمية وبتعميم القراءة والكتابة بين أفراد جيشه وبتعميم العلوم العسكرية العليا على ضباطه وخاصة الضباط العرب (بما يعرف اليوم بعلوم الأركان) فقد تلقنوا علم الهندسة والطوبوغرافيا وعلوماً أخرى ضرورية لضباط المدفعية[٥] ووضع إبراهيم

(١) رستم، المحفوظات الملكية، ج٢، ص٤٨٨ وج٣، ص٦٢.

(٢) إسماعيل، المحررات، ج٥، ص٣٢٢.

(٣) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص٥٣-٨٧.

(٤) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص ٢٣٠.

(٥) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص٧٢-٧٣.

باشا قانوناً يقضي بعدم ترقية «ضباط الصف من رتبة عريف إلى رتبة رقيب إلاّ بعد أن يتعلموا القراءة والكتابة». وقد اقترح أن يعين لكل ذكر من أولاد العساكر في بر الشام نصف الراتب الذي يتقاضاه والده شرط أن يتعلم الكتابة والقراءة... وقد اكتفى بتعليم عدد معين من أبناء هؤلاء، كما أشار عليه والده ولفت نظره[1].

وفي السنة ١٨٣٦، وافق العزيز على ترقية البارزين من أولاد العرب في بلاد الشام الذين أتقنوا القراءة والكتابة، إلى رتبة رقيب، كما أنه حدّد سياسة ترقية الضباط في الجيش[2].

ومما لا شك فيه إن سياسة إبراهيم باشا في التعليم العسكري أثّرت تأثيراً كبيراً في تطوّر الفكر العسكري للإمير بشير الثاني ولقادة جيشه، وذلك بالقيام بمناورات عسكرية مشتركة بين عساكر الأمير وقوات إبراهيم باشا، في منطقة بعلبك، وخاصة الخيالة منهم.

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ص٢٣١.

(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج٣، ص٩٧.

٤ – تأليف الأسلحة

كانت قوات الأمير بشير الثاني تتألف من تشكيلين كبيرين: المشاة والخيالة.

٤١ – المشاة:

شكّلت أكثرية جيش الأمير، وكان رجال المشاة من الفلاحين القرويين الذين كانوا يشتغلون في الأرض في أيام السلم ويحملون السلاح للقتال في أيام الحرب. وكما قلنا سابقاً، كان سلاحهم، البنادق - والخناجر والغدارات. أثناء المعركة يأتمرون بأوامر مشايخهم أو أمرائهم أو أولادهم وأحفادهم. ولا يطيعون غيرهم. حتى إن الولاة في بلاد الشام ينقلون إلى الأهالي ما يريدون أن ينفذونه بواسطة رؤسائهم المباشرين، المقاطعجية والمشايخ والأمراء. فالاتصال بالأهالي مباشرة ليس مستحباً ولا مستثاغاً.

٤٢ - الخيّالة:

اشتهرت خيّالة الأمير بشير الثاني بلباسها المزركش وبمطياتها الناعمة وبسيوفها المرصعة بالأحجار الكريمة.

كانت خيالة الأمير أشجع خيالة بلاد الشام وأتقنهم رماةً وأفضلهم في ضرب السيوف. وكما قلنا سابقاً كانت أسلحتهم النارية متعددة الأصناف والأنواع، من المسدس أو الغدارة اللذين تعلقان على جنب الخيّال، إلى البندقية العادية أو المزدوجة الأستون التي تعلّق في الكتف، إلى السيف والرمح المحمول باليد. وكانت بزّة الفارس أنيقة ومزركشة(١). ويجب التفريق ما بين خيالة القتال وخيالة حرس الأمير بشير التي كانت أكثر أناقة وزركشة، حتى بسلاحها ومطياتها. لكن خيالة القتال كانت أكثر جرأة وشجاعة ومعرفة في فن القتال. وهناك نوع ثالث من الخيالة كان يسمى «خيالة الميرِ» وكانت مهمتهم جمع الميري والضرائب من الأهالي في الإمارة. فيذهبون إلى القرى والدساكر فيحتلونها أياماً إلى أن يدفع أهلها المتوجبات الضريبية.

كانت خيالة الأمير أقلية بالنسبة إلى مشاته، فاقتناء الخيول انحصر تقريباً بالأمراء والمشايخ وأولادهم وأحفادهم، وبالأثرياء من أعيان البلاد. والقتال من على ظهور الخيل صعب، يجب إتقانه بدقة والتمرّن عليه بصورة متواصلة. أما أسلحة الخيالة فقد تكلّمنا عليها سابقاً ولا لزوم لإعادة الحديث عنها، وننقل فقط ما كتبه أحد الرحالة لاورتي - هاجي (Laorty-Hadji) الذي زار لبنان في نهاية حكم الأمير بشير الثاني: «كان فرسان الأمير يحملون رمحاً شبيهاً بالقصبة الطويلة. وعندما تسير كوكبة الخيّالة، يمسكون الرمح باليد عمودياً رأسه إلى الأعلى فيخال الناظر إليها كأنها كوكبة من فرسان صلاح الدين الأيوبي عندما كانت تجوب سهول عسقلان»(٢).

---

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٣.

(٢) سويد، ج٢، ص٦٤٣.

الفصل الثالث

الحملات العسكرية للأمير بشير الثاني الكبير (١٧٩٠ - ١٨٠٤)

١ – مبادئ الفن العسكري وقواعده[١]

١١ – الفن العسكري:

الحرب هي تطاحن «إرادات» يدخل فيها دور القائد، قيمته، شجاعته، رباطة جأشه، عمله، مخيلته الخلاقة وروح المبادرة. ولكي نكشف المستقبل علينا، أن ندقق النظر في الماضي بغية درس الأساليب التي كانت خاطئة وإيجاد الحلول الملائمة لها واعتماد الأساليب والأسلحة ذات المفعول الحازم والحاسم في المستقبل.

١٢ – المبادئ والقواعد:

للمبدأ معانٍ مختلفة تشرحه: فهو رأي يعتبره العقل البشري لا مراء فيه وعليه ترتكز أحكامنا. وقال بعضهم، إنه قاعدة عمل ممثلة بوضوح وينبغي علينا تطبيقها. وإذا أردنا التوسع بالشرح نقول: إنه قانون أساسي للسلوك وللتطبيق الدائم والإلزامي.

أما القاعدة فهي قانون من شأنه توجيه سلوكنا والسماح بتطبيق المبادئ، كما أنها تساهم في تحقيق هذه الأخيرة.

(١) محاضرات في التاريخ العسكري – المدرسة الحربية – الجيش اللبناني (ترجمة وتحضير النقيب طلال مهتار ١٩٦١).

١٣ – ماهيّة المبادئ والقواعد

المبادئ	القواعد
١ – نسبية الأهداف والغايات والوسائل	– التمتع بحس المقياس. – ضرورة الاستعلام.
٢ – حرية العمل	– جمع القوى. – حرمة خطوط المواصلات. – الحيطة. – إخفاء النوايا عن العدو.
٣ – الحصيل الأقصى للوسائل (Le Redement Maximum) ويدعى أحياناً: مبدأ الاقتصاد في القوى	– جمع الوسائل إلى أقصى حد بما فيه الاحتياط. – الحدة القصوى (Le Maximum D'Intensité). – التعاون. – اختيار الزمان والمكان. – السرعة. – الإستدامة والإستمرار.

إنّ تعداد هذه المبادئ يحمل على الإقتناع بأنها مستقاة من التجارب، وإن العقل الراجح وحسّ المقياس (Sens de la mesure) هما اللذان أوجدا صيغتها.

وما دامت الوسائل معطاة وليس بالإمكان زيادتها، فعلى القائد أن يحدّد أهدافه بالنسبة إلى هذه الوسائل، أو في حال تحديده هدفاً، عليه إذا لزم الأمر، أن يزيد في وسائله (المبدأ الأول). وإذا حقق حرية العمل (المبدأ الثاني) عليه أن يبذل ما في وسعه للحصول على الحصيل الأقصى في وسائله (المبدأ الثالث).

أما المبادئ والقواعد فتتسم بالديمومة، فالأساليب المقابلة لدرجة تطور السلاح،

تتغير لوحدها، وتتطور مع الوسائل التي يضعها العلم والتقنية في تصرف الجيوش. (فللكتيبة اليونانية رماحها الطويلة - وللفرقة الرومانية رماحها وحرابها الخاصة، يراوح طول الرمح ما بين ١,٣٥م ومترين - ولغستاف أدولف بندقية (Le Mousquet) التي كانت تطلق بفتيلة ملتهبة - ولفريدريك الثاني بندقية ذات مرزبة حديدية (Baguette de fer) كما كان لنابليون مدفعية كريبوفال، ولمولتكه السكك الحديدة والبندقية المواترة والاستون المثلم - وللمريشالين الفرنسي فوش والألماني ليدوندورف الرشاش والدبابة والمدفعية. ولهتلر تناسق الدبابة مع الطائرة والاتصال اللاسلكي. وللأميركيين الجنرالين أيزنهاور وماك آرثر الطيران الستراتيجي وحاملة الطائرات والقنبلة الذرية.

لقد أعلن الأميرال الأميركي شترنيمتز عقب انتصاراته على اليابان في المحيط الهادئ، في الحرب العالمية الثانية ما يلي:

«ما تعلّمت شيئاً سوى أنني وضعت أحدث الوسائل والمعدات في خدمة أقدم المبادئ».

١٤ - الارتكاز على المبادئ والقواعد:

أ - نسبية الأهداف والوسائل:

يعني هذا المبدأ في ما يخص الدولة، أن يكون عندها حسّ المقياس وأن تقيس أهدافها إلى وسائلها. وعلى القائد العسكري أن يقابل، قبل تعيين أهدافه، ما بين قواته وقوات عدوه (الحيطة بالاستعلام التكتي والستراتيجي) وعليه أن يأخذ في الاعتبار العوامل الآتية:

- قيمة القيادة.
- الرتباء والجنود.
- نوع وكمية العديد والعتاد.
- المنافع الطبيعية والاصطناعية الناجمة عن الأرض والتحصينات.
- طاقة الشعب الإقتصادية والإسراع في استخدام الطاقة المعنوية للشعب كافة.

فالقوّة إذاً هي مجموع القيم المعنوية والمادية والعقلية للشعب والجيش.

ب - حرية العمل:

- يقوم هذا المبدأ على عدد من التعاريف نذكر منها:

- تثبيت العدو وإجباره على قبول القتال ومنعه عن الانفكاك.
- عدم تعريض الجنب للعدو للعمل بحرية تامة.
- تجنب الاعورار في أية نقطة من الجهاز وعقد العزم على ما يلائمنا وليس على ما يلائم الخصم.
- عدم خوض القتال إلاّ بملء الرضى، لذلك وجب علينا تطبيق القواعد التالية:

تجميع القوى - حرمة خطوط المواصلات - الحيطة - إخفاء نوايانا عن العدو.

ج - *الحصيل الأقصى للوسائل أو الاقتصاد في القوى:*

ما دامت المهمة معطاة، فيقول هذا المبدأ بدرس الأرض أولاً، ثم بمقارنة وسائلنا مع الأهداف التي تحددها المهمة وتوزيع الأقساط (Dosages) لبلوغ الهدف النهائي المقصود بسرعة وبأقل الخسائر الممكنة. لذلك علينا تطبيق القواعد التالية:

- التجميع الأقصى للوسائل - الحدّة القصوى - التعاون وتوحيد القيادة - اختيار الزمان والمكان - المفاجأة - السرعة لخلق الذعر عند العدو.

٢ - العصيان والتمرّد ضد الأمير بشير (١٧٩٠ - ١٧٩١)

بعد موت الأمير يوسف شهاب اعتقد الأمير بشير الثاني أن الصراع على السلطة قد انتهى، وأن في إمكانه حكم الإمارة بكل هدوء وسكينة. وهكذا زاد الضرائب على الأهالي: أولاً لإرضاء أحمد باشا الجزار وجشعه المستمر، وثانياً لتغطية نفقات الإدارة في إمارته. لم يتقبل الأهالي هذه الزيادات المستمرة، فابتدأوا بالتململ والشكوى ثم راحوا يستعدون للقيام بعصيان ضد الأمير الحاكم. وكان على رأس هذا التمرد، الأميران حيدر ملحم شهاب، شقيق الأمير يوسف، وقعدان محمد شهاب ابن شقيقه، وأنصارهما النكديين واللمعيين وأهالي المتن والغرب والجرد والشحار ودير القمر[1]. أما أنصار الأمير بشير فكانوا أهالي الشوف وأهالي وادي التيم وعسكر الجزار المؤلف من

(١) الشدياق، ج٢، ص٧٩.

المغاربة والأرناؤوط والدلاتية والهوارة. وقد وقعت معارك عدّة مع الثوار أهمها:

٢١ - معركة السعديات (١٧٩٠):

بعدما درس الأمير بشير وضعه العسكري تبيّن له أن أنصاره وقواته لا يمكنهم مواجهة الثوار والانتصار عليهم، فطلب من الجزار أن يرسل له دعماً عسكرياً لسحق الانتفاضة في بلاده. فبعث له ألفاً من الأرناؤوط بقيادة شلق عثمان؛ فعسكروا في حرش بيروت، ثم طلب من متسلمي وحكام مدن الساحل المعينين من قبله مساندة الأمير بشير بكل ما يحتاجه. جهّز والي الشام قوات عسكرية لدعم الأمير، كما أرسل قوة بقيادة الأمير أسعد، حاكم حاصبيا، اتجهت نحو البقاع في انتظار أوامر الأمير بشير الثاني الذي بعث بأخيه حسن كتعزيز لقوة البقاع.[١] كما انضم إلى هذه القوى الآنفة الذكر أنصار الأمير في المقاطعات وثلاثماية من المغاربة[٢].

انتشرت الانتفاضة الشعبية في طول البلاد وعرضها، الأمر الذي أخاف الأمير، فترك عاصمته دير القمر وانتقل إلى صيدا مع قواته، واستدعى إليه قوات الجزار المعسكرة في حرش الصنوبر في بيروت. وأثناء انتقال عسكر الأرناؤوط، وأكثريتهم من المشاة، في اتجاه صيدا، وقعوا في كمين نصبه لهم بيت بو نكد وأنصارهم في السعديات فقتل منهم حوالى المئتين والباقي تمكن من الفرار ملتجئاً إلى صيدا.

٢٢ - معركتا الشويفات والحرش (١٧٩٠):

لم يقبل الجزار على نفسه أن تهاجم قواته في السعديات على هذا الشكل المخزي، فقرر معاقبة هؤلاء المتمردين، فطلب من الأمير بشير الانتقال بعسكره إلى بيروت - الحرش، مستعملاً الطريق الساحلية، ومن هناك التحرك نحو المتن للقضاء على الثورة ومعاقبة الثائرين. بعد ذلك تحقيق الاتصال مع الأميرين أسعد وحسن الشهابيين وقوات الجزار الموضوعة بتصرفهما والمتقدمة نحو المتن من جهة الشرق. وهكذا ستقع هذه

(١) الشدياق، ج٢، ص٧٩.
(٢) الشهابي، ج١، ص١٦١.

المنطقة العاصية ضمن فكّي الكماشة من الشرق ومن الغرب، بين الجيشين. كان تعداد قوات الأمير بشير حوالى الألفين من المشاة وخمسماية من الخيالة، والقوات الباقية قدرت بحوالي ألفين فقط[(١)].

قرّر الثائرون التصدي لخطة الجزار، بمهاجمة قواته في البقاع وفي الساحل؛ فكلّفوا أنصارهم في منطقة الشحار والغرب بمهاجمة الأمير بشير، وأنصارهم في المتن بإرسال مسلحين منهم إلى قرية العبادية لكي يقاتلوا قوات الخصم المتمركزة في البقاع[(٢)].

في سياق المعركة

ترك الأمير بشير صيدا مع قوات الأرناؤوط والهوارة ومئتي خيال من الدالاتي. ولدى وصوله إلى الشويفات هاجمه أهالي الشحار والغرب، وأسفرت المعركة عن انتصار الأمير ومقتل عشرين من الثوار. تابع بشير تقدمه حتى حرش بيروت، فعسكر فيه وأرسل الأمير حيدر أحمد شهاب مع قوة من الأرناؤوط فأحرقوا الشياح واللويزة ثم عادوا إلى المعسكر[(٣)].

في هذه الأثناء، أعاد أهالي الغرب تنظيم قواتهم، وتلقوا تعزيزات من المتن، ثم هاجموا معسكر الأمير بشير. في بداية المعركة انهزم الدالاتيون، لكنهم سرعان ما أعادوا جمع قواتهم وقاموا بهجوم معاكس ضد الثوار انتهى بهزيمة هؤلاء ومقتل حوالى الثلاثين منهم. هرب قسم منهم إلى الشويفات والباقي هرب إلى بعبدا حيث التجأوا إلى دار الأمير حيدر ملحم شهاب[(٤)].

٢٣ - معركة بعبدا:

في ١٣ آب، وبعد معركة حرش بيروت، نقل بشير قواته باتجاه منطقة رأس بيروت. وفي هذه الأثناء استدعى بعض الأعيان، الشيخ قاسم جنبلاط إلى الشويفات للمفاوضة،

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٨٠.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٨٠.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٨١.
(٤) الشدياق، ج٢، ص٨٠-٨١.

فاستأذن الأمير وسار إلى هناك وتحادث معهم، فطلبوا الصلح على أن يدفعوا للأمير خمسمائة ألف غرش بشرط أن يصرف جنود الجزار ويرجع إلى البلاد والياً «كما كان». لم يرض بشير بهذا العرض بل قرّر في ١٥ آب مهاجمة بعبدا حيث التجأ الثوار.

قسّم الأمير قواته إلى مجموعتين:

- الأولى: عديدها حوالى الألف ومئتي جندي أرناؤوطي، مهمتها «الإحداق ببلدة بعبدا وتصفية المتمردين.
- الثانية: مهمتها منع كل تعزيز يأتي من الشويفات باتجاه بعبدا.

وقد أرسل الأمير عدداً من الفرسان إلى الشويفات «يصدون النجدة عنها».

سياق المعركة

وصلت المجموعة الأولى إلى مذخل بعبدا قبل الفجر وطوّقت دارة الأمير حيدر، حيث كان يوجد فيها حوالى الستين من الثوار. ودارت بعض المناوشات وقد حاول المتمردون إلهاء الأرناؤوط بإطلاق النار بغزارة في انتظار وصول النجدات والتعزيزات.

وعندما حلّ الفجر، تقدمت تعزيزات المتمردين نحو بعبدا على ثلاثة محاور:[1]

- محور المتن - وادي اليرزة - بعبدا
- محور الغرب الأعلى - بعبدا، في الشرق.
- محور الشويفات - بعبدا، في الجنوب والغرب.

تمكّنت المجموعة الأولى من عرقلة تقدم الثوار على المحورين، الأول والثاني (المتن والغرب الأعلى) واستطاعت مسالح المجموعة الثانية، من رد الخيالة المتقدمة على المحور الثالث بقيادة الأمير قعدان شهاب، الذي عاد وقام بهجوم معاكس في الوروار قضى فيه على هذه المسالح مخترقاً من الجنوب خط الدفاع المتقدم لقوات الأرناؤوط. عند ذلك دبّ فيهم الرعب والخوف من التطويق والإبادة، ففروا هاربين من أرض المعركة باتجاه بيروت عن طريق الحدث، فخرج الثوار المحاصرون في أثر هؤلاء حتى بلدة الشياح، فقتلوا منهم ذبحاً العدد

(١) الشدياق، ج٢، ص٨١.

الكبير (حوالى الأربعماية). وكانت النساء «تدخل بين القوم حاملة الماء للرجال وترمي الأرناؤوط بالحجارة»[1].

قُتل من الثوار اثنان فقط[2] كما يقول الشدياق... والله أعلم!

اقترب موعد الحج إلى مكة المكرمة، وكان الجزار يرغب بالمسير إليها، فأمر باستدعاء قواته الموضوعة بتصرف الأميرين أسعد وحسن شهاب في البقاع. عاد الأمير حسن مع عسكره إلى صيدا، وكذلك الأمير أسعد إلى حاصبيا وعساكر الجزار إلى عكا. خاف الأمير بشير من أن يقطع الثوار عليه طريق الساحل عند الدامور، فعاد مع قواته بحراً من بيروت إلى صيدا، ومكث هناك بأمر من الجزار إلى حين رجوعه من الحج ومعه كل من الأمراء: حسن وأسعد يونس وحيدر أحمد ومراد اللمعي والشيخين قاسم وخطار جنبلاط. لم يطل الوقت حتى قدم الجنبلاطيون إلى جون واستدعوا الشيخ قاسم فحضر فعادوا به إلى الشوف. «أما الأميران حيدر وقعدان فتوجها إلى دير القمر واستدعيا المناصب والأعيان واتفقوا على مقاومة الجزار وعدم القبول بالأمير والياً عليهم».

٢٤ - معركة حاصبيا (تشرين الثاني ١٧٩٠):

بلغ الأمير بشير موعد رجوع الجزار من الحج، فتوجه للقائه في صحراء المزاريب قرب الرمتا في سوريا، ومعه الأمير مراد اللمعي والشيخ خطار جنبلاط، ولما التقاه أخبره بما حدث في غيابه، فطيّب له قلبه واصطحبه معه إلى دمشق. ورفض التماس «صفو خاطره» من قبل أعيان البلاد ومناصبها الذين أصرّوا على عدم تولية الأمير بشير نسبةً لمظالمه. وقد أخبروا الجزار بأنهم «لا يؤدون إلاّ المال الأميري القديم ويطلبون منه أن ينعم بخلعة الولاية على الأميرين حيدر وملحم وقعدان ابن أخيه»[3].

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٨١.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٨٢.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٨٣.

أصرّ الجزّار على تولية الأمير بشير، «فأنعم عليه بخلعة الإمارة» وأصحبه بقوة عسكرية من عنده لتثبيت حكمه. غادر الأمير صيدا على رأس هذه القوى في اتجاه حاصبيا، ولدى وصوله استقبله حاكمها الأمير أسعد شهاب والأمير حسن شقيق بشير. ترك بشير الأرناؤوط في حاصبيا بتصرف حاكمها، وعاد مع أخيه حسن وباقي القوة إلى صيدا. ومن صيدا انتقل نحو بلدة علمان، مدخل الشوف من جهة الساحل. فلما بلغ أهل البلاد قدوم الأمير بشير مع عسكر الجزار إلى علمان ووجود الأرناؤوط في حاصبيا، قرروا التصدّي له، فأرسلوا من لدنهم عسكراً من الشوف لطرد الأرناؤوط من حاصبيا. «فلما وصلوا هجموا عليهم فكسروهم فتحصنوا في السرايا»(١). فترك الشوفيون حوالى الخمسماية رجل منهم لمحاصرة الارناؤوط وعاد الباقون إلى الشوف.

أبلغ الأمير بشير بما حصل في حاصبيا، فنهض بكل قواته إلى بلاد بشارة ومنها إلى مرج عيون. في «اليوم الثالث وصل إلى نواحي حاصبيا» فالتقاه رجال الشوف الموجودون هناك ونشبت معركة بينهما اضطر الأمير وقوات الجزار على اثرها إلى الانكفاء نحو خان حاصبيا. فأسكر الشوفيين هذا الانتصار، فتركوا حصار السرايا ولحقوا بالأمير وقواته للقضاء عليهم. عندها استغل الأرناؤوط هذه الهفوة القاتلة، وخرجوا من السرايا ولحقوا بأهل الشوف من الخلف فقاتلوهم. وفي نفس الوقت أطلق الأمير بشير هجوماً معاكساً بالنخبة من قواته. وهكذا وقع الشوفيون بين نارين: الأمير وقواته من الجنوب والأرناؤوط من الشمال، فحدثت مجزرة كبيرة وقتل منهم حوالى المئة والعشرين رجلاً. دخل الأمير بشير حاصبيا، وأمر بحرق منازل أعدائه، ثم عاد إلى الشوف عن طريق صيدا وإقليم الخروب وفي إمرته حوالى ١٢ ألف مقاتل من الدالاتيين والهوارة والأرناؤوط والسكمان والمغاربة(٢). لدى وصول الأمير إلى عانوت توقف هناك، متخذاً منها مقره العام مع قسم من القوات، أما الباقي فتموضع في شحيم وداريا. تجاه هذا الواقع تقدّم

(١) الشدياق، ج٢، ص٨٣.

(٢) الشدياق، ج٢، ص٨٣-٨٤.

الأميران حيدر وقعدان مع قواتهما إلى بعقلين وعنبـال حيث تمركزوا هنـاك دفاعياً في انتظـار المعركـة الحاسمة(١).

٢٥ - المناوشات على محور شحيم - داريا - عنبال (ك١ ١٧٩٠ - آذار ١٧٩١):

استمرت المناوشات بين الأمير بشير شهاب الثاني ومنافسيه حوالى الثلاثة أشهر، وكان الأمير يطمح بالدخول إلى عاصمته دير القمر وتثبيت إمارته، بينما أراد منافسوه التصدي له ومنعه من الولاية، حتى ولو كان الجزار هو الذي أنعم عليه بها.

أ - معركة نهر الحمام (٢٧ تشرين الأول ١٧٩٠):

في هذه السنة، قرر الأمير النهوض بعسكر الجزار وأنصاره قاصداً دير القمر للاستيلاء على حكم الإمارة، فجمع جنوده وبدأ بالتحرك ولما وصل إلى نهر الحمام، وجد في انتظاره الأميرين حيدر وملحم مع أنصارهما. ابتدأت المعركة بين الخصمين ودامت من الفجر حتى المساء ولم يحصل أي منهما على النصر «المبين». فعاد كلّ منهما إلى مراكز الأساسية وقد خسر الأمير بشير ثمانية من رجاله ومن عسكر الأميرين نفراً واحداً.

ب - معركتا غريفة والجاهلية (٥ كانون الأول ١٩٧٢):

حاول الأمير بشير من جديد الدخول إلى دير القمر فتقدم بجيشه حتى بلدة غريفة فاصطدم بقوات الأميرين حيدر وملحم، وأسفرت المعركة عن اندحارهما ودخول المغاربة البلدة. «ثم تجمع اللبنانيون وقاموا بهجوم معاكس(٢)، انتهى بدحر المغاربة وإخراجهم من البلدة، فالتجأوا إلى هضبة مجاورة وتمركزوا فيها». وفي هذه الأثناء قام الأمير بشير بهجوم ردّي بواسطة خيالته.

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٨٤٨٣.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٦٧.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٨٤.

واستمرت المعركة محتدمة طوال النهار وحتى ابتداء الليل، وقد تمكن الأمير من استعادة السيطرة على غريفة ومن دحر أعدائه ومطاردتهم حتى النهر المجاور. قتل من عسكر الأمير خمسين شخصاً وسبعة وعشرين من منافسيه. وعاد الخصمان كل إلى قاعدة انطلاقه الأساسية.

وفي هذا النهار أيضاً وقعت معركة ثانية في بلدة الجاهلية بين النكديين وأرناؤوط الأمير بشير، انتهت بهزيمة مخزية لعسكر الأمير.

وفي ١٦ كانون الثاني ١٧٩١، وقعت معركة أخرى بين الخصمين في نهر الحمام «فانكسر عسكر الأميرين، حيدر وقعدان وقتل منهم سبعة أنفار ورجع كل إلى مكانه»[١].

ج - *معركة غريفة الثانية*
(٧ شباط ١٧٩١):

في صباح هذا اليوم نهض الأمير بشير بقواته إلى بلدة غريفة لاستعادتها، فلقي مقاومة شرسة من الأهالي ومن أنصار الأميرين حيدر وقعدان. ولم تسفر عن أي نتيجة حاسمة لأي منهما. وفي نفس الوقت «سارت فرقة من عسكر الجزار إلى قرية المزرعة وسبوا منها أولاداً ونساءً ثم عادوا إلى عانوت»[٢].

د - *معركة غريفة الثالثة*
(١٠ شباط ١٧٩١):

في هذا اليوم عاد الأمير بشير إلى بلدة غريفة للمرة الثالثة واصطدم بأخصامه طيلة النهار فانتصر عليهم ودخل القرية. وتمكن عسكر الجزار من نهبها وإضرام النيران فيها. ولم يطل الوقت حتى عاد عسكر الاميرين حيدر وقعدان المتمركز في عنبال إلى غريفة فتمكن من دحر الأرناؤوط واستعادتها من جديد بعد معركة قاسية ودموية. بعدها عاد كل إلى قواعده.

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٨٥.

(٢) الشدياق، ج٢، ص٨٥.

- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٦٥-١٦٦.

هـ - معركة شحيم
(٢٥ شباط ١٧٩١):

بعد كل هذه المناوشات المتتالية التي لم تسفر عن أي نتيجة حاسمة لأي من الخصمين، «أجمع رأي المناصب والأعيان في البلاد على الهجوم على عساكر الجزار دفعة واحدة، فاجتمع إليهم جمع غفير ورتبوهم...»[(١)]. وقرر الأميران قعدان وحيدر ملحم مهاجمة معسكر قوات الأمير بشير في شحيم. فاختارا لهذه المهمة خمسماية مقاتل من خيرة الرجال بإمرة حنا بيدر من كرخا في إقليم الخروب للقضاء على الدالاتية والأرناؤوط الذين كانوا بإمرة قرّه محمد، وذلك باستعمال عنصر المفاجأة وقتل أكبر عدد ممكن منهم. وصل المهاجمون ليلاً إلى شحيم وباغتوا الدالاتية أثناء نومهم مطلقين النار عليهم من مختلف الجهات، الأمر الذي أوقع الرعب والذعر في صفوفهم فتركوا القرية «منهزمين» إلى عانوت، فلحق بهم المهاجمون وقتلوا العدد الكبير منهم وغنم حنا حيدر وجماعته مائة فرس وأسلحة وأمتعة عديدة.

و - معركتا عانوت وعنبال
(٩ و١٢ آذار ١٧٩١):

في التاسع من آذار هاجم أنصار الأميرين حيدر وقعدان ليلاً، معسكر الأمير بشير في عانوت، ودام القتال بينهما إلى الصباح وتوقف من دون إحراز نتائج حاسمة وانسحب المهاجمون إلى قاعدتهم بعد أن خسروا ثمانية أنفار. وفي اليوم التالي وصلت النجدات العسكرية من البقاع بقيادة الملاّ إسماعيل وكانت مؤلفة من ألف وأربعماية فارس. فوضع الملامة على القرّه محمد قائد معسكر شحيم وقواته لأنه تأخر عن دخول عاصمة الإمارة دير القمر، في الوقت الذي كانت تدور معركة شحيم. وقد تمكن من إقناع الأمير بشير إنه بإمكانه احتلال الدير وتثبيت حكم الأمير[(٢)].

(١) الشدياق، ج٢، ص٨٥.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٦٦.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٨٦.

وفي صباح ١٢ آذار تقدمت قوات الأمير بشير بأكملها إلى عنبال، وعلى رأسها الملاّ إسماعيل، فاصطدمت بقوات الأميرين حيدر وقعدان فشتت شملها وطاردتها حتى مرج بعقلين «فوقع حينئذ اختلاف بين القادة وتأخر القرّه محمد عن القتال لأن النصر سيستغله الملاّ إسماعيل».

لم يشارك قرّه محمد في المعركة وترك الملاّ إسماعيل يقوم لوحده بهذه المهمة أمام ثلاثماية من نخبة أنصار الأميرين، بقيادة الشيخ جهجاه العماد الذي فاجأ الملاّ إسماعيل في المرج، فاضطر هذا الأخير للانكفاء إلى عانوت، فلحقت به قوات الأميرين حتى مشارف البلدة وهاجمته ليلاً فانسحب إلى الداخل وقاتل بشراسة فكبّدها خسارة فادحة في الأرواح والعتاد مما اضطرها للانسحاب إلى عنبال[1].

ز - رجوع الأمير بشير الثاني إلى صيدا (٢٣ آذار ١٧٩١):

بعد وقوع كل هذه المناوشات العسكرية، اقتنع الأمير بشير وقادة عسكر الجزار بأنه ليس بهذه السهولة يمكنهم إخضاع هذا العصيان في البلاد والانتصار على الأميرين حيدر وقعدان والدخول إلى دير القمر لتثبيت حكم الأمير بشير. فعرضوا هذا الأمر على الجزار الذي كتب إلى الأمير بشير والسرعسكر الملاّ إسماعيل بالعودة مع قواتهما إلى صيدا ومنها إلى عكا.

عاد الأمير إلى صيدا وسكن في دارته أما شقيقه الأمير حسن فذهب مع عائلته إلى بيروت وسكن فيها. وعيّن الجزار لهما نفقات كافية من أموال الولاية. وأمر بحجز القوت عن البلاد[2]. وعندما تأكد للإميرين قعدان وملحم عودة عساكر الجزار إلى عكا والأمير بشير إلى صيدا، رجعا إلى دير القمر وتسلما حكم الإمارة. وراحا يعملان كحاكمين

(١) الشدياق، ج٢، ص٨٦-٨٧.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٦٦.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٨٧.

شرعيين للبلاد، وتعهدا بأداء الأموال الأميرية وفق العادة المتبعة «أربعة آلاف كيس مقسّمة على ست سنوات».

وتقول الحوليات حينذاك إن الشيخ بشير جنبلاط كان له الفضل عندما تحالف معهما رغم أن والده الشيخ قاسم كان بعكس ولده، حليفاً للأمير بشير الثاني.

إنّ تصرّف الأميرين، وخاصة المالي تجاه الولاية، دفع الجزار إلى أن ينعم عليهما بخلعة الإمارة لأنه وجدهما صادقين بأداء الأموال الأميرية المتوجبة عليهما في أوقاتها المحددة، كما أنهما دفعا له خمسين ألف غرش «نفقة للعساكر». فرفع القوت عن البلاد بعد أن اطمأن إلى أن عجلة الحكم في الإمارة ستسير حسب المطلوب والمرتجى. بعد ذلك سار إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج.

٣ – كفاح الأمير بشير من أجل عودته إلى حكم الإمارة (١٧٩٣)

في غياب الجزار، تمرّد أهل البلاد على الأميرين قعدان وملحم. ولما رجع من الحج أرسل أمراً يتهدّد به أهل الإمارة لتمردهم في غيابه. ولما بلغه دفع الأموال الأميرية إلى نائبه في دمشق، أرسل لهما خلعة الولاية، فالتمسا منه ولاية حاصبيا للأمير قاسم شهاب وولاية راشيا للأمير محمد شهاب[1]، وتعهدا له بالأموال المترتبة عليهما فتم لهما ما أرادا و بقيا على رأس إمارة الشوف حتى بداية السنة ١٧٩٣.

عندما عجزا عن القيام بحكم البلاد وتحصيل الأموال الأميرية، أشار عليهما الشيخان بشير بو نكد وعبد الله القاضي أن يسلما الولاية إلى أولاد الأمير يوسف شهاب (حسن وسعد الدين وسليم) الذين كانوا يحكمون بلاد جبيل. وكان الأميران، قعدان وملحم، يخافان من أن يسلّم الجزار حكم الإمارة إلى غريمهما الأمير بشير. وبفضل الشيخ جرجس باز، مدبّر هؤلاء الأمراء والذي كان على علاقة متينة وممتازة مع والي عكا، منح الجزار خلعة الإمارة إلى أولاد الأمير يوسف في ٢٢ آذار ١٧٩٣ بدلاً من قعدان وملحم، بعدما دفع له الشيخ جرجس مئة ألف غرش بواسطة أخيه الشيخ

(١) الشدياق، ج٢، ص٨٨.

عبد الأحد باز الذي أبقاه الجزار رهينة لديه لحين دفع المطلوب. توجّه هؤلاء الأمراء إلى بلدة الحدث قرب بيروت حيث لاقاهم أعيان البلاد والمناصب وسار الجميع إلى دير القمر[1]. بإنها لمهزلة ابتزاز، دفع اللبنانيون ثمنها غالياً في ذلك الزمن. وصل الأمير حسين إلى الدير ومكث هناك لإدارة دفة الحكم وعاد الأمير سعد الدين إلى جبيل.

في غضون ذلك لم يتمكن الأمراء الجدد من تثبيت حكمهم بقوة، لأن أكثرية الأهالي كانت تناصبهم العداء وتطالب بعودة الأمير بشير الثاني. ولأجل ذلك اجتمع أعيان البلاد وكتبوا إلى الجزار يلتمسون منه منح الولاية إلى الأمير بشير. استجاب الوالي لطلبهم وعين الأمير بشير من جديد حاكماً على البلاد، وكان ذلك في أيلول ١٧٩٣[2].

وضع الجزار بتصرف الأمير، قوة عسكرية قوامها ألف مقاتل بإمرة الملاّ إسماعيل. وسار الجميع بمن فيهم الأمير حسن شهاب والشيخ بشير جنبلاط وعدد كبير من أنصارهم باتجاه الشوف.

ويقال إن عددهم وصل إلى ستة آلاف مقاتل[3]. أما الأميران حسين يوسف وقعدان محمد فجمعا رجال البلاد ونهضا من دير القمر إلى بعقلين، عندما علما بقدوم الأمير بشير إلى الشوف.

نهض الأمير بشير من صيدا نحو الشوف، ولدى وصوله إلى عانوت ركّز معسكره هناك وأرسل أخاه حسن إلى الشيخ بشير جنبلاط والملاّ إسماعيل مع عسكره الألف إلى المختارة مركز قيادة الشيخ بشير جنبلاط والملاّ إسماعيل. والبقاء هناك حتى وصوله إلى العاصمة دير القمر.

٣١ - معركة المختارة
(تشرين الأول ١٧٩٣):

أرسل الأميران قعدان محمد وحسين يوسف والشيخ جرجس باز العمادية

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٨٩.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٧٣.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٧٤.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٩٠-٩١.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٧٥.

والنكدية بألف مقاتل من رجالهم ودهموا، فجأة وليلاً، معسكر المختارة، فدارت معركة طاحنة بين الخصمين دامت حوالى ثلاث ساعات لم يتمكن المهاجمون من الصمود فيها، فولّوا الادبار بعدما دب الهلع والفوضى في صفوفهم أمام قوات الملاّ إسماعيل الذي لاحقهم حتى مرج بعقلين. ويقال إن أسباب هزيمتهم تعود إلى خيانة بيت عماد[1].

٣٢ - معركة خان الكحالة (٥ تشرين الثاني ١٧٩٣):

بعد انتصاره في المختارة نهض الأمير بشير من عانوت إلى السمقانية، ومنها إلى كفرحمل حيث استقبل الأمراء اللمعيين والعماديين وسائر الأعيان والمناصب، ما عدا بيت نكد وعبد الله القاضي والبعض من آل تلحوق. وعندما علم الأميران حسين يوسف وقعدان محمد بهذا الأمر فرا من بعقلين إلى عبيه، ومعهما الشيخ جرجس باز، ومنها إلى جبيل حيث استقروا هناك لحين معرفة ما سيحصل في الأيام الآتية.

عندها توجّه الأمير بشير مع قواته إلى منطقة الغرب، حيث أمضى بعض الوقت في عاليه، ومن هناك انتقل مع قواته إلى حرش بيروت حيث عسكر. وراح يرسل مأموري تحصيل الضرائب إلى الشوف والمتن لجبايتها ومعاقبة الثائرين. خضع الجميع لهذه الإجراءات ما عدا أهالي المتن الذين طردوا المأمورين ورفعوا راية العصيان، وأرسلوا «يطلبون الأمراء أولاد الأمير يوسف إلى المتن»[2]. فنهض الأمير بشير بنفسه وعلى رأس قواته لسحق الثورة، فحاولت عصابة مسلّحة منهم مقاومته في خان الكحالة بإطلاق النار على قواته المتقدّمة، فحمل عليها وفرّقها، ومن ثم دخل بلدة العبادية وكان الثوار قد التجأوا إليها فنهبها وقتل عدداً من سكانها وكان فيها ودائع لتجار بيروت تبلغ ٣ آلاف كيس فغنم العسكر بها[3].

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٧٥.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٩١.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٩١.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٧٤.

بعدها دخل بلدة رأس المتن وأخضع أهاليها، واستقرّ لبعض الوقت هناك، ثم تقدّم منه الأمراء اللمعيون رافعين راية الخضوع والطاعة. كما استقبل أيضاً الأميرين حيدر ملحم وقعدان والنكديين الذين كانوا قد تركوا معسكر أولاد الأمير يوسف وجرجس باز وانحازوا إلى الأمير بشير الثاني. وهكذا توطدت سلطته في شكل متين وخاف الناس من بطشه[١].

٣٣ - عزل الأمير عن الحكم ثم عودته (١٧٩٤ - ١٧٩٥):

لم يدم الود والوفاق بين الأمير بشير والجزار. ففي شباط ١٧٩٤ تلقى الأمير من الجزار أمراً بالعودة مع قواته إلى حرش بيروت والتمركز هناك. وفي الوقت نفسه تلقى الجزار من قادة قواته شكوى مفادها أن الأمير لم يدفع لهم وللعسكر مرتباتهم الشهرية، رغم جبايته لمبالغ كبيرة جداً من الأموال. فأمر الجزار باعتقال الأمير بشير وأخيه حسن والشيخ بشير جنبلاط وفارس ناصيف ونقلهم تحت حراسة مشددة إلى عكا. وأرسل خلعة الإمارة من جديد إلى الأميرين حسين يوسف وأخيه سعد الدين اللذين قبلا بها في آذار ١٧٩٤. أسرع الأمير حسين مع مدبره جرجس باز إلى دير القمر واستقر فيها كحاكم على الجبل، أما شقيقه سعد الدين فقد أقام فرنسيس باز، شقيق جرجس، مدبراً له واستقر في جبيل[٢].

مارس الأمير حسين التعدي والظلم على أنصار الأمير بشير ومحازبيه، ثم اتفق الشيخ حسن جنبلاط والمشايخ العمادية واستدعوا «إليهم الأمير عباس أسعد ونهضوا به وبرجالهم إلى بعقلين، «فجمع الأمير حسين أقاربه وأعيان البلاد إلى دير القمر وكتب إلى الجزار يخبره إن هذه الأمور هي من

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٧٦.

(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٧٧.

- الشدياق، ج٢، ص٩٢.

دسائس الأمير بشير»[1]. فحنق الجزار وأمر بسجن الأميرين بشير وحسن مقيدين، ووضع الشيخين بشير جنبلاط وفارس ناصيف في محرس، وأنفذ الملاّ إسماعيل بمن معه من العسكر إلى البقاع، ومنه إلى الشوف «فأرسل الأمير حسين يقاضي المذنبين وبلص أهل البلاد بمائة ألف غرش». ولما كثر الظلم في الإمارة عزم أهلها على العصيان. أُبلغ الجزار بهذا التململ الخطير فاستدعى إليه الأمير بشير من جديد وأطلق سراحه وسراح رفاقه وأنعم عليه بخلعة الإمارة (حزيران ١٧٩٥) ووضع بتصرفه قوة عسكرية لمؤازرته ووجّهه إلى الشوف لتسلم الحكم بعدما تعهّد له الأمير بشير بدفع ثمانمائة ألف غرش مقسّطة على ست عشرة سنة.

ما أن دخل الأمير وصحبه وعسكر الجزار أرض الشوف، حتى فرَّ الأمير حسين من دير القمر إلى بلاد جبيل، يواكبه أنصاره وحلفاؤه: الأمير قعدان، الأمير سلمان سيد أحمد، الشيخ حسن جنبلاط والمشايخ النكدية وأيضاً مدبره الشيخ جرجس باز. وصل الأمير بشير إلى دير القمر وتسلَّم الأحكام، وراح يعمل بجد لتثبيت سلطته[2].

لكن خصومه الأمراء الشهابيين (أولاد الأمير يوسف) وأنصارهم، أقسموا اليمين على متابعة صراعهم المستميت والمستمر ضد الأمير بشير حتى عزله وطرده من البلاد.

٤ – صراع الأمير بشير لتثبيت سلطته على البلاد (١٧٩٥-١٧٩٦)

٤١ – معركة قب الياس:

لم يرضَ الأمراء اللمعيون، حكّام المتن، عن عودة الأمير بشير إلى الحكم. فعندما دخل إلى دير القمر استدعى هؤلاء الأميرين حسين وسعد الدين لطرده من الإمارة، فلبى الأميران وأنصارهما هذه الدعوة، ونهضوا

(١) الشدياق، ج٢، ص٩٣.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٩٤.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٧٩.

من بلاد جبيل إلى البقاع ونزلوا في بلدة جديتا. تجاه هذا الأمر، انتقل الأمير بشير مع عسكره وأنصاره إلى الباروك، وأرسل الأمير حيدر أحمد مع مئتي رجل إلى قلعة قب الياس، كما أرسله إلى المتن لمقابلة الأمراء اللمعيين وإقناعهم بعدم مساندة أولاد الأمير يوسف وبالاعتراف به كحاكم شرعي على البلاد. وكان الأمير حيدر أحمد على علاقة متينة وممتازة مع اللمعيين فنجح في مهمته هذه وأصبح هؤلاء من أنصار الأمير بشير. فما حصل لم يمنع الأميرين حسين وسعد الدين وحليفهما الأمير قعدان من متابعة الصراع ضد الأمير بشير، فقرروا مهاجمة معسكره في قلعة قب الياس. استطاع أنصار الأمير، بقيادة الأمير حيدر أحمد، الثبات في دفاعهم عن القلعة إلى أن تمكّنوا من الخروج منها فانقضّوا على مهاجميهم فوقعت معركة شرسة لم يستطع الأميران الثبات خلالها. فاضطروا مع قواتهم إلى فك الحصار بعدما تكبّدوا خسائر فادحة في الأرواح، ومن بينهم الشيخ نمر نكد، أحد أبرز أنصارهما. بعدها اضطر الأميران وأنصارهما إلى العودة إلى جديتا[1].

في هذه الأثناء قدم عسكر الجزار إلى نبع الباروك لمساندة الأمير بشير الذي نهض بهم وبأنصاره من هناك إلى أرض المغيثة، ومنها إلى بوارش وكسروان وإهدن وزغرتا، قاصداً مطاردة خصومه الذين فروا من أمامه نحو طرابلس وعكار. لم تتوقف هذه المطاردة إلاّ بطلب من الجزار الذي أمره في ٣٠ تموز بالعودة مع عسكره إلى البلاد وإبقاء الأمير حسن كمتسلم من قبله على بلاد جبيل[2].

فلما بلغ الأميرين ومدبرهما رجوع الأمير بشير إلى البلاد، خرجوا من طرابلس إلى منطقة الزاوية ونزلوا في بلدة رأس كيفا. حينئذ وقع خلاف بين الأميرين قعدان وسلمان سيد

(١) الشدياق، ج٢، ص٩٤.

(٢) الشدياق، ج٢، ص٩٥.

- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٧٩-١٨١.

أحمد والشيخ حسن جنبلاط من جهة وبين المشايخ النكدية من جهة أخرى، انتهى بأن ترك الأميران والشيخ حلفاءهم وتوجّهوا إلى بسكنتا. وعندما بلغ الأمير حسن ذلك «نهض بمن معه إلى البترون فانهزم الأميران حسين وسعد الدين من رأس كيفا إلى عكار، فرجع حسن إلى جبيل».(١)

اغتنم الأمير بشير هذه الفرصة وطلب من الشيخ بشير جنبلاط الاتصال بهؤلاء «الغاضبين» للانضمام إلى معسكره. فقبلوا وعاد الأميران قعدان وسلمان والشيخ حسن جنبلاط إلى الشوف وتقدّموا من أمير البلاد مقسمين أمامه يمين الخضوع والطاعة(١).

٤٢ - معركة عمشيت (كانون الأول/ ١٧٩٥):

لما عاد والي طرابلس خليل باشا العظم من فريضة الحج، وجد الأمير حسن وقد أصبح متسلماً على بلاد جبيل من قبل الجزار، فامتعض من هذا الواقع، وعيّن من قبله الأمير سليم يوسف شهاب متسلماً عليها وأرسل معه قوة عسكرية مؤلفة من: رجال من الضنية بقيادة الشيخ عباس رعد، ومن رجال من عكار بإمرة محمد بك المرعب وقد بلغ عديدها حوالى الستة آلاف مقاتل(٢)، وطلب منه الانطلاق إلى بلاد جبيل لتسلم المتسلمية.

«وعندما بلغ الأمير بشير قدومهم إلى البترون، أرسل إلى أخيه الأمير حسن قوة مؤلفة من الأمير حيدر أحمد والشيخ بشير جنبلاط والمشايخ العمادية ورجالهم.

تقابل الخصمان في عمشيت في ٣٠ ك١ ١٧٩٥: وكان مع الأمير حسن حوالى ألف من خيالة الجزّار ومشاته وألف من أهالي البلاد. نشبت المعركة بين الخصمين وانتهت بهزيمة منكرة للأمير سليم، سببها خيانة وقعت بين صفوف قواته. قتل من جنوده حوالى الستين نفراً وتراجع إلى طرابلس بينما عاد الأمير حسن منتصراً إلى بلاد جبيل.

(١) الشدياق، ج٢، ص٩٥.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٨١.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٩٥.

٤٣ - معركة المندرة قرب قب الياس (كانون الثاني/ ١٧٩٦):

لم يكن بمقدور خليل باشا أن يتحمّل هزيمة متسلمه في بلاد جبيل، خاصة بعدما كتب له الأمير بشير ملتمساً منه ألا يقبل عنده «الأمراء أولاد الأمير يوسف ومدبرهم» لذلك طلب من والده عبد الله باشا، والي دمشق، المساعدة والنجدة للقضاء على الأمير حسن شقيق الأمير بشير الثاني. وكان رأي عبد الله باشا أن قوات دمشق يمكنها مقارعة قوات الأمير بشير والجزّار مجتمعةً في البقاع بينما قوات والي طرابلس تأخذ على عاتقها مقارعة أنصار الأمير حسن في بلاد جبيل.

اتّفق عبد الله باشا وولده خليل على الخطة العسكرية التالية:

- يتقدّم الأمير حسين يوسف شهاب بقواته في اتجاه البقاع، حيث يكون عبد الله باشا قد وضع بتصرفه جيشاً دمشقياً يقوده الملاّ إسماعيل. وستكون مهمة هذا الجيش، مقاومة الأمير بشير وقوات الجزار في البقاع.

- تتقدم مفرزة معزّزة من قوات خليل باشا من طرابلس باتجاه بلاد جبيل - مهمتها طرد الأمير حسن إلى خارج البلاد، وقد وصلت فعلاً إلى أميون وتمركزت فيها.

توجّه الأمير حسين يوسف شهاب مع رجاله إلى البقاع عن طريق منطقة المتين، وقد انضم إليه عدد من أمرائها مع أنصارهم، فوصلوا إلى زحلة حيث أمّنوا الاتصال مع الملاّ إسماعيل وقواته الذين كانوا قد وصلوا من دمشق. بعدها انتقل الجميع معاً إلى المرج حيث عسكروا هناك.

أما الأمير عباس أسعد شهاب والمشايخ النكديون فقد أخذوا أيضاً، طريق المتن، لاستنهاض الأهالي ضد الأمير بشير وحليفه أحمد باشا الجزار[١].

ما إن علم الأمير بشير بحشد هذه القوى في البقاع لمقاتلته، حتى كتب للجزار يخبره بالواقع. فقرر الوالي ما يلي:

- تنقل قوات الجزار الموضوعة بتصرف الأمير حسن في جبيل إلى البقاع، للتصدي للقوات الشامية[٢].

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٩٦.

(٢) الشهابي، ج١، ص١٨٢.

- تلتحق قوات الأمير بشير وأنصاره بجيش الجزار ويشكّلون مقدّمة الرتل في السير نحو العدو.

ترك عسكر الجزار بلاد جبيل إلى صيدا، ومنها إلى عنبال في الشوف، حيث التقوا قوات الأمير بشير بإمرة الأمير حيدر أحمد والشيخ بشير جنبلاط وشكلوا مقدّمة الجيش الزاحف بقيادة الأمير حيدر إلى البقاع. وبالرغم من الثلوج المتراكمة في ضهر البيدر تمكن هذا الجيش من الوصول إلى قب الياس.

ما إن علم الأمير حسين يوسف شهاب بوصول جيش الأمير بشير إلى قب الياس حتى قرّر التقدم صباحاً لمواجهته. وكانت أكثرية قوات الملاّ إسماعيل من الخيالة فوصلت بسرعة كبيرة إلى مكان يدعى «المندرة» بالقرب من البلدة هذه.

عندما أبلغ الأمير حيدر أحمد بوصول جيش الملاّ إسماعيل وقوات الأمير حسين إلى المندرة قرّر الانطلاق لمواجهتهم بأقصى السرعة.

اشتعلت بين الفريقين نيران الحرب فانهزم العسكر الدمشقي وأسفرت المعركة عن خسارة الملاّ إسماعيل «وقتل من عسكره خلق كثير»(١) وتراجع مع قواته عن أرض المعركة فلحق به الأمير حيدر مع عسكره إلى وادي المجدل وغنموا معدات وأسلحة كثيرة، ثم تمركزوا في المجدل وحمانا.

وعندما بلغ الأمير حسين وأمراء المتن ما حصل بقوات دمشق من خسارة وهزيمة منكرة، فرّوا من زحلة إلى بعلبك ومنها إلى دمشق.

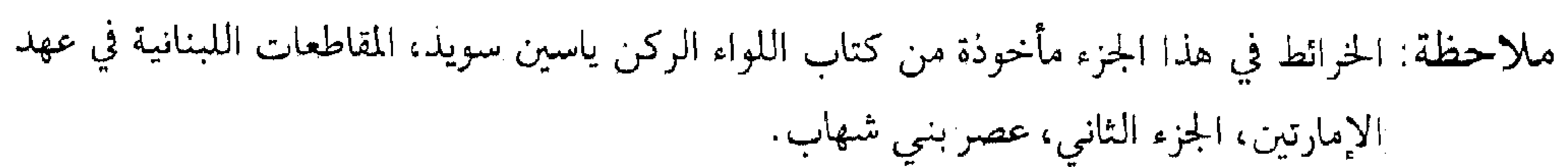
تابع الأمير حيدر مطاردته للقوات المنهزمة حتى سهل الجديدة، فأحرق قرية البترونة قرب الزبداني ثم عاد مع قواته إلى قب الياس. وفي صباح الغد غادرها عائداً إلى دير القمر.

في هذه الأثناء علم والي طرابلس بما حصل في البقاع فعاد بعسكره من أميون إلى

(١) الشدياق، ج٢، ص٩٦.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٨٣.

الخريطة رقم ١

معارك الأمير بشير الثاني ضد الأميرين حيدر وقعدان وغيرهم بين (١٧٩٠ - ١٧٩٦)



ملاحظة: الخرائط في هذا الجزء مأخوذة من كتاب اللواء الركن ياسين سويد، المقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، الجزء الثاني، عصر بني شهاب.

طرابلس خوفاً من أن يلقى المصير نفسه الذي لقيه والي دمشق(١).

٥ - صراع الأمير من أجل المحافظة على الحكم - عزله (١٧٩٩)

٥١ - توطئة:

غضب أحمد باشا الجزار على الأمير بشير لموقفه الغامض والمتمرد أثناء الغزوة الفرنسية لبلاد الشام ومحاصرة عكا (آذار ١٧٩٩)، ولرفضه الإجابة على طلب الجزار بمساعدته ومساندته ضد الغزاة الفرنسيين، فقرر معاقبته بإعلان الحرب عليه وطرده من حكم إمارة الجبل. وقد زاد الطين بلة أن الأمير قاسم شهاب حاكم حاصبيا طرد أخاه عثمان وأولاد عمه، فحضروا إلى دير القمر يستغيثون بالأمير بشير فأجابهم وجهّز جيشاً لمساعدتهم، وبلغ الجزار ذلك فكتب إلى الأمير يثنيه عن ذلك(٢).

إن اعتذار الأمير عن مساعدة الجزار «بالعسكر» مرده إلى عدم «طاعة أهل البلاد له، إذ بلغهم تولية الأمراء أولاد الأمير يوسف»، الأمر الذي أغضب الوالي وترك في قلبه حقداً كبيراً على الأمير الشهابي، لأن الجزار كان يعتبر أن واجب الأمير، كتابع له، الإسراع لنجدته في حربه الحيوية ضد الفرنسيين. وكان يعتبر أيضاً أن موقف الأمير الحيادي بين الوالي والقائد الفرنسي كان خيانة له وللدولة العلية. لذلك فضّل في قرارة نفسه، تصفية حساباته مع الأمير فور الانتهاء من الأعمال الحربية بينه وبين الفرنسيين.

في أثناء ذلك قدمت قوات عثمانية من دمشق إلى عكا لمساعدة الجزار، فقدّم لهم الأمير العلائف اللازمة لحيواناتهم. واعتذر ثانية من الجزار عن عدم مساعدته عسكرياً نظراً لوضعه الهش والمترجرج في إمارته بسبب مماحكة أولاد الأمير يوسف.

(١) الشدياق، ج٢، ص٩٧.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٨١-١٨٢.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٩٨.

لم يخفَ على الأمير بشير موقف الجزار المعادي له، فتوسّل إلى الباب العالي وإلى قائد الأسطول الإنكليزي سير سدني سميث إصلاح البين وإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي. وقد اغتنم فرصة حضور الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا إلى حماه، فأرسل له كل حاجاته من الذخيرة المقدّر ثمنها بحوالي مئة ألف غرش. سُرَّ الصدر الأعظم من هذه المبادرة القيّمة فأرسل له بعض الهدايا وأنعم عليه بخلعة الحكم على جبل الدروز ووادي التيم وبعلبك وبلاد بشارة والبقاع وبلاد جبيل، وربطه مباشرة بالصدارة العظمى في إسطنبول، ولم يعد لولاة بلاد الشام أي سلطة عليه، الأمر الذي مكّن الأمير من إرسال الأموال الأميرية مباشرة إلى الخزانة السلطانية كما على أيام الإمارة المعنية[1]. تجاه هذا الواقع، زاد حقد الجزار على الأمير بشير وقرّر التخلص منه بالرغم من شفاعة الأميرال الإنكليزي سميث الذي اغتاظ من الجزار لسلبيته من الأمير اللبناني. فكتب إلى الصدر الأعظم يخبره بما حدث معه، ملتمساً منه إبقاء الأمير بشير والياً كما كان وردع الجزار عن أذاه[2].

في هذه الأثناء، استغل أعداء الأمير بشير غضب الجزار ورغبته بالثأر منه فنظّموا صفوفهم واستعدّوا للدخول في صراع مميت ضده وضد أنصاره، وقد كان اليزبكيون على رأس لائحة أعدائه.

٥٢ - معركة الخريزات (تشرين الأول ١٧٩٩):

ما ان رفع الفرنسيون الحصار عن مدينة عكا، حتى عاد الجزار إلى عاداته السيئة وإلى فكره وقلبه المزوجين بالحقد والكراهية وراح يعمل بجد للتخلص من أعدائه المحليين وعلى رأسهم الأمير بشير نفسه.

وبعدما أنعم الصدر الأعظم على الأمير بشير بخلعة الحكم على كافة المقاطعات الآنفة الذكر، أرسل إليه «المهردار» مصحوباً بالهدايا مأموراً أن يستورد الأموال الأميرية المترتّبة على هذه المقاطعات. وحين وصل

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٩٥.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٩٩.

«المهردار» إلى دير القمر «تلقاه الأمير بالأنس والحبور فألبسه المهردار الخلعة المذكورة. فوزّع الأمير الأموال الأميرية وقام من الدير إلى المقاطعات فجمعها كما كانت العادة المألوفة[١]. ولما أراد التنفيذ في مقاطعة العرقوب، عارضه العماديون، وكانوا من أنصار أولاد الأمير يوسف، وانحاز إليهم اليزبكية واستدعوا إليهم الأمير سلمان العلي الشهابي ليولّوه مكانه. ثم اتحدت اليزبكية مع الأمير قاسم حاكم حاصبيا والعماديين، واتصلوا بوالي عكا يلتمسون منه التعزيزات العسكرية لمقاومة الأمير بشير وطرده من البلاد. فوجّه لهم قوة عسكرية وصلت إلى خان حاصبيا حيث كانوا مجتمعين.

انطلق الجميع نحو البقاع لمقاتلة الأمير الذي كتب إلى عبد الله باشا والي دمشق يلتمس منه المساعدة العسكرية، فأرسل له مائتي فارس.[٢] وكتب الأمير إلى أخيه الأمير حسن للحضور إليه برجال كسروان وبلاد جبيل بأسرع ما يمكن. وصل الأمير حسن مع عدد كبير من الأنصار. جمع الأمير بشير رجاله جميعاً ونهض بهم إلى الباروك نقطة التجمع المحدّدة من قبله. وفي الباروك عيّن الأمير الشيخ حسن جنبلاط على رأس قوة عسكرية وطلب منه التوجّه بها إلى البقاع لملاقاة أعدائه هناك ومقاتلتهم. انتقل الشيخ حسن فوراً إلى البقاع فوصل إلى صغبين وبودّه أن يبدأ معركته ضد اليزبكيين وأنصارهم في صباح الغد.

وما أن بلغ آذان اليزبكيين وأنصارهم بأن قوات الأمير أصبحت في صغبين، حتى تقدّموا لملاقاتهم. تقدّم الشيخ حسن جنبلاط وقواته باتجاه أعدائه فالتقاهم في أرض الخريزات فاشتعلت المعركة بين الخصمين من الصباح إلى المساء، فقتل من الفريقين عدد كبير[٣]. في المساء عاد كل منهما إلى قاعدة انطلاقه بغية جمع قواته من جديد وتنظيم صفوفه للانطلاق ثانية نحو المعركة والقتال.

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٠٠.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٠١.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٠١.

في هذه الأثناء طلب الأمير من عبد الله باشا نجدة عسكرية سريعة، فأجابه ووجّه أمراً إلى الملاّ إسماعيل بأن ينهض لمساعدته، معتبراً أن الأمير بشير كان قد ساعد بقوة الدولة العلية وأصبح معدوداً من رجالها الميامين[1]. نهض الملاّ حالاً بألف فارس إلى البقاع. وعند وصوله إلى قب الياس بعث إلى قادة عسكر الجزار يأمرهم بالرجوع عن مقاومة الأمير بشير، فامتثلوا لأمره ورجعوا إلى حاصبيا[2]. بعدها نهض الملاّ إسماعيل مع قواته وعاد إلى الخريزات حيث قدّم إليه الشيخ بشير جنبلاط العلائف. ومن هناك سار الجميع إلى حاصبيا، فهرب حاكمها الأمير قاسم والعمادية إلى مرجعيون ثم إلى عكا. فعاد الملاّ إسماعيل مع جيشه إلى البقاع وبقي الشيخ بشير في حاصبيا.

٥٣ - عزل الأمير بشير عن الحكم (١٧٩٩):

بلغ الجزار ما حل بقواته في حاصبيا والخريزات فاشتد غضبه وحقده على الأمير بشير ولم «يلتفت إلى أوامر الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا»[3] فخلع على الأمير حسين يوسف شهاب وعلى أخيه الأمير سعد الدين خلعة الإمارة وأبقى أخاهما الأمير سليم عنده رهينة وأصحبهما «بستت آلاف فارس وأربعة آلاف راجل»، فسار الأمير حسين بالفرسان إلى البقاع ومعه مدبره الشيخ جرجس باز وسار الأمير سعد الدين بالمشاة إلى الشوف ومعه مدبّره الشيخ عبد الأحد باز والعمادية والنكدية وعسكرَ في عانوت في إقليم الخروب.

وما أن علم الأمير ذلك، حتى حاول تعبئة الناس في البلاد، فأرسل الأمير حيدر أحمد إلى غريفة ومعه الشيخ حسن جنبلاط ورجاله، ثم أرسل أحد أخصائه إلى والي دمشق مصحوباً بكتاب يخبره بما حصل ويطلب نجدة عسكرية. ثم طلب من الملاّ إسماعيل بترك البقاع والتوجه إلى الشوف. وكم كانت خيبة أمله كبيرة عندما طلب

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٠١.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص١٩٦.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٠١.

رجال البلاد فلم يحضر منهم أحد[1]. أما الملاّ إسماعيل فقد رفض الامتثال لأوامر بشير وترك البقاع إلى الزبداني.

أمام هذا الواقع المرير وقدوم النكدية إلى دير القمر، نهض الأمير من عنبال إلى المختارة وأرسل عياله إلى المتن وانفضّ عنه الأمراء اللمعيون خوفاً من ردّة فعل الجزار. حينئذٍ قرّر ترك البلاد واللجوء إلى صديقه الأميرال سميث الذي استقبله بكل ودّ ومحبّة ووضع بتصرّفه مركباً نقله من طرابلس إلى غزّة لمقابلة الصدر الأعظم.

في هذه الأثناء، استقرّ الأمير حسين يوسف شهاب في دير القمر وأخوه الأمير سعد الدين في جبيل، ليبدأ من جديد حكمهما لهذه البلاد.

٦ – صراع الأمير لاسترجاع الإمارة

٦١ – توطئة:

لما بلغ الصدر الأعظم قدوم الأمير بشير لمقابلته، أرسل له ثلاثين جواداً «لركوبه وركوب الأميرال سميث ومن معهما. وفي اليوم الثالث خرج الأميرال والأمير بشير بجماعتهما إلى البر وركبوا تلك الخيول إلى معسكر الصدر الأعظم..»[2] وأثناء المقابلة طلب الأمير حمايته ومساعدته لاسترجاع حكم الإمارة، فوعده الصدر الأعظم بمساعدته فور انتهاء حربه ضد الفرنسيين.

في غياب الأمير وتركه البلاد إلى العريش، وجد أخوه الأمير حسن وأنصاره ملجأً عند أحد حلفائه في عكار - علي بك الأسعد الذي منحه حمايته ومضافته.

في نهاية شهر كانون الثاني ١٨٠٠، ترك الأمير بشير العريش إلى الإسكندرية في مصر، بواسطة مركب كان الأميرال سميث قد وضعه بتصرفه. وفي أوائل شهر آذار وأثناء إبحاره، علم الأمير بهزيمة الصدر الأعظم أمام الفرنسيين في الإسكندرية. وكان الأمير وصحبه قد تكبّدوا الأخطار والأهوال في البحر، عندما طالت مدة

(١) الشدياق، ج٢، ص١٠٢.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٠٤.

إبحارهم حوالى الشهر كي يصلوا إلى شواطئ الإسكندرية.

لذلك، أصاب الأمير حزن عميق فقرّر العودة، مهما كلف الأمر إلى طرابلس في لبنان، وعند وصوله كان في استقباله بربر آغا ومتسلم المدينة اللذان طلبا منه أن يسير معهما إلى المدينة، فأبى ونزل عند نهر البارد. فقدم إليه أخوه الأمير حسن والشيخ بشير جنبلاط بالخيل ومن الغد نهض معهما إلى وادي روايد وأقاموا في الحصن عند علي بك الأسعد. بعدها ابتدأ أعيان البلاد يراسلونه سرّاً. وفي هذا الوقت وردت معلومات إلى الأمير تفيد أن أهالي المتن والشوف في حال غليان، وأن العصيان على الأبواب في كل البلاد ضد الأميرين الحاكمين، اللذين ظلما البلاد والعباد بكثرة الضرائب والتشدد المقيت في تحصيلها. هكذا ابتدأ الأعيان والمناصب في الإمارة يتمنّون عودة الأمير بشير إلى الحكم، وقد وصل إلى عكار حوالى الثلاثماية منهم يلتمسون منه العودة إلى الإمارة، فقبل الالتماس. وهكذا بدأ صراعه المستميت من أجل استرجاع حكم الإمارة[1].

٦١ - معركة نهر الحمام (بداية أول تشرين الثاني ١٨٠٠):

في الرابع من شهر تشرين الأول ١٨٠٠ نهض الأمير مع الأعيان ومن معه إلى البلاد، فشيّعه علي بك الأسعد وأقاربه قرب طرابلس، وقدم له جواداً أصيلاً وبعض الهدايا التي تليق به، ثمّ سار إلى أرض إمارته. ولما وصل إلى كسروان في اليوم التالي أرسل حالاً «إعلاماً إلى أعيان البلاد بقدومه». فابتدأ أنصاره بالتجمع حوله، وعم نبأ رجوعه بسرعة في الشوف والمتن وجبل لبنان فهلّل الأهالي وفرحوا واستعدّوا معنوياً ومادياً لمنحه مساندتهم. اضطرب الأميران الحاكمان «وانتقل مدبرهما الشيخ جرجس باز إلى صيدا وعرض الوضع أمام الجزّار والتمس منه عسكراً» لمقاومة الأمير الذي عاد لاسترجاع حكم الإمارة رغماً عنهم

(١) الشدياق، ج٢، ص١٠٨.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٢٠٦.

وعن الوالي. جهز أحمد باشا الجزّار ألفي مقاتل من الأرناؤوط وأرسلهم لمساعدة الأميرين الحاكمين ووعدهما بإرسال قوة من الفرسان في ما بعد[١].

وصل الأمير بشير إلى حمانا في المتن في نهاية تشرين الأول فوافاه أهاليها وأهالي بقية القرى، وقدم إليه المشايخ النكديون وأكثر الأمراء اللمعيين واتحدوا مع أنصاره وأقسموا يمين الخضوع والإخلاص، وأعلنوا عالياً أنهم جاهزون للقتال إلى جانبه[٢]. ويقول المؤرخ الشهابي إن «المشايخ العمادية» بقوا على ولائهم لأولاد الأمير يوسف، سعد الدين وحسين.

ولم يطل الوقت حتى توسّط أمر المشايخ العمادية، أحد وجوه البلاد، «فارتضوا أخيراً بشروط». ونهض الأمير بأنصاره جميعاً من حمانا إلى نبع الباروك، ثم إلى كفرنبرخ، ومنها إلى بعقلين حيث عسكر فيها.

في هذه الأثناء وصل الشيخ جرجس باز، مدبّر الأمير حسين من صيدا مع الأرناؤوط المرسلين من قبل الجزار. وراح الأمير الحاكم يحصن دير القمر بإنشاء مراكز دفاعية قوية تمنع وتردّ أي اقتحام من قبل قوات الأمير بشير.

في بعقلين، تلقى الشيخ بشير جنبلاط معلومات مفادها أن قوات الجزار الموجودة في البقاع هي في طريقها إلى الشوف لنجدة الأمير حسين، وأن هناك قوات أخرى في صيدا تستعد للتقدم نحو الشوف عن طريق إقليم الخروب. تجاه هذا الواقع أعدّ الأمير بشير قوة من خمسماية مقاتل من نخبة رجاله بإمرة الشيخ بشير جنبلاط، لمصادمتهم وقطع الطريق على تقدمهم. فسار الشيخ بشير مع قوته هذه إلى إقليم الخروب، سيراً حثيثاً، فالتقى عسكر الجزار في «نهر الحمام» فتصادم معهم وانتهت المعركة بهزيمة أفراد جيش الوالي الذين فرّوا إلى مزبود تاركين في أرض المعركة العدد الكبير من القتلى والجرحى، فاستولى الشيخ على بعض الأسلحة والخيول ثم لاحقهم إلى مزبود ففرّوا إلى صيدا فتركهم وعاد بقوته إلى بعقلين[٣].

(١) الشدياق، ج٢، ص١٠٨.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٢٠٧.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٠٩.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٢٠٧-٢٠٨.

٦٣ - معركة الشويفات
(١٦ تشرين الثاني ١٨٠٠):

بعد هزيمة جيش الجزار في نهر الحمام، أصيب الأمير حسين بقنوط كبير وتبين له أن من الصعوبة بمكان مقاومة الأمير بشير الذي استطاع أن يكوكب حوله أكثرية أهل البلاد.

وفي هذه الأثناء تدخّل الأعيان والمناصب لإصـــــلاح ذات الـــــبين بين الأمير بشير والأميرين حسين وسعد الدين وتم الاتفاق الذي رعاه المشايخ العمادية مع جرجس باز أن ينصرف الأرناؤوط من دير القمر وبعدها يتم الصلح بين الأميرين الحاكمين والأمير بشير «على أن يكون الأمير بشير والياً على الـبـلاد (الإمـارة) والأميران عـلـى بـلاد جبيل»[(١)]. وبناءً على هذا الاتفاق غادر دير الـقـمـر، الأميران حسين وسـعـد الـديـن وأنصارهما وعسكر الجزار في اتجاه ساحل بيروت، ودخل الأمير بشير عاصمة إمارته دير القمر مع أنصاره وأعيان البلاد. ثم أرسل أخاه الأمير حسن برجال من منطقة الغرب إلى الشويفات لملاقاة الأمير حسين ومدبره الشيخ جرجس باز الذي لم يكن راضياً عن هذا الإتفاق.

وقبل وصوله إلى الشويفات، عدل الشيخ جرجس خط سيره وظل متابعاً رحلته حتى وصل إلى حرش بيروت فعسكر هناك مع قوات الأمير حسين. ثم اتصل بالجزار طالباً قوات إضافية لمقاتلة الأمير بشير، فأرسل له الـجـزّار ألـفـي خـيـال أرنـاؤوطـي وهـوّارة ودالاتـيـة، وأصـبـح بـتـصـرف الأمير حسين حـوالـى الأربـعـة آلاف مـقـاتـل مـن عـسـكـر الجزار وألفان من أنصاره ومحازبيه[(٢)].

عندما علم الأمير بشير بنكوث الشيخ جرجس بـاز الاتـفـاق، كـلّـف الشـيـخ بشير جنبلاط والمشايخ العـمـادية بالـبـقاء في دير القمر لتأمين الدفاع عنها، ونهض مع أخيه الأمير حسـن وبـالـبـاقين مـن أنصـاره نـحـو مقاطعة الغرب، حيث استطاع تعبئة حوالى الألف مقاتل من الغربين والشحار، وتابع

(١) الشدياق، ج٢، ص١٠٩.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٢٠٨.
- الشدياق، ج٢، ص١٠٩.

سيره بمن معه إلى عاريا على حدود المتن: وهكذا توصل الأمير أن يكون تحت إمرته حوالى الثلاثة آلاف مقاتل من المتن والجرد[1].

ابتدأت المعركة بين الخصمين، عندما زحف عسكر الجزار، بإمرة جرجس باز من حرش بيروت إلى الساحل، فأحرقوا دساكره حتى وصلوا إلى برج البراجنة في ١٤ تشرين الثاني بعدها انتقل جرجس باز إلى الشويفات وحاصر الأرناؤوط حارة العمروسية «وألحّوا عليها وكان عددهم ثلاثة آلاف. وهاجم الهوارة حارة القبة فدخلوها»[2]. فبادر أهالي القرية ورجال الأمير بإمرة الأمير حسن وكانوا حوالى الألف مقاتل، بالقيام بهجوم معاكس فأزاحوا الأعداء عنها وهزموهم وقتلوا قائدهم الآغا. بعد القبة، هاجموا الأرناؤوط «فكسروهم وقتلوا منهم حوالى المئة مقاتل وأجبروهم على الفرار نحو حرش بيروت».

٦٤ - معركة ضهور بعبدا (١٦ تشرين الثاني ١٨٠٠):

بينما كانت معركة الشويفات محتدمة بين الخصمين، سار الأمير بشير بقواته من عاريا في اتجاه الشويفات، وما أن وصل إلى ضهور بعبدا من ناحية وادي شحرور حتى التقى بعسكر الجزار الدالاتية المنسحبين من معركة الشويفات. وكان رجال الأمير منهكين ومضنكين من السير السريع، فلما أبصروا الدالاتية «مقبلين نحوهم» ولّوا الأدبار من دون قتال، فلاحقهم هؤلاء وقتلوا العدد الكبير منهم، ولم يبق مع الأمير بشير في المعركة سوى بعض أنصاره المخلصين من بيت عبد الملك والشيخ جهجاه العماد. قاوم الامير وصحبه بشراسة، لكنهم هزموا أمام الدالاتية بقيادة قره محمد وقتل منهم حوالى عشرين رجلاً، مما اضطرهم إلى الانسحاب من ساحة المعركة إلى وادي شحرور، ومن هناك إلى عاريا. أما قره محمد فعاد مع خيالته إلى حرش بيروت. وأثناء

(١) الشدياق، ج٢، ص١٠٨-١٠٩.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٢٠٨.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١١٠.

عودته أحرق في طريقه بعض المساكن في بعبدا والحدث وسبى نساءً وأولاداً وقتل كل من صادفه «وجمع أربعين رأساً بشرياً وأرسلها إلى الجزار في عكا»[1].

٦٥ - معركة بعبدا الكحالة (١٨ تشرين الثاني ١٨٠٠):

في اليوم الثالث تقدّمت قوات الجزار إلى أرض السكة أو القفل فوق بعبدا، حيث كان الأمير بشير قد استقبل على التو حوالى ألف وخمسماية رجل من المتن والجرد. نشبت المعركة بينهما ودارت الدائرة على رجال الأمير ففرّوا إلى وادي شخرور، وقتل منهم أربعة أنفار. بعدها انسحب الأمير إلى عاريا، فلاحقه العسكر إلى هناك وقتل حليفه الشيخ جهجاه العماد وأحرق البلدة، مما اضطر الأمير على مغادرتها[2]. علم الشيخ بشير جنبلاط بهزيمة الأمير بشير فتوجّه إلى أرض المعركة بثلاثماية مقاتل من بيت تلحوق ونكد وفاجأ عسكر الجزار في بلدة الكحالة. دامت المعركة حوالى ساعة من الزمن انتهت بانسحاب قره محمد وقواته إلى أرض السكة في بعبدا، فلاحقهم الشيخ بشير وقتل منهم عشرين رجلاً فتراجعوا إلى حرش الصنوبر في بيروت، وعاد الأمير والشيخ الجنبلاطي إلى العبادية. وانفضّ عسكر الأمير بشير عنه فأرسل بعض أقاربه إلى المتن يحرقون مساكن من «لم يرجع منهم إلى القتال... فلم يحضر أحد».

يئس الشيخ جرجس باز من السيطرة على البلاد، فبعث برسول يعرض على الأمير العودة إلى الاتفاق السابق بين الأمراء الثلاثة (بشير وحسين وسعد الدين). وافق الأمير بشير على هذا العرض واجتمع الثلاثة معاً وتصالحوا من جديد وعادوا

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١١٠.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٢٠٨-٢٠٩.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١١٠.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٢٠٩.

جميعاً إلى دير القمر[1]. بعدها نهض الأمير بشير وسار إلى صليما وسكنها، والشيخ جرجس إلى جبيل، وبقي الأمير حسن في دير القمر[2].

ولما تحقق للجزار أن الصلح تمّ بين الأمراء الثلاثة، غضب كثيراً فاستدعى قواته من صيدا ووزعها على الحصون في ولايته بانتظار استعمالها عندما تسنح الفرصة المؤاتية.

٦٦ - معركة خان مراد (١٨٠١):

السنة ١٨٠١، طمع الأمير عباس أسعد شهاب بحكم الإمارة، فتحالف مع الحزب اليزبكي الذي كان على رأسه الشيخ فارس العماد وأقاربه. واتفق الجميع على توليته حكم البلاد، فكتبوا إلى الجزار يلتمسون له الولاية فوافقهم على ذلك وأرسل خلعة الإمارة إلى الأمير عباس أسعد مصحوبة بقوة عسكرية وبرسالة إلى سليمان باشا والي صيدا طالباً منه قيادة هذه القوة ووضعها بتصرف الأمير الجديد.

علم الأمير بشير بما حصل، فجمع حوله أقاربه وحلفاءه، منهم الأميران سليمان سعيد أحمد وقعدان محمد الشهابيين والشيخ بشير جنبلاط والمشايخ النكديون والشيخ جرجس باز ورجالهم. وقرر مقاتلة الأمير عباس أحمد ومنعه من استلام حكم الإمارة.

ذهب الأمير عباس أحمد بعسكر الجزار من صيدا إلى عانوت، ومن هناك انتقل بهم إلى دير القمر حيث انضم إليه الشيخ فارس العماد الذي أتى برجاله من البقاع إلى دير القمر عن طريق الباروك.

وعندما علم أنصار الأمير بشير وحلفاؤه بدخول الأمير عباس إلى دير القمر تصاحبه قوة من عسكر الجزار، هربوا من المنطقة والتجأ الأميران سلمان وقعدان إلى عبيه. بعدها هرب سلمان وعدد من الجنبلاطيين والنكديين إلى جبيل، وكان قد سبقهم إليها الأميران حسين وسعد الدين. أما الأمير قعدان والشيخ بشير فأخذا طريق المتن بينما الأمير بشير ترك صليما إلى جبيل[1].

---

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ج١، ص٢١١.

(٢) الشدياق، ج٢، ص١١١.

قرّر الأمير عباس ملاحقة الأمراء الهاربين وطردهم، فنهض بعسكره إلى ساحل بيروت ومنه إلى جبيل. تجاه ذلك طلب الأمير بشير من الأمير قعدان والشيخ بشير جنبلاط مراقبة الأمير عباس والانتظار في جرد المتن. وما أن يترك الأمير دير القمر باتجاه جبيل، يسرعان مع رجالهما إلى احتلال الدير والتمركز فيه. وفي الوقت نفسه يجب أن يرسلا قوات إلى جسر نهر الكلب لقطع طريق العودة على عسكر الجزار.

ما أن ترك الأمير عباس دير القمر حتى استولى عليها الأمير قعدان والشيخ بشير ورجالهما، ثم تبعهم الأمير بشير إلى هناك.

ندم الأمير عباس ندماً مراً لتركه عاصمة الإمارة، وحاول من دون جدوى الدخول إليها. فذهب إلى الباروك ومن هناك إلى البقاع، حيث راسل أخاه الأمير حسن طالباً منه موافاته مع أنصارهما.

انتقل الأمير عباس بقواته من البقاع إلى المتن، وفي الوقت نفسه، نهض الأمير بشير والشيخ بشير وجرجس باز وأنصارهم إلى حمانا ومنها إلى البقاع بهدف مجابهة الأمير عباس. التقت قوات الخصمين في خان مراد القريب من المغيته ودارت معركة طاحنة بينهم دامت ساعتين ونصف الساعة، وقد تمكّنت خلالها خيالة الأمير بشير من مهاجمة عسكر الجزار فهزمتهم ولاحقتهم أثناء فرارهم حتى بلدتي مكسي والمرج في البقاع بعدما تركوا في أرض المعركة حوالى الثلاثين قتيلاً. وعاد الأمير بشير إلى حمانا منتصراً(٢).

أخبر الأمير عباس الجزّار بما حدث، شاكياً بعض قواد عسكره بأنهم قد «قبلوا رشوة من الأمير بشير وتقاعثوا عن الحرب وكتب سليمان باشا وقواد العسكر يشكون من الأمير عباس بأنه لم يؤد لهم العلائف»(٣). طلب الجزار من سليمان باشا

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١١٢.

(٢) الشدياق، ج٢، ص١١٣-١١٤.

- شبكي، تاريخ لبنان، ص٢١٨.

(٣) الشدياق، ج٢، ص١١٤.

طرد قره محمد من الخدمة وأن يعود إلى عكا مع عسكره، وكتب إلى الأمير عباس أن يذهب إلى حاصبيا ويقيم هناك بمن معه. بعدها سار الأمير بشير من السمقانية إلى دير القمر ومعه جرجس باز.

السنة ١٨٠٣، وافق الجزار على عودة الأمير إلى حكم الإمارة بعد تدخلات كثيرة معه والتماسات من سليمان باشا. فأرسل الأمير إلى عكا كاتبه يوسف الدحداح فتلقاه الجزار بالقبول «وجعل يذكر له ذنوب الأمير قائلاً: أين الفرنساوية وأين القبطان سميث وأين الصدر الأعظم ضيا باشا، فقد بدّدهم سعد الجزار وخابت مساعي مولاك الأمير بشير.. فالمرجع هنا عندي.. »[١]. بعد ذلك أرسل الأمير إلى الجزار «ستة جياد أصيلة بالعدّة الفضية وخمسين ألف غرش فدية» وهي الأهم. وتعهّد الأمير بدفع مئة ألف غرش في مدة أربعة أشهر، وخمسة وعشرين ألف غرش في كل شهر «يمر بعدها» وعشرة آلاف غرش عن بلاد جبيل في كل شهر». لقاء كل ذلك بعث الجزار بخلعة الإمارة إلى الأمير بشير، مستثنياً إقليمي جزين وبرجا. وهكذا تمكّن الأمير بشير من أن يسترجع حكم الإمارة بعدما جار الدهر عليه وتقلّب الزمن بوجهه.

في السنة ١٨٠٤ توفي الجزار وتحرر الأمير من نير ثقيل كان يثقل كاهله، وقد تحمّله طيلة مدة ولاية أحمد باشا الجزار في عكا. وبعث برسالة تهنئة إلى الوالي الجديد، سليمان باشا، الذي ثبّته على رأس إمارة الشوف. مع العلم أن «والي حلب قد بعث بكتاب إلى الأمير بشير الثاني مضمونه أن الدولة «العلية» العثمانية أنعمت عليه من مضي «نصف سنة، بمنصب صيدا ودمشق وطرابلس عوض الجزار لأنه بلغها أنه قد اعتراه داء عضـــــال مميت.. »[٢]. والله أعلم.؟؟

(١) الشدياق، ج٢، ص١١٦.

(٢) الشدياق، ج٢، ص١١٧-١١٨.

الفصل الرابع
الحملات العسكرية للأمير بشير الثاني الكبير داخل الإمارة وخارجها
(١٨٠٤ - ١٨٣١)

١ - الأمير بشير يذهب لقتال الوهابيين في الديار الشامية (تموز ١٨١٠)

١١ - الوهّابيون:

في حوالى العام ١٧٤٠، ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في منطقة نجد في الجزيرة العربية، يدعو للإصلاح الديني والعودة إلى تعاليم الإسلام الأساسية، حتى إنه حرّم زيارة الأولياء للتشفّع ومنها صاحب الرسالة (ﷺ). ومن هنا نشأ الخلاف بينه وبين أهل السنّة الذين يرون في صاحب الرسالة (ﷺ) الشفيع الأكبر. بايع محمداً هذا ابن سعود أمير الدرعية على أن يكون إماماً يتبعه المسلمون. وتعاهد الاثنان على كلمة التوحيد ونشرها بين العرب «فحارب العلماء بالعلم والجهلة بالسيف».

انتشرت هذه الدعوة بسرعة، فشن السعوديون السنة ١٧٩٩ غزواتهم الأولى على العراق. وبعد عامين استولوا على كربلاء ونهبوها. وفي السنة ١٨٠٣ استولوا على مكة المكرمة، وعلى المدينة السنة ١٨٠٥، وقاموا بغزوات على العراق والشام، وامتد توسعهم حتى أصبحت الجزيرة العربية كلها في أيديهم.

والجدير ذكره أن سعود بن عبد العزيز عندما دخل كربلاء هدم القبة فوق قبر الحسين ونهب البلد، وعندما دخل مكة المكرمة ظافراً، شرع في هدم القباب فوق قبورها. ومن المدينة وجه كتاباً إلى السلطان العثماني يقول له فيه ما معناه: «أما

بعد فقد دخلت مكة وأمّنت أهلها وهدمت ما هنالك من أشباه الوثنية وألغيت الضرائب، إلاّ ما كان منها محقاً، وثبّت القاضي الذي ولّيته أنت، فعليك أن تمنع والي الشام ووالي مصر من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هذا البلد المقدس، فإن ذلك ليس من الدين... ».

شعر السلطان العثماني بالخطر المحدق به بعدما سقطت الإماكن المقدسة في الحجاز تحت حكم سلطة مستقلة لا تعترف بسيادته الزمنية أو الدينية، وبات يخشى توغل السعوديين في بلاد الشام والعراق. لذلك طلب إلى واليي بغداد والبصرة أن يجردا حملة على هؤلاء «الموحّدين»، ففعلا، ولكنهما لم يوفّقا.

في السنة ١٨٠٥ أرسل السلطان العثماني إلى الشام، بعدما درس الوضع في نجد والحجاز وبلاد الشام، خمسة وزراء لتنظيم الفرق العسكرية ومواكبة الحجاج وحمايتهم. وكيف لهم أن يغفلوا ذلك وبينهم واحد قد أدمن تعاطي الخمرة، حتى كان يتعتعه السكر. فإذا غضب على امرئ، قتله بيده؟ فأطلق أهل الشام عليه لقب «سكران باشا». وسار الحجاج وسار الوزراء معهم حتى وصلوا إلى قرب المدينة، لكنهم عادوا من حيث أتوا بعد أن مات منهم عدد كبير ومن بينهم «سكران باشا» المذكور.

في السنة ١٨٠٦ بلغت غزوات الوهابيين الجوف والبتراء، ومنها إلى الكرك وحوران، فتصدّى لهم أحد قادة الخيالة غير النظاميين - الدالي باشي، المدعو الكنج يوسف، على رأس قوة عسكرية من دمشق، وحاصرهم في قرية من قرى منطقة حوران. ولما فرغت ذخيرتهم استسلموا لكنج، فذبح منهم العدد الكبير وعاد إلى الشام بخمسين هجاناً منهم، فعرضوا في الشوارع وهم مصفدين بالأغلال. فانتقم الناس منهم ولو بالنظر.

ابتهج الباب العالي لهذه النتيجة وأغدق الثناء على الكنج «ووضعت العين عليه لإعطائه مركزاً مرموقاً يليق به، وبما فعله خدمة للدولة العلية صانها ربّ البرية.. »

١٢ - الكنج يوسف والياً على الشام (١٨٠٧):

في العام ١٨٠٧ نظّم والي دمشق عبد الله باشا العظم رحلة الحج وانطلق على رأس الحجيج باتجاه مكة المكرمة، لكنه عاد والحجاج معه من دون أن يتمكن من أداء الفريضة بسبب تأزم الوضع الأمني على طول الطريق، الأمر الذي لم يحصل سابقاً في تاريخ الحجيج، أي أن يرجع من دون الوصول إلى مكة وأداء الفريضة.

وصل الخبر إلى الباب العالي فاغتاظ جداً من هذا الموقف المخزي، فعزل عبد الله باشا وعيّن مكانه على رأس إيالة دمشق المدعو الكنج يوسف، بعدما أفهمه أن «أقدس واجباته، تأمين الحج وكبح جماح الوهابيين».

كان الكنج يوسف شامي الأصل، نشأ في حماه وترعرع فيها، ودخل في خدمة الملاّ إسماعيل كبير الدالاتية في المدينة. وترقى حتى أصبح «دالي باشي» أي قائد الفرسان غير النظاميين، ثم خدم عبد الله باشا العظم وبعده أحمد باشا الجزار. ثم عاد إلى خدمة عبد الله باشا عندما أصبح والياً على دمشق، وقد عيّنه متسلماً على المدينة عندما ذهب في رحلته المشهورة إلى مكة على رأس الحجيج.

لدى تسلم الكنج يوسف تقاليد الأيالة «ابتدأ بتطبيق الشرع، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ومنع السكر وأغلق الملاهي وحرّم الموسيقى وعمّم على الناس بعدم الشتيمة. ثم منع التدخين خارج المنازل وحرّم أكل الحلويات وأكره الشباب والشيوخ على الالتحاء، وأوصى أهل الذمة بوجوب النهوض للمسلمين إذا مرّوا بقربهم أو دخلوا عليهم، وخصّهم بالألوان الأسود والأزرق والأحمر لملابسهم، وحرّم عليهم حمل السلاح. كما نهى عن قرع الأجراس ورفع الأصوات في الصلاة والجنازة، ثم أكره بعضهم على اعتناق الدين الإسلامي، مما أجبر الناس على الهروب إلى خارج سوريا.

١٣ - الإستنجاد بالأمير بشير ضد الوهابيين:

في السنة ١٨١٠ ظهرت طلائع الوهابيين في منطقة حوران في بلاد الشام، وعلى رأسهم الأمير عبد الله بن سعود أمير الحجاز، فنهض والي دمشق الكنج يوسف أو

يوسف باشا، بعسكره إلى سهل المزاريب ليصدّهم عن الديار الشامية، فطلب نجدة من حليفه والي عكا، سليمان باشا، الذي بدوره، كلّف الأمير بشير بتجهيز جيش ومساندة والي دمشق.

نهض سليمان باشا بعسكره من عكا إلى طبريا، أما الأمير بشير فجمع قوة عسكرية قُدّرت آنذاك بحوالي خمسة عشر ألف مقاتل من أهل البلاد[1].

وقام من دير القمر إلى جزين، ثم إلى مرجعيون «ولاقته عساكر سليمان باشا إلى خان المتن ضاربين قدّامه بالطبول والزمور مطلقين البارود، حتى وصل إلى طبريا. فتقدّم من والي عكا الذي كان قد سبقه إلى هناك، فكلّفه هذا وفوّض إليه أمر تلك المهمة». وبعد ٣ أيام ورد خبرٌ برجوع الوهابيين عن بلاد الشام.

هذا العمل كان نوعاً من الاختبار لقوة الأمير بشير وللسرعة التي بها استطاع تعبئة رجاله وحشدهم خارج حدود الإمارة.

ويقول المؤرخ الفرنسي، جاك نانته، في كتابه «تاريخ لبنان» إن الأمير بشير، عند وصوله إلى طبريا السنة ١٨٠٧، قاد معركة دموية ضدّ الوهابيين وانتصر عليهم. وهو الوحيد الذي ذكر هذا الشيء. والله أعلم![2].

٢ – معركة دمشق ضد الكنج يوسف (الأول من آب ١٨١٠)

يبدو أن والي عكا سليمان باشا تسلم فرماناً من السلطان يعيّنه بموجبه والياً على دمشق بعد إقالة الكنج يوسف. وقد استحضر إليه الأمير بشير سراً في طبريا وأعلمه بالفرمان المذكور، وطلب مشورته لأنه كان يخاف من يوسف باشا ألا يسلّمه طوعاً الولاية «وهو لا يقدر على اغتصابها منه لأنه

(١) الشدياق، ج٢، ص١٢٩.
– الشهابي، الغرر الحسان، ج٣، ص٥٥٧.

(٢) NANTET, Jacques, Histoire du Liban, Paris, Ed. de Minut, 1963, p138.

كان كثير المال والرجال»[1]. وطلب من الأمير المساعدة والمساندة. وافق بشير بعدما استشار أعيان البلاد ومناصبها سراً. وكان الأمير بشير يكنّ البغضاء لهذا الوالي المتعجرف الذي كان يطمع بأرض الإمارة وينال من حلفاء الأمير وأصدقائه.

٢١ - الكنج يوسف يتحدّى اللبنانيين:

وضع الكنج يوسف عينه على سهل البقاع وعلى لبنان كله، وضمر السوء للأمير بشير، فأقال عن حكم بعلبك الأمير جهجاه الحرفوش، صديق الأمير، وعيّن أخاه سلطان مكانه. ثم أمر برفع يد أعيان الدروز عن بعض قرى البقاع، مدعياً حرية التصرف بها، مع العلم أن هذا الوالي كان قد ضيّق على دروز الجبل العالي، قرب حلب، فاستغاثوا بالأمير بشير وبالشيخ بشير جنبلاط صديق الأمير. فتمّ نقلهم إلى لبنان على نفقة البشيريين ووزّعوا على بلدات وقرى الشوف وغيرها من المقاطعات اللبنانية. وقد لُقّب بعضهم بالحلبي. وقد أنشد آنذاك شاعر قصر الأمير بشير قائلاً:

بشيرٌ حوّل الدنياء بشراً
به طاب الورى قلباً وسمعا
من الأعلى ترجّت فيه قومٌ
أراهم حادث الأيام فجعا
فلا الشهباء عادت مرتجانا
ولا الأعلى لنا سكنا ومرعى
وأنزلهم أمير العصر أرضاً
جموع الخايفين لها تسعى

هكذا هو لبنان، كان ولا يزال ملجأ للمضطهدين.

ثم تابع الكنج تحدّيه اللبنانيين، فطلب من علي بك الأسعد، وكيله في طرابلس، أن يجمع من هذه الأيالة ما مقداره سبعة آلاف «غرارة» من الحنطة، وأن يطلب بعضها من الأمير بشير بصفته حاكماً على بلاد جبيل والبترون. لكن الأمير لم يرضَ أن «يجري على لبنان عوايد مستجدة». غضب الكنج يوسف من هذا الجواب وضاق صدر الأمير وراح ينتظر الفرص لضرب خصمه ضربة قاضية لا يقوم به بعدها أي قائم. وقد أتت الفرصة المطلوبة، فكان اتفاق الأمير مع والي

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٣٠.

عكا على قتال الكنج يوسف وإقالته عن إيالة دمشق بالقوة. وابتدأت التحضيرات.

٢٢ - تعبئة القوات:

بعد فرار الوهابيين من حوران، عاد الأمير بشير من طبريا إلى مرجعيون. ومن هناك أرسل مبعوثين من قبله إلى كافة مناطق الإمارة لاستدعاء المتخلّفين عن الالتحاق بجيش الأمير في التعبئة الأولى. ثم كتب إلى أقاربه الأمراء الشهابيين للتوجهّ إلى المقاطعات المختلفة بغية جمع المقاتلين وإعطائهم السلاح والذخيرة استعداداً للمعركة. بعدها استدعى الشيخ بشير جنبلاط ورجاله للمثول أمامه في مرجعيون، ففعل.

في هذه الأثناء كان الكنج يوسف قد وصل بقواته إلى حوران لنجدة شمدين آغا، متسلم اربد وعجلون، الذي كان محاصراً في قلعة المزيريب من قبل الوهابيين. وهناك علم بالفرمان السلطاني الذي يعزله عن ايالة دمشق، فهرول عائداً إلى عاصمته.

قطع سليمان باشا طريق دمشق لمنع وصول الأخبار إلى المدينة وللمحافظة على سرية الانتقالات العسكرية في اتجاهها. ثم أرسل مبعوثين من قبله ليبلغوا أصدقاءه في المقاطعات الشمالية لطرابلس وحماه، لموافاته مع قواتهم. وكتب إلى الملاّ إسماعيل، القائد العام لقوات السلطان في بلاد الشام، طالباً منه أن يعطي أوامره لقائد الجيش الموضوع في تصرف الكنج يوسف، بعدم تنفيذ أوامر الكنج، وفق منطوق الفرمان السلطاني الذي يقيله من الأيالة ويعيّن سليمان باشا مكانه.

٢٣ - الإتجاه نحو القتال:

بعد كل هذه الاستعدادات من جانب والي عكا والأمير بشير تقدم سليمان باشا بقواته من طبريا إلى خان حاصبيا، حيث لاقاه الأمير بشير بجيشه، ومن هناك انطلق الجميع متحدّين نحو نهر الأحمر، من ثم إلى قطنا على بعد بضعة كيلومترات من دمشق[(١)].

وصلت الأخبار إلى آذان الكنج يوسف، عن طريق إعرابي من قبيلة بني صخر، عن

(١) الشدياق، ج٢، ص١٣١.
الشهابي، الغرر الحسان، ج٣، ص٥٥٨.

استعدادات سليمان باشا والأمير بشير العسكرية، لمهاجمة دمشق، فقام من فوره من منطقة المزاريب وعاد بسرعة إلى عاصمة أيالته فدخلها وتحصّن فيها مع رجاله، منتظراً حصاراً طويلاً. ثم كتب إلى الملاّ إسماعيل يدعوه إليه.

٢٤ - الاستعداد للقتال:

قرّر الكنج يوسف الدفاع عن دمشق، فوزّع قواته على الحصون والقلاع وأقام المتاريس والحواجز وحفر الخنادق وأرسل الدوريات على طول خطوط الدفاع في انتظار الهجوم المزمع إطلاقه من قبل خصميه.

أما سليمان باشا فقد أرسل بدوره إلى أعيان المدينة ومناصبها، يعلمهم بالفرمان السلطاني الذي بموجبه أصبح والياً على دمشق، وأن الكنج أصبح عاصياً على الدولة «العلية» صانها ربّ البرية، ويجب عليهم طرده وعدم الخضوع لأوامره. فحضر إليه بعضهم للاطلاع على الفرمان فالبعض صدّقه والبعض الآخر لم يصدق ووقعوا في الحيرة والارتباك، خاصة بعدما رأوا بأم العين توارد مقاتلي لبنان إلى معسكر سليمان باشا، فطلبوا منه ٣ أيام لإقناع يوسف بترك المدينة. ثم عادوا وأخبروا الكنج يوسف بما رأوا. وكان قسم منهم لديه الثقة التامة بقوة يوسف باشا وقدرته والقسم الآخر كان يشك بذلك. وقد أكّد لهم الأمير بشير قبل تركهم المعسكر «إنه سينفّذ أمر الهجوم على دمشق ولو كلف ذلك دمار المدينة على من فيها». حاول الأعيان إقناع الوالي بالتسليم إلى أمر الدولة فأبى، مصراً على المقاومة مهما كانت التكاليف.(١)

بعد انقضاء الأيام الثلاثة من دون ورود أي جواب، قام الأمير بشير مع صديقه سليمان باشا، واتجها بقواتهما نحو دمشق فوصلا إلى الجديدة وداريا على المشارف المباشرة للمدينة.

٢٥ - المعركة:

أرسل الكنج يوسف قوة عسكرية متمرّسة لمجابهة المهاجمين في تلك البقعة، ودارت معركة شرسة بين الخصمين

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٣١.

استغرقت حوالي ثلاث ساعات كاد أن يقضي على هذه القوة، مما اضطر يوسف باشا للخروج بكامل جيشه والقيام بهجوم جبهي ضد التشكيلة العسكرية لسليمان باشا والأمير بشير، اللذين صمدا جيداً ونجحا في القيام بهجوم معاكس، أجبر جيش الكنج على التراجع والفرار إلى داخل دمشق، تاركاً على أرض المعركة العدد الكبير من القتلى والمعدات والعتاد.

حاول الكنج يوسف إعادة تنظيم قواته والهجوم ليلاً على خصميه، وقد أعطى أوامره إلى قادته للاستعداد لذلك. لدى وصول الخبر إلى الحليفين أخذا كل التدابير لاحتواء هذا الهجوم، فقسّم الأمير بشير خيالته إلى ثلاثة أرعل وأعطاهم مهمات للمراقبة واليقظة التامة والترقب طوال الليل[1]، لكن الهجوم لم يحصل ذلك لأن الملاّ إسماعيل أشار إلى يوسف باشا بالتسليم لأوامر الدولة، وكتب إلى قادة العسكر الأكراد، ألا يقاتلوا مع الوالي وأن يخضعوا بدورهم للأوامر نفسها[2].

أمام هذا الواقع جمع الكنج يوسف ماله وأثقاله استعداداً للفرار من المعركة ومن دمشق أيضاً. وعندما علم «عسكره بما عزم عليه سيدهم، قاموا فنهبوا أمواله وأحماله نظراً لمالهم عنده من أموال متأخرة كان عليه أن يدفعها لهم منذ زمن». خاف الباشا من غدر عسكره ففرّ هارباً مع اثني عشر فارساً نحو اللاذقية، فمصر، وهناك أدركه الطاعون فمات السنة ١٨١٤. وفي صباح اليوم التالي دخل الأمير بشير وسليمان باشا إلى دمشق منتصرين وفرضا الأمن والنظام[3]. بعدها فوّض سليمان باشا الأمور والتدابير إلى الأمير بشير، الذي أعاد بربر آغا إلى منصبه في طرابلس من دون قلعتها، والملاّ إسماعيل إلى حماه وحمص وأعاد الأمير جهجاه الحرفوش إلى بعلبك، ونقل حسين آغا، متسلم بيروت إلى اللاذقية، وعيّن علي آغا الخزندار قائمقاماً على عكار،

(١) الشدياق، ج٢، ص١٣٢.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٣٢.
(٣) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، القسم الأول، ص٣٠.

وابنه الأمير قاسم متسلماً لبلاد جبيل، وابنه الأمير خليل حاكماً على البقاع[1].

بعد انتصاره في دمشق أصبح سليمان باشا والياً على ثلاث ولايات: دمشق وطرابلس وعكا والتي سميت منذ ذاك ولاية سوريا.

بعد ذلك استأذن الأمير الوالي في العودة إلى بلاده، فأذن له فرجع إلى داره عزيزاً كريماً.

٣ - إخضاع الثورات داخل الإمارة

٣١ - ثورة المتن وكسروان - عامية أنطلياس (١٨٢٠):

في السنة ١٨١٩ توفي والي سوريا (عكا - دمشق - طرابلس) سليمان باشا، وتولى مكانه عبد الله باشا الخزندار، على عكا وطرابلس ودرويش باشا على دمشق. وكانت الإمارة الشهابية تخضع لوالي عكا الذي كتب إلى الأمير يبشّره بولايته. هنأه الأمير بمركزه الجديد وأرسل له «التقادم المعتادة» فوجه إليه الوالي خلعة الإمارة[2].

وفي السنة ١٨٢٠، كتب عبد الله باشا إلى الأمير طالباً منه، وبإلحاح، ضريبة مضاعفة، على أن تدفع (الضرائب والميري) قبل أوانها. وبعث أحد خواصه لقبضها. اعتذر الأمير عن الدفع «شفقة على رعاياه»[3]، لكنه عاد وقبل بالواقع وتعهد بألفي كيس تدفع في مدة شهرين. اقترض الأمير من التجار مبلغاً، وطلب من «النصارى الأموال الأميرية قبل أوانها فهاجوا»[4] وخاصة أهالي المقاطعتين - المتن وكسروان الذين رفضوا دفع المطلوب قبل أوانه. وتداعى أهالي المتن إلى الاجتماع واستدعوا أهالي كسروان لمؤازرتهم ولتوحيد الكلمة معهم، فلبّوا الطلب. وبعثوا رسائل بهذا الشأن إلى أهالي كافة المقاطعات الخاضعة للإمارة الشهابية

(١) الشدياق، ج٢، ص١٣٢.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج٣، ص٥٥٩-٥٦٠.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٤٠.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٤٢.
(٤) الشدياق، ج٢، ص١٤٤.

الذين أوفدوا مندوبين عنهم باستثناء الشوف.

في آذار ١٩٢١ اجتمع جمٌ غفير من الناس من كل المناطق اللبنانية، دروزاً ونصارى، قُدّر عددهم بحوالي ستة آلاف، في أنطلياس وأقسموا اليمين على مذبح كنيستها (مار الياس) بأن لا يدفعوا إلى الأمير سوى مال واحد وجزية واحدة. وأقاموا لكل قرية من قراهم وكيلاً عنها يمثلها في الاجتماعات. وبعثوا إلى الوالي رسولاً «يخبره أن سبب اجتماعهم ظلم الأمير بشير لهم بطلب المال منهم دون غيرهم»[١]. قبل الوالي طلبهم، لكنه أصرّ على الأمير أن يدفع هو نفسه المبلغ المتوجب. أمام هذا الإصرار واستحالة دفع المطلوب، فضّل الأمير أن يستقيل من حكم الإمارة. فكتب استقالته إلى الوالي الذي قبلها فوراً وعيّن مكانه الأميرين الشهابيين: حسن علي من وادي شحرور وسلمان سيد أحمد من الحدث، وأرسل لهما خلعة الإمارة التي سلمها لهما «السلاح دار وبمعيته قوة من عسكر عكا» على جسر نهر الأولي، قرب صيدا[٢]. في ٢٨ آذار، تسربل الأميران بخلعة الإمارة وعادا إلى عاصمة الامارة لمزاولة سلطتهما على البلاد والعباد.

ترك الأمير بشير البلاد إلى حوران، حيث مكث فيها بعض الوقت، ومن هناك عاد إلى بلاد جبيل ثم إلى جزين. ومن هناك كتب إلى الوالي يستعطف خاطره، طالباً العودة إلى الحكم، فأجابه الوالي «إن خاطري لم ينحرف عنك وإنك لو لم تترك الولاية لما وليت عوضك» الأميرين حسن وسلمان[٣] ووعده خيراً، وطلب منه الحضور إلى عكا. وكان ذلك بعد شهر واحد من استقالته.

في هذه الأثناء، أثقل الأميران الأهالي بالضرائب والجزية، وأرسلا محصّلين يجمعون المال الأميري مضاعفاً، وطلبا قرضاً

(١) الشدياق، ج٢، ص١٤٥.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٤٦.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٤٧-١٤٨.

من التجار. طرد أهالي المتن وكسروان هؤلاء المحصّلين وذهبت أعيان الإمارة، من جديد، إلى جزين لمطالبة الأمير بشير بالعودة إلى الحكم[1].

لاحظ عبد الله باشا عدم قدرة الأميرين على تحصيل الضرائب وجبايتها. ولاحظ في نفس الوقت ازدياد شعبية الأمير بشير، فكتب له معلناً عطفه وقراره بمنحه ولاية الشوف وكسروان وبلاد جبيل بغية تحقيق الذي لم يتمكن الأميران حسن وسلمان من تحقيقه[2]. ولما بلغ ذلك مسامع الأميرين، بعثا برسل «يستعطفان خاطره». فلم يجبهما، فداخلهما الهلع. لأن أعيان البلاد ومناصبها تركوهما واتّحدوا مع الأمير بشير.

لم يطل الوقت حتى اجتمع الأمراء الثلاثة مع أعيان البلاد ومشايخها في اجتماع عام في السمقانية في حزيران ١٨٢١. وهناك تنازل الأميران حسن وسلمان عن حكم الإمارة إلى الأمير بشير بمباركة كل أعيان البلاد. أرسل عبدالله باشا خلعة الولاية مصحوبة بكتاب منه إلى الأمير «مضمونه أنه فوّضه الولاية مدة حياته»[3].

٣٢ - معركتا لحفد وعمشيت (١٨٢١)

- عامية لحفد:

فور عودته إلى الحكم فرض الأمير بشير الضرائب الباهظة على الأهالي، الأمر الذي أثار النفوس ضده. أفاد الأميران حسن وسلمان، المقيمان في جبيل، من هذا التململ الحاصل بين الناس كي يحرضا الأهالي عليه. وقد تمكنا من إثارة الرأي العام ضده في بلاد جبيل والبترون وكسروان حيث طرد الأهالي من تلك البلاد، «حوالية الأمير» وتنادى الناس بأكثريتهم الساحقة إلى الاجتماع في بلدة لحفد وقرروا عدم دفع الميرة ومقاومة الأمير بالسلاح في حال إصراره على جبايتها.

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٥١.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٥٣.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٥٣.
- إسماعيل، المحررات، ج٣، ص١٧٢.

أ - السير نحو القتال:

عندما علم الأمير بهذا العصيان، قرر مجابهته بالقوة. فذهب على رأس كتيبة عسكرية من خمسماية مقاتل: ثلاثماية من المشاة ومئتين من الخيالة(١)، مصطحباً معه ولده الأمير خليل والمشايخ: حسن جنبلاط، أبو سلمى العماد، ناصيف أبو نكد، إبراهيم تلحوق وشبلي عبد الملك، وتمنع التلاحقة ولم يذعنوا لطلب الأمير «قائلين إننا لا ننقاد إلى عامية نصارى تلك البلاد فإنه شين علينا»(٢). كما اصطحب معه أربعة من الأمراء اللمعيين. وكان بنية الأمير إقناع هؤلاء الناس المتمنعين، باللين والمفاوضات لدفع الميري المترتبة عليهم.

تقدّم الأمير بقواته على الطريق الساحلية. فبات في نهر الكلب وعند الصباح تابع مسيرته إلى نهر إبراهيم، وهناك ورده كتاب من ولده قاسم من لحفد أن الأهالي أظهروا العصيان المسلح، وبلغه أيضاً أن أهالي كسروان طردوا المحصلين من بلادهم وكتبوا إلى عامية «بلاد جبيل يشجعونهم وتوجه بعضهم إليهم». تابع الأمير سيره حتى بلدة غرفين، شرقي بلدة عمشيت، فبلغه أن «أهل تلك الأطراف مجتمعون في بلدة شامات يريدون أن يمنعوه عن المرور في الطريق»(٣). فغضب غضباً شديداً وأرسل يتهددهم. وكتب إلى الوالي يخبره بالأمر وإلى الشيخ بشير جنبلاط لملاقاته إلى لحفد مع رجاله. بعدها تابع الأمير تقدمه حتى لحفد فعسكر هناك بالقرب من نبع مياه في جوارها.

ب - المفاوضات:

عندما بلغ الأهالي تقدم الأمير مع قواته نحوهم قرروا مجابهته بالقوة، فاجتمع أهل بلاد جبيل والبترون وبعض الكسروانيين في بلدة حاقل، وأهالي جبة بشري في إهمج وشيعة بلاد جبيل في رام مشمش. الكل

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ج٣، ص٦٨٦.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٥٤.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٥٥.

كان مصمّماً على المقاومة والمجابهة. فحفروا المراكز الدفاعية وسدوا طرق الاقتراب وراحت دوريات من رجالهم تجوب الطرق والأماكن المطلة والثاوية. وفي نفس الوقت أقاموا عنهم وكلاء للتفاوض باسمهم في حال الضرورة. ودارت المراسلات والمفاوضات بين هؤلاء والأمير بشير، لكنها لم تؤد إلى أي نتيجة إيجابية لأن الأهالي قرروا عدم دفع إلاّ ميري واحدة وجزية واحدة، وإن ما دفعوه سابقاً للأميرين يجب أن يحسبها من أصل ما سيدفعونه الآن[1]. رفض الأمير بشير كل هذه الشروط جملة وتفصيلاً، لكنه وعدهم بأنه لن يأخذ منهم ضرائب، إلاّ بقدر ما أخذ من أهالي الشوف والمتن[2]. فرفض الأهالي بدورهم هذا الغرض وزادوا «إنّ الذي سيولّيه عليهم يكون من بلادهم». وفي هذه الأثناء كان الأميران يحرّضان المجتمعين على رفض الإتفاق مع الأمير وعلى متابعة العصيان. وقد توصّل الأهالي إلى قطع طريق الشوف ليمنعوا وصول النجدات والإمدادات الآتية إليه من هناك.

أمام هذا الواقع المستجد قرّر الأمير التساهل معهم، فأوفد رجلين من خواصه إلى إهمج لإبلاغ العصاة إنه ارتضى أن يدفعوا مالاً واحداً وجزية واحدة، وإنه سيعود مع قواته إلى الشوف.

وقبل أن يعود إليه مبعوثوه، فوجئ الأمير بوجود ألفين من المقاتلين الثوار، حضروا من حاقل إلى ميفوق ومعهم جماعة من أهل جبة بشري، وإلى الجنوب شوهدت جماعة من الشيعة مرادها مؤازرتهم. وقد بدأت قوات الأمير تتلقى الطلقات النارية باتجاهها من الجرف الصخري المقابل لها.

ج - *المعركة:*

بعد تلقي الطلقات النارية أصرّ الأمير على عدم الردّ، وتلقّى رجاله أمراً بالإحتماء من نيران العصاة وبعدم فتح النار أو المجابهة في انتظار النجدات الآتية مع الشيخ بشير

(١) الشدياق، ج٢، ص١٥٥.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج٣، ص٦٨٥.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ج٣، ص٦٨٥.

جنبلاط. قرّر الأمير خليل والشيخ ناصيف بو نكد تسلق الجرف الصخري لقتال العصاة، لكن الأمير منعهما عن ذلك، لأن عدد قواته كان قليلاً نسبياً ومسلك التقدم إلى الثوار كان ضيقاً لا يسمح لمقاتلين اثنين بالتقدم عبره معاً، وإنه في انتظار نجدة الشيخين بشير جنبلاط وحمود بو نكد الآتية من الشوف. لذلك كان يدعو إلى التروي والصبر بانتظار ما سيحدث من مستجدات[1].

تابع الثوار إطلاق نيرانهم على معسكر الأمير فأصيبت خيمته وقتل أحد خدمه بينما كان يقدم للأمير ماءً ليروي عطشه، الأمر الذي أفقد الأمير خليل والشيخ ناصيف صبرهما، فاقتحما الجرف الصخري وتسلقاه مع رجالهما، وتبعهما رجال الأمير ورؤساؤهم الأمراء والمشايخ، وكانوا حوالى ٥٠٠ مقاتل[2] من الخيالة والمشاة وأطبقوا على الثوار، ودارت معركة دموية طاحنة بين الخصمين انتهت بهزيمة الأهالي وبفرارهم من أرض المعركة، وقد لاحقهم رجال الأمير حتى مسافة ستة كيلومترات تقريباً. وعند غياب الشمس عاد رجال الأمير منتصرين، بعدما بدّدوا الثوار في الوادي القريب[3].

أكثر من مئة وخمسين من الثوار لاقوا حتفهم، هكذا يقول المؤرخ مشاقة، أما الشدياق فيقول «إن الثوار خسروا ثمانين قتيلاً فقط» ما عدا الجرحى، بينما لم يفقد الأمير من قواته سوى ستة رجال وأربعة خيول وبعض الجرحى[4].

ولما خيّم الليل رجعت قوات الأمير إلى المعسكر ومعهم العدد الكبير من الجرحى والأسرى. فعفا عنهم وأطلقهم.

---

(١) مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، بيروت ١٩٧٥، ص٨٤.

(٢) الشدياق، ج٢، ص١٥٦.

(٣) مشاقة، ص٨٤.

- الشهابي، ج٣، ص٦٨٦.
- الشدياق، ج٢، ص١٥٦.

(٤) الشدياق، يقول ٩ قتلى ومشاقة يقول ١٢ قتيلاً من رجال الشيخ ناصيف. والله اعلم؟؟

- الشهابي، ج٣، ص٦٨٦.

بعد هذه المعركة جمع الأمير قواته وسار نحو إهمج حيث أمضى ليلته فيها. وهناك أدّى الشيعة خضوعهم له. وفي الغد أخذ طريقه إلى عمشيت. اعتقد الثوار أن الأمير خاف منهم فقرّروا ملاحقته. وعندما بلغه ذلك، كلّف رجاله بنزع المتاريس والعوائق التي كانت تحيط بكنيسة البلدة والتي كانت تشرف على الطريق المؤدية إليها. وكلّف أيضاً عشرين من خيالته للاشتباك مع الثوار، ومن ثم التراجع تدريجياً لجذبهم نحو المتاريس وهناك تفتح عليهم النيران دفعة واحدة. لكن مخطط الأمير لم ينجح، فالخيالة نفذوا ما طلب منهم لكن الثوار لم يقعوا في الفخ.

بات الأمير ليلته هناك. وفي اليوم التالي انتقل مع قواته إلى جبيل حيث استقر فيها. وفي هذه الأثناء وصل الشيخ بشير جنبلاط إلى هناك على رأس ألفي مقاتل، بعدما تعرّض لكمين مسلح من أهالي كسروان في نهر الكلب، فقضى على الكمين وأحرق قريتي الذوق وصربا[1]. وبوصول الشيخ الجنبلاطي أصبح مع الأمير حوالى ثلاثة آلاف مقاتل، سار بهم كموكب مسلح من جبيل إلى البترون والكورة وإهدن، وإلى بشري حيث أتى إليه أعيان تلك المناطق يعلنون خضوعهم ويؤدون الطاعة. أما الأميران حسن وسلمان فقد هربا إلى منطقة بعلبك ومنها إلى الزبداني ثم إلى قرية سرغايا[2]. عاد الأمير بشير إلى جبيل حيث ورد كتاب من الوالي مضمونه «إنه لأجل خدمته الصادقة سمح له بإرجاع جبيل إلى ولده. وحضر إلى متسلم جبيل كتاب أن يخرج منها ويسلمها للأمير»[3].

أما الأمير، لما حلّ في بشري، عاقب المذنبين وأمر بجباية الأموال السلطانية من تلك البلاد وغرّم الأهالي بمائتين وخمسين ألف غرش نفقة عسكر، وانتقم من كل من

---

(١) باز، مذكرات، ص١٧.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٦٠.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٥٧.

سعى بتلك الحركة الثورية. ثم أتى إلى جبيل وحصّن القلعة وفق أمر الوالي وأرسل الأموال المتوجبة إلى عكا، وبقي فيها بناء لأمر الوالي، لأجل المحافظة عليها من مراكب «الأروام» وأبقى معه الشيخ بشير جنبلاط، وغرّم أهل كسروان بمائتي ألف غرش وكذلك أهل القاطع. ودفع للشيخ الجنبلاطي الخمسمائة وثمانين ألف غرش التي كان قد اقترضها منه[١].

وفي تلك الأيام نهب والي البقاع حسن ابن العبد، مواشي أهل عميق ومواشي الجبل وقاتل أهلها، وانطلق بالمنهوبات إلى دمشق. فكتب الأمير إلى الوالي يخبره بما حصل، فأمره بأن يرجع من جبيل إلى الشوف ويرسل عسكراً يطرد والي البقاع منها. فرجع الأمير إلى بتدين وأرسل ولده خليل بعسكر إلى البقاع لتنفيذ أمر الطرد.

غير أن الصعوبات اعترضت الأمير بشير في محاولة القضاء على العصيان في لحفد والجوار، ولم تقلل بتاتاً من قيمة الأمير ولا من هيبته وسلطته. ففي كثير من الأحيان كان على وشك السقوط، لكن شجاعة رجاله ونجدات الشيخ بشير جنبلاط وتبصره بالأمور وقوة شخصيته ومهابته وشجاعته وطريقة حث رجاله على القتال[٢]، كانت جميعها سنداً قوياً لارتقائه من جديد والقضاء على أخصامه في الداخل والخارج[٢]. حتى إن لامارتين، الكاتب الفرنسي الكبير الذي زار لبنان في القرن التاسع عشر، استغرب وفوجئ وعدّها بمثابة أعجوبة، كون الأمير بشير استطاع أن يسحق، بواسطة ثلاثة آلاف من رجاله، عصيان ثلاث مقاطعات قوية، هي بلاد جبيل والبترون وكسروان.

(١) الشدياق، ج٢، ص١٦٢.

(٢) يقول الشهابي، إن الأمير كان يعطي ٢٥ غرشاً لكل مقاتل يأتيه برأس ثائر أو أسير. والله أعلم؟؟

٤ - صراع الأمير ضد والي الشام من أجل لبنان (١٨٢١ - ١٨٢٢)

٤١ - أسباب الصراع:

بعدما هرب الكنج يوسف والي الشام السنة ١٨١٠ من أمام الأمير بشير إلى مصر حيث مات فيها مصاباً بالطاعون، ولّى الباب العالي على دمشق عدداً من الولاة. وقد توقّفوا عن المطالبة أو الإثارة لقضية البقاع اللبناني (فالناس في جبل لبنان يملكون عقارات متعددة في هذا البقاع التابع لباشاليك دمشق)[1] خوفاً من ردة فعل أمير الجبل الذي كان يتمتع بهيبة كبيرة وهو لا ينام على ضيم، خاصة وإن قسماً من وطنه أصبح مطمعاً للولاة العثمانيين. فعندما تولّى درويش باشا على دمشق نزعت نفسه الغدارة والمعتادة على الجشع «والبلص»، إلى موارد البقاع الغنية، فعيّن السنة ١٨٢٠ حسن آغا العبد نائباً عنه لهذه البلاد الخيرة.

بعد مدة من الزمن قدم حسن آغا بنفسه إلى بلدة عميق في البقاع الغربي، ليجبي الأموال الأميرية، فقام الأهالي في وجهه وطردوه شر طرد، لكنه ارتد عليهم برجاله وقاتلهم وتمكن من نهب مواشيهم ومواشي الجبل الموجودة عندهم وانطلق بها إلى دمشق «وطرحها على قرى هذه المدينة وأخذ ثمنها أربعمائة وخمس وثلاثين ألف غرش»[2].

ما ان عاد الأمير بشير من إهدن إلى جبيل في تشرين الثاني ١٨٢١، حتى علم بما فعله حسن آغا العبد في عمّيق وبعض القرى البقاعية، وكان أهاليها من أنصار الشيخ بشير جنبلاط. في هذه الأثناء، عاد درويش باشا، والي دمشق من مكة المكرمة وأبلغه العبد بما حدث معه في البقاع، فأمر الوالي بإلقاء القبض على كل الأشخاص اللبنانيين الموجودين يومذاك في دمشق وكانوا ٤٢ شخصاً[3]، ثم عين محمد آغا بوزو متسلماً جديداً على البقاع وزوّده بمائتي فارس، وأمره

(١) إسماعيل، المحررات، ج٣، ص١٨٠-١٨١.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٦٢.
(٣) إسماعيل، المحرّرات، ج٣، ص١٨٠-١٨١.

الالتحاق بمركزه ومتابعة إساءة معاملة اهالي هذه القرى في المنطقة البقاعية في حال التمنع عن دفع الميري.

لما بلغ الأمير بشير ذلك وهو في جبيل، طلب من أهل البقاع أن يرحلوا إلى الجبل وزحلة وعزم على إرسال عسكر إلى البقاع، لكنه آثر التريث قليلاً لعل والي دمشق يعود إلى رشده فيذعن للحق(١). ثم كتب رسالة إلى عبد الله باشا، والي عكا، يعلمه بالواقع ويطلب منه الأوامر اللازمة للتصرف. لم يطل الوقت حتى وصلت أوامر عبد الله باشا وهي الآتية:

- على الأمير أن يعود فوراً من جبيل إلى عاصمته بتدين.

- أن يدبّر حملة تأديبية ضد متسلم البقاع وطرده من هناك.

بعد عودته إلى بتدين تبيّن للأمير أن والي الشام لا يزال مصراً على موقفه من لبنان، فأرسل ابنه الأمير خليل مع قوة عسكرية إلى البقاع فاحتله بعدما طرد المتسلم ورجاله منه، ونهب كافة القرى التابعة لولاية دمشق، ثم أعاد الاهالي من زحلة والجبل إلى قراهم التي هجروها خوفاً من متسلم الوالي، وألقى الأمير القبض على أتباع درويش باشا من أكراد وغيرهم وساقهم إلى بتدين حيث سجنوا فيها(٢).

هكذا بدت للعيان، من دون أي شك، العلامات الأولية للصراع بين الأمير بشير ووالي دمشق.

ومما يجب ذكره أن المصالح المشتركة ما بين والي عكا عبد الله باشا والأمير بشير جمعتهما معاً ضد درويش باشا والي دمشق. فمنذ تسلمه ولاية عكا السنة ١٨١٩ رنا عبد الله باشا بعينه نحو ولاية دمشق، وكان عمره آنذاك لا يتجاوز الثانية والعشرين. وكان نزقاً أرعن، يسبق لسانه تفكيره. وبما أن السلطنة العثمانية كانت قد بنت دعائم ملكها على الرياء والخبث والغدر والجشع، كان من الطبيعي جداً أن ينساق ولاتها وراء هذا المبدأ البشع. لذلك وقع الخلاف ما بين

---

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، القسم الأول، ص٣٢.

(٢) الشهابي، ج٣، ص٦٩٤-٦٩٧.

- الشدياق، ج٢، ص ١٦٢.

هذا الوالي الشاب عبد الله باشا ووالي دمشق درويش باشا حول الولاية الشامية. فعبد الله باشا طمع بمنصب زميله، بالإضافة إلى منصبه هو. ادعى إنه «والي دمشق وطرابلس وصيدا». وكما قال نعمان القساطلي في مؤلفه «الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء»:

«تأهب الواليان للحرب والقتال وفكر درويش باشا في الاستعانة بالأمير بشير اللبناني، رغم ما عندهما من الكراهية الواحد منهما تجاه الآخر».

لقد استغل درويش باشا حادثة عميق البقاعية كي يطلب من أحد خواصه أن يكتب للأمير بشير موضحاً رغبته في الاتفاق معه. وافق الأمير على مبدأ الاتفاق، ولكن بشروط وصفها بنفسه خطياً (عرض حال) وسلمها إلى الرسول الشامي. وإظهاراً لحسن نية كل منهما تجاه الآخر أطلق الأمير بشير سراح كل الذين كان قد سجنهم في بيت الدين من أتباع درويش باشا، وقابله هذا الأخير بالمثل.

عرض الرسول الشامي على الوالي شروط الأمر فقبل بها قبولاً تاماً، وطلب إلى الأمير بشير أن يكاتبه بذلك رسمياً.

والشروط هي:

١ - رفع اليد عن جميع قرى البقاع التي كان قد ضبطها الكنج يوسف باشا والي دمشق السابق، وهي ملكاً للمشايخ الجنبلاطية، منذ قديم الزمان وهي تابعة لإمارة جبل لبنان.

٢ - بما أن البقاع هذا هو قطعة من الإمارة، لذا يجب أن يخضع متسلم البقاع لأمير جبل لبنان كما كان في سالف الأيام.

٣ - يجب على والي دمشق الامتناع والتوقف نهائياً عن «بلص» قرى البقاع وإعفاء أهاليها من الضرائب وخاصة المستحدثة منها.

٤ - أن يكون متسلم وادي التيم - الفوقا والتحتا - أميراً شهابياً يعينه الأمير بشير.

٥ - أن يكون متسلم بلاد بعلبك من الأمراء الحرافشة، يعينه الأمير بشير أيضاً.

كانت لدى الأمير بشير الرغبة العميقة بالاقتصاص من والي دمشق درويش باشا رغم هذا «العرض حال» الذي أرسله له متضمناً الشروط المشار إليها. وكانت لدى

والي صيدا عبد الله باشا الرغبة في اغتصاب ولاية دمشق لنفسه. لذلك جمعتهما المصلحة المشتركة.

كان على الأمير بشير أن يعرض الاتفاق على والي صيدا عبد الله باشا للموافقة عليه قبل أن يأخذ الأمير قراره بذلك. رفض الوالي رفضاً قاطعاً الاتفاق، مدعياً أن الأمير بشير قد أخطأ بإرساله عرض حال إلى دمشق، وآثر اللجوء إلى القوة والعنف. وكلف الأمير إجراء الاستعدادات اللازمة للحرب، الأمر الذي جعل الأمير «حجراً بين شاقوفين»(١).

٤٢ – معركة راشيا الأولى (شباط ١٨٢٢):

قرّر عبد الله باشا المباشرة بحملة عسكرية ضد درويش باشا في وادي التيم حيث كان والي الشام قد عين أميرين حاكمين عليها: الأول في حاصبيا والثاني الأمير منصور شهاب في راشيا. أمر عبد الله باشا بطرد الأمير منصور لأنه تقبل حكم منطقته من والي دمشق. وكلف الأمير بشير بتنفيذ هذه المهمة.

شكّل الأمير بشير قوة عسكرية قوامها ألف مقاتل من الشوف بقيادة الأمير أفندي شهاب، يعاونه الشيخ قاسم بشير جنبلاط والشيخ حمود بو نكد على رأس أنصاره من المناصف. فنهضوا جميعاً إلى جزين ومنها إلى حاصبيا فمرجعيون(٢) ووافاه هناك خمسماية وخمسون فارساً من فرسان عبد الله باشا: مئة من الأرناؤوط بإمرة محمد آغا النعمان ومئتين من الهوارة بإمرة أبو زيد آغا ومئتين وخمسين من الدالاتية بإمرة نعمان آغا(٣).

حققت القوتان اتصالهما في مرجعيون واتجه الجميع نحو حاصبيا بقيادة الأمير أفندي وعسكروا في القرى المجاورة.

(١) رستم، القسم الأول، ص٣٣.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٦٣.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٦٣.
– رستم، القسم الأول، ص٣٣.

لما بلغ درويش باشا وصول قوات عبد الله باشا إلى مرجعيون ترك الأمير منصور شهاب دمشق إلى راشيا ومعه حوالى الأربعماية مقاتل، وسيّر والي دمشق خمسماية مقاتل لمساعدة منصور، وولّى الأمير فارس سيد أحمد على حاصبيا وخلع عليه «وأنحله حصاناً مزيّناً وأمره بالسير إلى هناك بشرذمة من عسكره، ونهض بهم من قطنا إلى الديماس[(١)].

وكان إلى جانب الأمير منصور عدد من اليزبكيين الذين انحازوا إلى جهة والي دمشق ضد الأمير بشير، وكان على رأسهم الشيخ ناصر الدين العماد.

لما بلغ عبدالله باشا ذلك أرسل في ١٨٢٢/٢/٢٨، أمراً إلى قائد عسكر الهوارة يحضه على محاربة الأمير منصور، وأن يتوجه مع الأمير أفندي لطرد قوات راشيا، ومن هناك اقتحام دمشق لأجل القبض على واليها درويش باشا.

تقدّمت قوات الأمير أفندي نحو راشيا، وخرجت قوات الأمير منصور لمجابهتها، والتقى الجيشان خارج البلدة وقامت بينهما معركة طاحنة تراجع على أثرها الأمير أفندي مطارداً من قبل قوات الخصم. لكنه عاد ونظّم قواته وقام بهجوم معاكس أدى إلى تراجع الأمير منصور مع قواته، وإلى مطاردته من قبل أفندي حتى بلدة راشيا فتحصّن فيها. قتل من عسكر الأمير منصور ثمانية عشر رجلاً وأسر عشرون. أما الأمير أفندي فكانت خسارته ستة رجال وسبعة وأربعين جواداً[(٢)].

٤٣ - معركة راشيا الثانية (آذار ١٨٢٢):

لم تحسم معركة راشيا الأولى الأمر لأي من الفريقين. وتابع المعسكران استعداداتهما لمعاودة القتال من جديد بغية حسم النتيجة.

طلب عبد الله باشا من الأمير بشير الإنتقال شخصياً مع قوة من رجاله إلى راشيا

(١) الشهابي، الغرر الحسان، ج٢، ص٦٩٩
- الشدياق، ج٢، ص١٦٤.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٦٥.

لمساندة الأمير أفندي وطرد قوات والي دمشق من حدود وادي التيم والدخول إلى عاصمة الولاية. أعلن الأمير بشير التعبئة العامة في إمارته وجمع حوالى ألفي مقاتل ونهض بهم، مع بعض الأمراء الشهبيين أقاربه، إلى جزين، ومنها إلى حاصبيا، فراشيا. ولدى وصوله إلى هناك عسكر مع قواته بالقرب من معسكر الأمير أفندي. بعدها وعلى أمر من عبد الله باشا، التحق به ٣٠٠ من الهوارة بإمرة الحاج موسى الحسّي، كانوا متمركزين قرب جسر بنات يعقوب(١).

وعندما وصل الأمير إلى بيت لهيا، كان في تصرفه حوالى الأربعة آلاف مقاتل، يضاف إليهم ألفان من عسكر عبدالله باشا، فيكون المجموع حوالى الستة آلاف نفر(٢).

بعد معركة راشيا الأولى، أرسل درويش باشا إلى الأمير منصور ألفي مقاتل من المرتزقة، فأصبح في تصرفه ثلاثة آلاف رجل.

قسّم الأمير بشير قواته إلى قسمين: القسم الأول بإمرة الأمير خليل ابن الأمير بشير، وتشكّل من قوات عكا، الموضوعة بالتصرف، وأعطي أمراً بالتمركز على هضبة مقابل راشيا من جهة الشمال تسمى ضهر الأحمر. أما القسم الثاني فكان بقيادة الأمير بشير شخصياً، وتشكل من رجال الإمارة وتمركز على مرتفع مواجه لضهر الأحمر ولراشيا.

باشرت قوات دمشق الأعمال الحربية بأن خرج من راشيا حوالى أربعماية فارس نحو السهل الممتد أسفل راشيا، جوبهوا من قبل هوارة عكا بإمرة الأمير خليل وحوالى الخمسماية من عسكر الإمارة بإمرة الشيخين حمود وناصيف بو نكد.

ما أن ابتدأت المعركة حتى تراجع العسكر الشامي بقيادة قائد الدالاتية، ولم يتقدم أحد لنجدتهم. فطاردهم عسكر هوارة عكا وقتل منهم خمسة عشر رجلاً وغنم أربعة وثلاثين جواداً، وفر قائد الدالاتية مع رجاله إلى داخل راشيا وتمركزوا وراء حصن من الحجارة.

---

(١) الشهابي، ج٢، ص٧٠١.

(٢) الشهابي، ج٣، ص٧٠٢.

تمكن الأميران منصور وسلمان والشيخ ناصر الدين العماد المتمركزين في أسفل القرية من وقف المطاردة وإجبار الهوارة على العودة إلى المراكز التي انطلقوا منها.

في هذه الأثناء، خرجت مجموعة من الأرناؤوط من راشيا وهاجمت قرية دير كيفا، جنوبي راشيا وأحرقوها، لكنهم لم يتمكنوا من احتلالها لأن عسكر الأمير جابههم وقتل ستة منهم وأجبرهم على الفرار. وكان في الإمكان احتلال راشيا، لكن الثلوج والوحول المتراكمة، في تلك الليلة، منعتهم عن ذلك، فعاد رجال الأمير إلى قواعدهم(١).

رفض الامير بشير تدعيم حصار راشيا، لذلك أعاد توزيع قواته على الشكل التالي:

- الشيخ بشير جنبلاط مع ألف من رجال الشوف ينتقلون إلى كفرقوق، شمال شرق راشيا لقطع الطريق المؤدية إليها.

- الباقي من القوات، قسّم إلى مجموعات تمركزت حول البلدة لإتمام عملية التطويق.

أمام هذا الواقع المستجد تبيّن للقوات الشامية أن متابعة القتال ضد قوات الأمير بشير أو فكّ الحصار عنهم أصبح غير ممكن. لذلك فضّل قادتهم التفاوض. فأرسل السرعسكر إبراهيم آغا القهوجي باشا، الموجود في راشيا مع عسكره، طالباً الأمان وفك الحصار كي تستطيع القوات الشامية الانسحاب بأمان إلى دمشق، بعد التخلي عن راشيا للأمير بشير.

وعندما وافق الأمير على انسحاب هذه القوات من البلدة خاف الأمراء سلمان ومنصور وفارس والشيخ ناصر الدين العماد من إلقاء القبض عليهم من قبل الأمير، فهربوا ليلاً، راجلين، عن طريق عقبة الفرس المؤدية إلى إقليم البلان، ومن ثم قطنا، وقد أنهكتهم الثلوج والوحول(٢).

في صباح اليوم التالي غادرت القوات الشامية راشيا إلى دمشق من طريق كفرقوق، تاركة البلدة للأمير وقواته. وفي كفرقوق

---

(١) الشهابي، ج٣، ص٧٠٢.

(٢) الشدياق، ج٢، ص١٦٧.

التقى السرعسكر إبراهيم آغا بالشيخ بشير جنبلاط، لكنه تابع طريقه مع قواته نحو دمشق.

دخل الأمير إلى راشيا مع رجاله، وأذن لأعيان البلاد بالعودة إلى بلداتهم، ولم يبق معه في وادي التيم سوى أقاربه الأمراء الشهابيين والمشايخ الجنبلاطيين والشيخين حمود بو نكد وعلي العماد. وبعث إلى عبد الله باشا رسالة تنبئه بانتصاره على القوات الشامية. فأرسل الوالي له ولقادته رسائل تهنئة مع هدية قيّمة للأمير بشير كانت كناية عن سيف مرصّع بالحجارة الكريمة وسترة فاخرة وشال من الكشمير، وللأمير خليل خنجراً مرصعاً بالحجارة الكريمة. ولكل قائد من قواد الأمير شالاً من الكشمير[1]. بعد ذلك نهض الأمير من وادي التيم وعاد إلى بيت الدين.

٤٤ – معركة المزة - دخول الأمير ثانية إلى دمشق (٢٧ أيار ١٨٢٢):

بعد هزيمة والي الشام درويش باشا في راشيا ازدادت العلاقات بينهما تأزماً، وتفاقمت إلى درجة أنهما راحا يستعدان عسكرياً لمعاودة القتال. من أجل ذلك طلب عبد الله باشا من الأمير بشير أن يجهز قواته ورجاله للاشتراك بالحرب المقبلة ضد والي دمشق. هذا الاختلاف امتد إلى أنصارهما في بلاد نابلس في فلسطين، وانقسم الناس إلى فريقين، مع والي عكا أو مع والي دمشق. لأجل ذلك طلب عبد الله باشا من الأمير بشير توجيه قواته للقتال إلى جانب أنصاره في نابلس، فأرسل الأمير ولده الأمير خليل على رأس قوة من رجاله لتلبية طلب الوالي[2]. ولما وصل إلى معسكر عبد الله باشا في منطقة جسر بنات يعقوب التقاه قواد الجند بالإجلال والإكرام[3].

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٦٣.
- الشهابي، الغرر الحسان، ج٣، ص٧٠٦-٧٠٧.
(٢) الشهابي، ج٣، ص٧١١-٧١٢.
- الشدياق، ج٢، ص١٦٩.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٦٩.

حاول درويش باشا «تحييد» الأمير بشير، فأرسل إليه اثنين من خواصه «مشيراً عليه بعدم مساندة عبد الله باشا وإنه مهما يطلبه ينله»، وأعلمه أن الباب العالي أصدر فرماناً عين بموجبه درويش باشا والياً على عكا وطرابلس إلى جانب ولاية دمشق. وقد أعطى هذان الموفدان إلى الأمير كتاباً موقعاً من درويش باشا بهذا الخصوص كوال على الشام وطرابلس وصيدا وأمير للحج[1]. وما أن أصبح الكتاب الموقع بين يديه حتى أرسله إلى عبد الله باشا للاطلاع عليه وأخذ الإجراءات المناسبة بهذا الخصوص. بقي الباشا على موقفه السابق وطلب مجدداً من الأمير أن يستعد للقتال.

توجّه الأمير بشير بنفسه إلى عكا لمقابلة الوالي وإدلاء النصح لهذا الشاب المتهور والجسور. ولدى وصوله قابله الوالي بالاعتزار والإكرام ثمّ اختلى الامير به ثلاث ساعات محاولاً إقناعه بوجوب الاعتدال إذ أن «دمشق في نظر الدولة العلية هي باب الكعبة ولا يجوز والحالة هذه اقتحامها». فأبى ورفض «تغيير موقفه» ويقال إن عبد الله باشا أظهر فرماناً مزيّفاً يعيّنه والياً على دمشق[2].

عندئذ نهض الأمير إلى جسر بنات يعقوب وكان قبل ذهابه إلى عكا، قد أرسل ولده الأمير أمين والأمير عباس أسعد والشيخ حمود بونكد على رأس خمسماية من رجال الشوف والمناصف إلى معسكر عبد الله باشا في فلسطين وقد لاقاهم أمراء حاصبيا إلى مرجعيون وساروا جميعاً إلى معسكر الوالي.

أ - الإستعداد للقتال:

ترك الأمير مدينة عكّا وتوجه إلى المكان الذي أقام فيه الأمير خليل معسكره بالقرب من جسر بنات يعقوب، وكان الوالي قد كتب إلى قائد قواته أن ينهض بالعسكر إلى القنيطرة أو سعسع وينتظر وصول الأمير بشير إليهم[3].

(١) الشهابي، ج٣، ص٧١٣.
(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج١، ص٣٠-٣١.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٧٠.

جمع الأمير قواته وتوجه نحو سعسع من طريق قرية نعران والقنيطرة حيث كان ينتظره إبراهيم آغا الكردي على رأس قوات عكا. تسلّم الأمير بنفسه قيادة القوات جميعها يعاونه ابنه الأمير خليل والشيخ بشير جنبلاط. وقد وصل تعداد هذه القوات إلى ستة آلاف مقاتل يقابلهم ثلاثة أو أربعة آلاف من قوات والي دمشق(١).

وهنا يختلف المؤرخون على عدد قوات الأمير، فميخائيل مشاقه يقدرها بحوالي ستة عشر ألف مقاتل، منها أربعة آلاف قوات عكا بقيادة إبراهيم آغا الكردي، أما العدد الباقي فكانوا رجال البلاد (الشوف) بقيادة الأمراء والمشايخ(٢).

أما في معسكر والي دمشق، فقد انضم إليه أخصام الأمير من الحزب اليزبكي كالشيخ علي العماد وأولاد عمه والشيخان أمين وخطار قاسم العماد وأنصارهما. والبعض من مشايخ آل تلحوق وعبد الملك ومن الأمراء الشهابيين الأميران حسن وسلمان(٣).

وقد قدر عدد هذا القوات من ثلاثة إلى أربعة آلاف مقاتل(٤).

ب - *السير نحو القتال:*

انتقل الأمير بشير بقواته نحو قرية جديدة يابوس على بعد ثمانية كيلومترات من دمشق، ومنها إلى قريتي كوكب والمعظمية جنوبي غربي دمشق، حيث أقام فيهما مقرات قيادته في انتظار السير نحو عاصمة الولاية.

ما أن وصلت مقدّمة قوات الأمير إلى تخوم دمشق حتى خرجت القوات الشامية، من جنود نظاميين ومرتزقة، لمصادمتها وعسكرت في قرية المزة على مسافة قريبة من معسكر الأمير بشير.

---

(١) إسماعيل، المحررات، ج٣، ص١٨٢.
- باز، مذكرات، ص١٩.

(٢) مشاقه، منتخبات من الجواب، ص٨٦.

(٣) الشهابي، الغرر الحسان، ج٣، ص٧١٤.

(٤) باز، مذكرات، ص١٩-٢٠ - (قدر عدد قوات والي الشام خمسة عشر ألف مقاتل بين دالاتية وهواره وأرناؤوط).

ج - **المعركة:**

بدأت المناوشات نهار الأحد صباحاً في ٢٦ أيار ١٨٢٢[1]. اختار الأمير ألفين من الخيالة والمشاة من أهالي الشوف ورجال بيت بو نكد ومن أهالي المتن ومن عسكر الهواره والدالاتية، بقيادة ابنه الأمير خليل ومعه السرعسكر إبراهيم آغا الكردي ومساعديه وأبو زيد آغا وموسى آغا، وكلفهم بمحاصرة المزة.

(١) - مخطط الأمير:

كان مخطط الأمير بشير، بعد إتمام عملية الحصار كالآتي:

القيام بمناورة هجومية تضليلية من الجهة الغربية عبر المرتفعات المشرفة على المزة، بينما الهجوم الأساسي سيتم من الجهة الجنوبية للبلدة. لذلك قسم قواته إلى مجموعتين: المجموعة الأولى، بقيادة ابنه الأمير خليل تنفذ مناورة التضليل، والمجموعة الثانية، بقيادة الأمير بشير نفسه، تقوم بالهجوم الأساسي على المزة.

(١) الشدياق، ج٢، ص١٧٠.

وسيتم تنفيذ هذه العملية على مرحلتين: الأولى، تتم فيها مناورة التضليل والثانية الهجوم الأساسي.

(٢) - مخطط والي دمشق:

عسكرت القوات الشامية، خارج المدينة،، في سهل فسيح أمام بلدة المزة وقسمت إلى مجموعتين:

- المجموعة الأولى تشكّلت من الخيّالة والمدفعية تتمركز في السهل خارج البلدة: المدافع في المقدّمة والخيّالة وراءها.
- المجموعة الثانية: تشكّلت من المشاة، تتمركز وراء أسوار البلدة المشرفة على السهل.

(٣) - التنفيذ:

أرسل الأمير بشير ابنه الأمير خليل، مع مجموعة من الخيالة الأرناؤوط والشيخين حمود وناصيف بو نكد، للتمركز على الرابية المشرفة على المزة من الجهة الغربية. ومن هناك شنوا هجوماً على البلدة حيث ابتدأت معركة طاحنة، استعمل المدافعون المتمركون

داخل المزة وخارجها، كافة أنواع الأسلحة من بنادق ومدافع ومتفجرات، فقتل قائد الأرناؤوط وتراجع رجال الأمير خليل إلى مراكز انطلاقهم.

في هذه الأثناء شنّ الأمير بشير، على رأس حوالى الألف من نخبة رجاله، هجوماً جانبياً باتجاه أسوار البلدة المبنيّة من حجارة الخفان. فتسلّقها رجاله تحت وابل من النيران الكثيفة. فدمروها وأحرقوا منازل البلدة، ودخل الأمير بشير مع قواته إلى المزة حيث تواصلت المعركة بالسلاح الأبيض.

بعد قليل، انهارت المقاومة وهرب عسكر والي الشام تاركين على أرض المعركة حوالى ٢٢٠ قتيلاً عدا الغرقى في مياه نهر بردا. وقد تمّ أسر خمسماية رجل بمن فيهم الشيخ حسين تلحوق وكان جريحاً مهشماً(١).

استولى الأمير على كل العتاد والذخيرة والمدافع، وعلى كل الجياد وسائسيها، ثم أطلق سراح الأسرى الشوفيين والعدد الباقي من غير اللبنانيين أرسله إلى عكا مع عدد من رؤوس القتلى(٢).

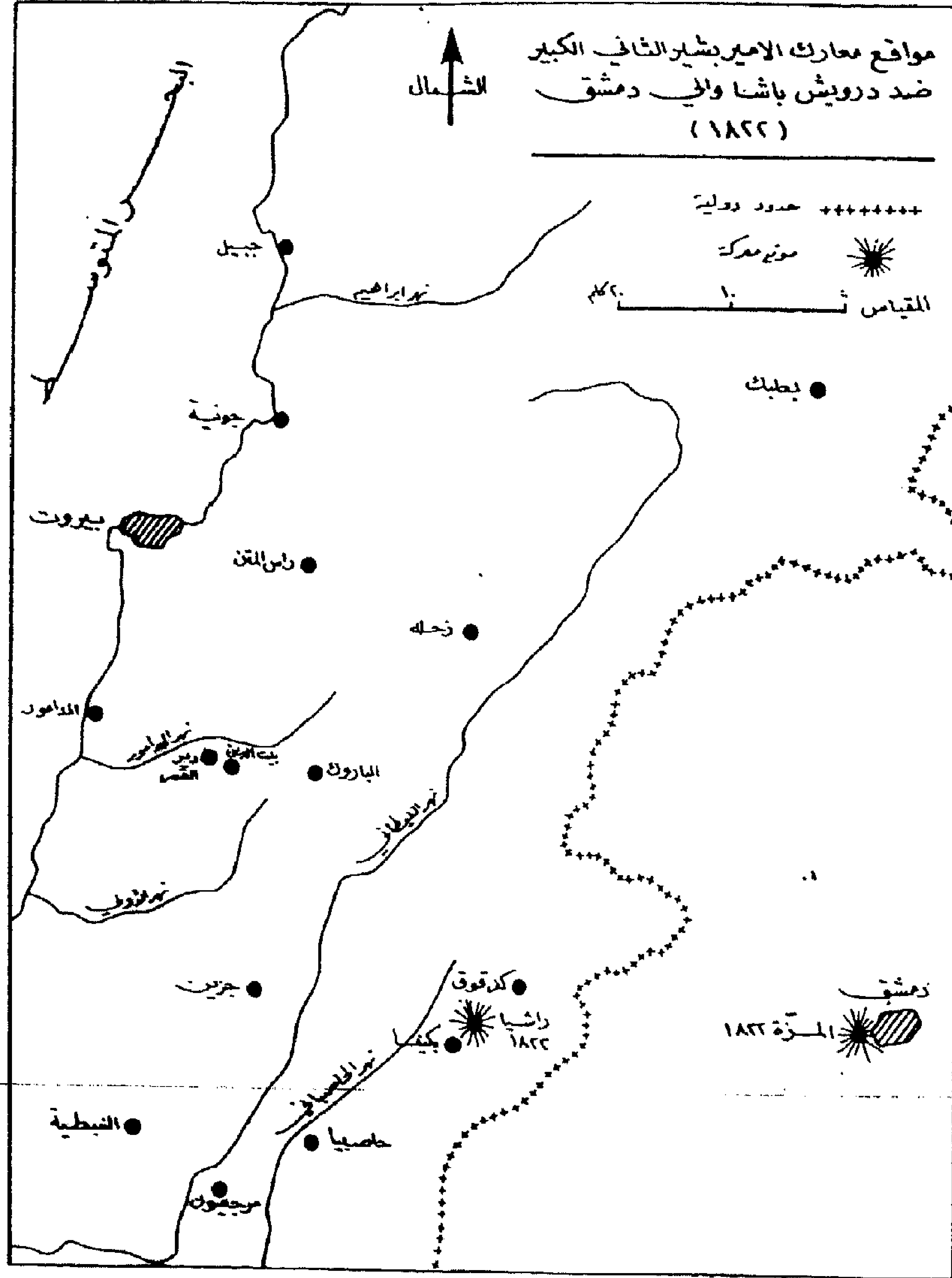
تراجع درويش باشا وخاف من ثورة أهالي دمشق عليه، فأرسل حريمه وأمتعته الثمينة إلى القلعة وسار بمن بقي معه إليها وتحصن بداخلها. وعفّ الأمير بشير عن الدخول إلى دمشق وعاد إلى مقرّ قيادته في بلدة المعظمية(٣).

في هذه الأثناء، أصدر عبد الله باشا أمراً إلى الأمير بشير بإرسال قوات من عنده لقتال عسكر فيزو باشا الموجود في حوران. فأرسل الأمير قوة من رجاله بقيادة ابنه الأمير خليل ومعه الشيخين، علي جنبلاط وحمود بو نكد وألفاً من خيالة الشوف وعكا. نشبت المعركة بين الجيشين في المرجانة وانتهت بهزيمة فيزو

(١) الشدياق، ج٢، ص١٧٢-١٧٣.
(٢) الشهابي، الغرر الحسان، ج٣، ص٧١٥.
(٣) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، القسم الأول، ص٣٥.

الخريطة رقم ٢

معركة الأمير بشير ضد درويش باشا والي الشام (١٨٢٢)



باشا بعد خسارته ٢٥ قتيلاً و١١٥ أسيراً و٣٠٠ جواداً غنمها الأمير خليل[١].

(٤) - النتائج السياسية للمعركة - عزل الأمير وفراره إلى مصر:

«اعتبر الباب العالي عمل عبد الله باشا اعتداءاً فاضحاً وإخلالاً بالأمن وتضييقاً على الحجاج وعقاً بالسلطان. واتهمه بالخداع والتزوير... وبعمله هذا استطاع إدخال الغفلة على بسطاء العقول وطوائف العربان والدروز وأهلهم وأمالهم إلى جانبه... ولو علم هؤلاء حقيقة الحال لانفضوا من حوله وأسرعوا إلى طاعة الدولة العلية»[٢].

حيال هذه الاعتبارات عزل الباب العالي عبد الله باشا من مناصبه الثلاثة: ولاية صيدا وولاية طرابلس وقيادة الجردة العامة «باشبوغ» ووضعها كلها في عهدة محمد درويش باشا والي دمشق وأمير الحج، وطلب إلى والي حلب ووالي أضنا أن يتعاونا مع والي دمشق لإنهاء مسألة عبدالله باشا في وقت قريب[٣].

علم درويش باشا بقدوم والي حلب لنجدته، فعادت ثقته إلى نفسه وأرسل أعيان دمشق لملاقاته في حمص، ومن هناك كتب والي حلب إلى اللبنانيين عموماً أن يكونوا في طاعة الأميرين الشهابيين حسن وسلمان. ولدى وصوله إلى دمشق كتب إلى الأمير بشير يأمره بطاعة الدولة وبصرف قواته بالرجوع إلى بلاده وأرفق كتابه هذا بنسخة عن الفرمان السلطاني الذي تلقاه من الباب العالي[٤].

أذعن الأمير لأمر السلطان وقام بعسكره إلى خان الشيخ وصرف رجاله، ثم إلى

---

(١) الشدياق، ج٢، ص١٧٤.
- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، القسم الأول، ص٣٥.
(٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، القسم الأول، ص٣٥.
(٣) رستم، مماثل.
(٤) الشهابي، الغرر الحسان، ج٣، ص٧١٨-٧١٩.
- الشدياق، ج٢، ص١٧٥.

مجدل شمس فبعذران الشوف فبتدين. ولم يقبل الأمير أداء الطاعة لدرويش باشا رغم إلحاح والي حلب عليه بالقبول. في هذه الأثناء طلب عبد الله باشا من الأمير بشير الإقامة في بيروت، فنزل الأمير إليها مع أولاده وألف من رجاله وخيم في غابة الصنوبر خارجها، فتقدم منه متسلمها خليل كاشف ومفتيها الشيخ عبد اللطيف فتح الله والشيخ أحمد الأغر قاضي الشرع، مرحبين بالأمير ومنتقدين عبد الله باشا لعصيانه السلطان ثم طلبوا من الأمير ألا يدخل بيروت. عند ذلك تركها إلى الدامور، ومنها انتقل إلى مصر على مركب فرنسي حيث مكث فيها سبعة شهور عاد بعدها إلى لبنان مكرماً معززاً بعدما استحصل على عفو خاص من السلطان العثماني له وللوالي عبد الله باشا. وكان قد طلبه لأجلهما عزيز مصر محمد علي باشا الذي قال للأمير عندما استدعاه ليبثه البشرى:

«إنه لأجل حسن نيتك تسهّلت هذه الأمور وارتحنا من المتاعب، وهذا التعب والمراجعات إلى الدولة هو لأجل خاطرك فقط لا لأجل عبد الله باشا... ».

(٥) - عودة الأمير معززاً إلى لبنان:

كان محمد علي باشا والي مصر، قوي الإدراك، عاقلاً حكيماً، لم يتدخل تدخلاً فعلياً في الحرب بين والي الشام درويش باشا ووالي صيدا عبد الله باشا. وتمنّع عن إرسال الخيل والفرسان إلى الثاني، لكنه سعى بالخير لدى السلطان لنيل العفو التام عن الأمير وعن الوالي، وقد حصل ما أراد ووافق على قيام الأمير إلى عكا لإرشاد واليها ولتدبير أمورها. كما كتب إلى عبد الله باشا لدفع ألف كيس إلى مصطفى باشا والي حلب الذي كان يحاصر عكا آنذاك، لأنه تكبّد المصاريف الكبيرة في الحصار. كما أنه طلب منه «تقديم المطلوب منه إلى الأستانة... بصفة شكر وحسن خدمة...» ثم أعلمه بأن صرّافه في اسطنبول تعهد بدفع الباقي وقدره عشرة آلاف كيس[1].

---

(١) رستم، المحفوظات الملكية - ج١، ص٥٣ - ولعل مجموع المال عشرون ألف كيس، ج١، ص٥٩.

قام الأمير بشير الشهابي بحاشيته إلى عكا، فاستقبل من قبل واليها عبد الله باشا بمزيد من الإعزاز والتكريم. ثم قام إلى معسكر مصطفى باشا مطلعاً إياه على فرمان العفو السلطاني، ثم عاد بطريق الساحل حتى صيدا، ومنها إلى بيت الدين، فوصلها في ربيع ١٨٢٣. وقد أنشد شاعر القصر:

نأى برهة عنا وعاد بسطوة
وبأس لأنف الحسود جاء راغما
أمير اللوا فخر الولاة وعزهم
شهاب جلا عنا الخطوب الدواهما.

٥ – الصراع الدموي بين البشيرين (كانون الثاني/يناير ١٨٢٥)

٥١ - مخطط الشيخ بشير جنبلاط:

كانت الأسرة الجنبلاطية أبرز الأسر المقاطعجية المحلية في جبل لبنان. وقد وصل بها الأمر إلى التحالف ضد الأمير الشهابي الحاكم مع أحد أقربائه الشهابيين. وقد فعلت ذلك مع الأمير منصور ضد الأمير أحمد، ثم انقلبت ضد الأمير منصور مع الأمير يوسف، ثم انقلبت ضده مع الأمير بشير الثاني، وضد هذا مع الأمير عباس.

كانت سياسة هذه الأسرة الجنبلاطية تقوم على تأييد أمير شهابي معزول شعبياً وفقير مادياً، كي يبقى تحت نفوذهم طيلة مدة حكمه، وإلاّ خذلوه وناصروا غيره.

وكان الشيخ بشير جنبلاط زعيم العائلة الجنبلاطية، وهو الذي احتفظ وحده بقوته أمام نفوذ الأمير بشير الثاني، إذ كان يسيطر على عدد من المقاطعات، وعرف على غرار الأمير بشير كيف يزيد ثروته بالاستيلاء على أراضي خصومه. ففي العام ١٨١٠، قدّرت قيمة المدخول السنوي للشيخ بشير بمليون قرش.

هذان الركيزة الإقليمية والرخاء، مع الهيمنة على قاعدة واسعة من الأسر القروية الموالية وعلى الحزب الجنبلاطي، فرضت الشيخ بشير كزعيم رئيسي للدروز في أراضي بر الشام قاطبة وجعلته منافساً رئيسياً لأمير البلاد وليس تابعاً له.

يقول حسنين أبو شقرا في كتابه «الحركات في لبنان» : كان الأمير بشير «لا يعقد

محلولاً ولا يحلّ معقوداً إلاّ بعد وقوفه على رأي الشيخ بشير جنبلاط واستطلاع وجهة فكره... ». الشيخ بشير، كما يتبين، لم يكن تابعاً للأمير بشير، إنما كان منافساً له في النفوذ على أرض الإمارة وخارجها. ومن الأسباب التي أدّت إلى الصراع بين البشيرين، أن السياسة الجنبلاطية كان هدفها الثابت إضعاف الإمارة الشهابية وإهلاكها والقضاء عليها، ونقل الحكم إلى الجنبلاطيين بعد إظهارهم بمظهر القوة المقاطعجية الوحيدة القادرة على حكم الجبل. ولم يكن إرضاء إسطنبول أمراً صعباً في ذلك الحين، فقوتها المادية كفيلة بالإرضاء والاعتراف بالأمر الواقع.

روى أبو شقرا في كتابه هذا، بنود مخطط الشيخ بشير: كان الشيخ بشير جنبلاط يحلم بتولي حكم لبنان، لذا حاول ضم إقليم البلان إلى جبل لبنان، كما كان يسعى إلى تكتيل الدروز وجمعهم في منطقة واحدة. وكان يهدف إلى الإتيان بدروز الجبل الأعلى، قرب حلب، لإسكانهم في سهل البقاع الذي كان كله ملكاً له. كما كان يهدف إلى الإتيان بدروز فلسطين لإسكانهم في إقليم جزين، وكان بمعظمه ملكاً له أيضاً، وذلك في محاولة لإنشاء منطقة درزية مجتمعة تمتد من البحر، غرباً إلى جبل حوران، ويكون هو المهيمن عليها، ويكون معظم سكانها جنوداً له. لقد أصبحت الطائفة الدرزية برمتها «تقوم إذا قام وتجلس إذا جلس». ولم تتفق الغرضيتان اليزبكية والجنبلاطية في أي وقت من الأوقات أكثر من اتفاقهما أيام الشيخ بشير الذي كان يلقب «بعامود السماء». نعم... لقد أصبح الشيخ بشير «الحَكَم» بين العديد من العائلات المقاطعجية المتنازعة: فأصلح بين بيت بو نكد والأمير قعدان ألد أعداء الأمير بشير، وصالح بين الدروز والنصارى في بسكنتا، وأصبح أكبر حجر عثرة في وجه إتمام مقاصد الأمير بشير وتحقيق أمانيه في السيطرة المطلقة على لبنان.

إن حالة كهذه لم تكن لتقر عين حاكم كالأمير بشير أو لتروق نفساً كبيرة كنفسه، بل إنه طالما كان يعمل على خفض تلك القوى الضاغطة على شوكته والتملص من «الأمراس» التي كانت مشدودة على عضديه.

٥٢ - مخطط الأمير بشير الشهابي:

إنّ تقدّم القوّات الفرنسيّة إلى عكّا ومحاصرتها في نهاية القرن الثامن عشر أيقظ في بلاد الشام، لا سيما لبنان وفلسطين، أمالاً مسيحيّة وعداءً درزياً، مما أثار الخلافات الطائفية وزاد في حدة التوتر. وبعد ذهاب الفرنسيين عن عكا وجّه الجزار اللوم إلى الأمير لعدم تقديمه المساعدة له، فلعب على الخصومات القائمة بين الأمراء الشهابيين وأفاد من حالة الإرباك السائدة يومذاك في لبنان، فاضطر الأمير إلى مغادرة الجبل والإمارة، ولم يعد إلى وطنه إلاّ بعدما تدخل الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا واعترف له بسلطته على الجبل برمته والبقاع وتخويله دفع الجباية إلى الباب العالي مباشرة.

لم تستكن أفكار الأمير إلاّ بوفاة الجزار السنة ١٨٠٤، إذ استطاع إقامة علاقات حسنة مع الوالي الجديد سليمان باشا، هذه العلاقات التي سمحت له بتدعيم سلطته وموقعه حتى العام ١٨١٩.

كان مخطط الأمير بعد موت الجزار يستند بركائزه الأساسية إلى عاملين:

- فرض النفس، وذلك بالاحترام الشديد لسلطة الباب العالي في الشام بغية حماية مصالحه ضد الولاة.

- تجميع معارضة المقاطعجية وخاصة الدروز منهم وكبح أطماعهم، وعلى رأسهم الشيخ بشير جنبلاط، أبرز المهددين لسلطته وأقوى من يليه في الهرمية الاجتماعية. وقد قرر التخلص منه في اللحظة التي تسمح بها الظروف، وراح يعمل بجد لإيجاد تلك اللحظة.

وصلت إلى مسامع الأمير مقولة كان قد عممها الشيخ بشير على أهالي الجبل وهي «إن الجبل لا يتسع لبشيرين، يا أنا يا المير... والمزروك يرحل وأنا مش مزروك» وإن الشيخ بشير هو «عمود المساء». وفعلاً كان لدى الجنبلاطي قوة عسكرية ومالية كبيرة.

كان القضاء على عصيان أنطلياس ولحفد (عامية لحفد) ١٨٢١ عاملاً جديداً أبرز قوة الإمارة على الصعيد الداخلي، وكان ذلك سبباً كافياً لانقلاب الشيخ بشير ضد هذه القوة، فتحالف مع عدو الأمير بشير، الأمير عباس شهاب، ثم استماله إليه والي دمشق

درويش باشا، مما أجبر الأمير بشير على السفر إلى مصر مع ولديه السنة ١٨٢٢. ومنذ ذلك الحين ظهر الخلاف علناً بين «البشيرين». وكانت الدلائل تشير إلى أن أول احتكاك بينهما ستنتقل شرارته إلى لبنان وعكا وفلسطين وسوريا بأكملها.

لقد كان الشيخ بشير وثيق التحالف مع الإنكليز، ويظهر من الوثائق أن الأمير بشير كان قد اتفق سراً مع العزيز، والي الديار المصرية محمد علي باشا، للوقوف في وجه السلطنة العثمانية وحلفائها المحليين، وأبرزهم الشيخ بشير جنبلاط، الذي، على ما يعتقد، كان قد أدرك هذا الأمر، لذلك تحالف مع والي الشام درويش باشا ووالي حلب مصطفى باشا ضد والي عكا عبد الله باشا.

فأول عمل قام به الأمير بشير بعد وصول الفرمان السلطاني بالسماح له بالعودة من مصر إلى إمارته، إنه طلب من الأمير عباس شهاب تصريف شؤون الحكم قبل قدومه إلى الجبل، في محاولة منه للإيقاع بين عباس والشيخ بشير الذي لم يحصل بتاتاً. بعدها سعى الشيخ بشير إلى الأميرين سلمان وحسن الشهابيين، من أمراء وادي شحرور، في ولاية الجبل عوضاً عن الأمير بشير. وبواسطته حضر إلى بيت الدين حوالى الخمسماية جندي أرناؤوطي لمناصرتهما.

في أيلول ١٨٢٣ شن الشيخ بشير مع رجاله هجوماً صاعقاً ضد مدينة عكا، لكنه فشل، فكان ذلك بداية النهاية للشيخ بشير جنبلاط.

بعد وصول الأمير بشير من الديار المصرية إلى بيت الدين رفع الضريبة في شكل ابتزازي واستفزازي على أملاك الشيخ بشير، عقاباً على ما فعله أثناء غيابه في مصر، وكان ذلك السنة ١٨٢٤. وهكذا بدأت مرحلة الاهتزاز الاقتصادي على طريق تصفية الشيخ نهائياً.

لم يقرأ الشيخ بشير الأمور كما يجب أن يقرأها، بل قرّر في غفلة من الزمن أن يظهر قوته في شكل استعراضي، تكلمنا عليه سابقاً. لقد شعر الناس، كل الناس في إمارة الجبل، بأن الصراع بين الصديقين القديمين قد انفجر ولا يمكن إعادة «المياه إلى مجاريها القديمة». وأخذوا يرددون «فعلاً إن الجبل لا يتسع لبشيرين... » خاصة أن أحدهما قد لقّب «بعمود السماء».

لم ينم الشيخ بشير على حرير، بل راح يستعد للمعركة المقبلة لا محالة. لقد استثار كاخيته، الشيخ أبو حصن الدين الذي اقترح عليه «أن لا يدفع أي ضريبة بعد اليوم.. لأن المير بشير متى سلب مالك هان عليه قتلك.. فالأوفق أن نضربه اليوم.. يا إلنا يا إلو ما زال عنا مال... ». منذ تلك اللحظة راح الشيخ يتّصل سراً بالأعيان والمناصب «المقاديم» لوضعهم في الأجواء المقبلة للمعركة التي سيشنها ضد الأمير بشير.

في بداية ١٨٢٥ انفجر الصراع ما بين البشيرين عقب مرحلة قصيرة جداً من الهدوء الذي عقب المصالحة التي قام بها عبد الله باشا بينه وبين الأمير، وقط تشكلت خلالها نواة لجبهتين:

- الأولى: قوامها الشيخ بشير وعائلته، بعض الأمراء من بيت بو اللمع، الأرسلانيون، بعض الأمراء الشهابيين، لا سيما عباس وسلمان وحسن من وادي شحرور وسيد أحمد وأنصارهم. وآل عماد الذين وعدهم الشيخ بالتنازل لهم عن عدد من قرى البقاع. وقد دفع أموالاً أيضاً لعدد كبير من اليزبكيين فانضموا إليه[1] وتركوا الأمير. وقسم من آل عبد الملك وأبو شقرا وقسم من آل تلحوق. وآل الخازن وآل حبيش وآل الدحداح - وبني هلال وبني معضاد وأبو الحسن وغيرهم. وعندما ابتدأت المعركة وصلت نجدات أخرى متأخرة من كفرسلوان وبتخناي.

- الثانية: قوامها الأمير بشير، والي عكا، والي مصر، مصطفى بربر آغا حاكم طرابلس، الأمير حيدر شهاب وأنصاره، الأمير شديد بو اللمع وأنصاره، الأمير ملحم شهاب من راشيا وأنصاره، قسم من التلاحقة والمشايخ بيت بو نكد وأنصارهم. أهالي دير القمر والمناصف والشحار، آل حماده من بعقلين، وآل عبد الصمد وأنصارهم، وقسم من آل عبد الملك وأنصارهم، بالإضافة إلى دعم ومساندة من نصارى جزين وزحلة.

(١) الشهابي، ج٣، ص٧٥٧ - دفع الشيخ لهم حوالى ٥٠ ألف غرش.

لم يكن الأمير مطمئناً لقوته تجاه قوة الشيخ بشير، لذلك طلب نجدة من والي عكا عبد الله باشا، فأرسل له خمسماية جندي من الخيالة الأرناؤوط والانكشارية، بقيادة أبي زيد آغا وبربر آغا الأرناؤوطي(١).

إلى جانب هذه القوة العسكرية أرسل النوالي بحراً إلى صيدا عدداً كافياً من المطيّات والذخيرة والعلف والخيم والأمتعة والهواوين(٢). وقد أنشأ جسراً برياً بين صيدا ودير القمر لنقل التعزيزات ولأجل ذلك تمت مصادرة الجمال والبغال والمطيّات الأخرى من جبل عامل مع مالكيها، كما بعث بمدافع من العيار الكبير وهواوين لأجل إتمام عملية حصار المختارة(٣).

في هذه الأثناء وجه الأمير ولده الأمير أمين إلى الديار المصرية، مصحوباً بأربعين جواداً نجدياً يبلغ ثمنها مائة ألف غرش، كهدية «متواضعة» للعزيز ولأرباب الدولة. وقد توسل الأمير أمين من محمد علي باشا، إرسال نجدة عسكرية لوالده في صراعه ضد الشيخ بشير جنبلاط وأنصاره(٤). وقد وعده العزيز بالمساعدة العسكرية وأعلمه أنه أعطى أمراً لتجهيز حملة عسكرية إلى جبل لبنان قوامها ستة آلاف من الخيالة والمشاة بقيادة طوسون بك(٥).

كل هذه الاستعدادات العسكرية التي قام بها الأمير بشير تبيّن مدى خطورة العصيان الذي يهيئه الشيخ بشير، والخوف العميق من تداعياته وخطورته.

٥٣ - معركة مرج السمقانية (٥ كانون الثاني ١٨٢٥):

صمّم الشيخ بشير جنبلاط على أن لا يخضع لغطرسة الأمير بشير، وشرح كل

---

(١) أبو شقرا، الحركات، ص١٢.
(٢) الشهابي، ج٣، ص٧٥٨-٧٥٩.
(٣) الشهابي، ج٣، ص٧٥٩.
(٤) الشدياق، ج٢، ص١٨٦.
(٥) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٦٤

وجوه القضية للذين يحيطون به، مقسماً بأن لا يعود إلى المختارة إلاّ إذا توافرت له القدرة على بسط سلطة غير منازعة، لا يستطيع أن يهددها تدخل من الأمير، الذي كان مصمماً الآن على إنزال الخراب به، وسرعان ما ترك قصره وانتقل إلى شمالي لبنان، إلى عكار، منتظراً ما يجيء به الغد وما هو مكتوب على الجبين(١).

عندما انتشر نبأ مغادرة الشيخ بشير المختارة وبلغ مسامع الأمير في بيت الدين، أصدر أوامره بمصادرة ممتلكاته. وتوجّهت قوة على الفور من الحوالة لتضع يدها على كل ما يمكن أن تجده من منقول وغير منقول. هذا العمل فجّر النقمة الدفينة وأثار عدم الارتياح عند أنصار الشيخ بشير الذين أيدوا هذه النقمة العارمة بغاية تقوية مكانتهم الحربية. وكل هذه التحركات كانت تتجه إلى وضع الشيخ بشير، رغم كونه غائباً، على رأس هذا العصيان أو الثورة.

في الخامس من كانون الثاني، تجمّع أنصار الشيخ بشير في المختارة، وقارب عددهم الإثني عشر ألف مقاتل بين راجل وممتطٍ(٢). وطلبوا من الشيخ بشير الموجود في عكار العودة فوراً إلى الشوف. في هذا الوقت كان الأمير يتلقّى التعزيزات والإمدادات المرسلة من عبد الله باشا عن طريق صيدا دير القمر. وقد قرر المحتشدون في المختارة قطع هذه الطريق فتحركوا نحو حرج السمقانية لمنع عسكر الدولة من التجمع بهدف نجدة الأمير بشير.

وصل رجال المختارة إلى مرج السمقانية على بعد ميل واحد من قوات الأمير بشير، وتقدّم الشيخ علي العماد مع أنصاره للتمركز على التلال المشرفة على بيت الدين، حيث كان يوجد مركز مراقبة لقوات الأمير. اشتبك رجال المركز مع رجال الشيخ علي، ثم انسحبوا على الفور إلى الوراء، فأنجدهم الأمير خليل بسرية من الخيالة، لكنها اضطرت بدورها إلى الانكفاء.

(١) تشرشل، الكولونيل - جبل لبنان - عشر سنوات إقامة بين الموارنة والدروز - ١٨٤٢ - ١٨٥٢ - ترجمة فندي الشعار - دار الفارابي - بيروت ١٩٩٨، ج٣، ص٢٨٠-٢٨٣.

(٢) الشدياق، ج٢، ص١٨٩-١٩٠.

واستطاع رجال الشيخ علي الوصول تقريباً إلى قصر الأمير الذي كلف الشيخ ناصيف بو نكد ورجاله وأهالي دير القمر بمؤازرة الأمير خليل. وعند وصول الشيخ ناصيف إلى أرض المعركة اشتد القتال أكثر فأكثر، خاصة عند وصول تعزيزات إليه من حلفائه الموجودين في السمقانية. وبالرغم من هذه التعزيزات، ابتدأ رجاله بالتراجع والانكفاء، فالمشاة منهم اجتمعوا وراء جدران الخلوة المجاورة للبلدة وراحوا يطلقون النار منها، أما الخيالة فقد تابعوا القتال خارجها.

في هذه اللحظة بالضبط تلقى الأمير نجدات عسكرية من عكا، بإمرة أبو زيد آغا والأمير بشير ملحم، فزجهم الأمير فوراً في المعركة مما بدّل وجهها: فرجال المختارة لم يكن بمقدورهم الصمود أكثر من ذلك، رغم شجاعتهم وإقدامهم في القتال. أصيب الشيخ علي برصاصة في يده فتراجع عن القتال «ولما رأته أصحابه راجعاً تقلقلوا وانكسروا إلى أصحابهم في السمقانية لظنهم أنه خائن»[1]. وتحت ضغط قوات الأمير بشير وعسكر عبد الله باشا، اضطر رجال المختارة للانسحاب من السمقانية مهزومين، فطاردتهم قوات الأمير حتى اسفل القرية[2]. خسر الأمير في هذه المعركة قتيلين وعشرة جرحى، بينما خسر رجال المختارة تسعة قتلى وأربعة وعشرين جريحاً، بينهم الشيخ علي العماد[3].

إنّ تراجع رجال المختارة من أرض المعركة بهذا الشكل جعل نهاية الشيخ بشير قدراً محتّماً، ولم يعد هنالك من قوة تستطيع وقف التراجع.

٥٤ - معركة بعقلين
(٢٥ كانون الثاني ١٨٢٥):

بعد معركة السمقانية، عاد الشيخ بشير من عكا إلى المختارة وراح يستعد للمعركة

(١) الشدياق، ج٢، ص١٨٩-١٩٠.
(٢) الشدياق، ج٢، ص١٨٩-١٩٠.
- الشهابي، ج٣، ص٧٦١-٧٦٢.
- مشاقه، منتخبات من الجواب، ص٩٩-١٠٠.
(٣) الشهابي، ج٣، ص٧٦٢.

المقبلة. فانتصار الأمير بشير في السمقانية شتت عدداً كبيراً من أنصار الجنبلاطي، فالعدد الكبير من أعيان الشوف والعرقوب التحقوا بالأمير. من المتن أتى الأمير حيدر قائدبيه ومعه ألفان من رجاله. وحاكم حاصبيا الأمير سعد الدين شهاب أرسل أخاه الأمير محمد للمبايعة. وأرسل والي عكا بتصرف الأمير ثلاثة آلاف مقاتل بين راجل وممتطٍ: أكراد وتركمان وأرناؤوط وهواره ومغاربة وطاقم من المدفعية[1].

كان آل حماده في بعقلين من أشد أنصار الأمير بشير في الشوف، فقرر الشيخ بشير مهاجمتهم في عقر دارهم، فجهّز قوة عسكرية من ألف وخمسماية مقاتل بقيادة الشيخين علي جنبلاط وأمين العماد والأمير فارس شهاب[2]. في ٢٥ كانون الثاني ١٨٢٥ نهضت هذه القوة ليلاً إلى بعقلين واقتحم رجالها آل حماده في منازلهم على حين غفلة. سمع أهالي دير القمر أصوات الطلقات النارية من جهة بعقلين، فأسرعوا إلى نجدتهم، كما أسرع أيضاً الأمير خليل على رأس قوة من بتدين لمجابهتهم هناك. وكان الجنبلاطيون قد أحرقوا عدداً من منازل وحوانيت الحماديين. فاجأهم وصول الأمير خليل مع قواته إلى بعقلين، فدب الذعر والهلع في صفوفهم وفرّوا هاربين تاركين على أرض المعركة ٤٩ قتيلاً وعدداً من الأسرى. أما الخسارة البشرية التي مني بها آل حماده، فكانت سبعة قتلى وعدداً من النساء والأولاد[3].

إنّ هذه الأحداث دلّت إلى أن هنالك أعداء للشيخ بشير، وأقنعت الأمير بشير بضرورة اتخاذ تدابير تؤكد له السيادة على عدوه الذي لا يزال قوياً، فيضع لذلك حداً لما هي عليه الأحوال. لذلك يجب متابعة القتال ضد الشيخ بشير حتى تدميره نهائياً وقتله.

(١) مشاقه، المنتخبات من الجواب، ص١٠٠.
(٢) الشهابي، ج٣، ص٧٦٦.
- الشدياق، ج٢، ص١٩٢.
(٣) الشدياق، ج٢، ص١٩٢.

٥٥ - معركة مرج بقعاتا
(٢٥ كانون الثاني ١٨٢٥):

في صبيحة هذا اليوم، جاء الشيخ بشير برجاله إلى مرج بقعاتا ومرتفعات السمقانية، وهناك تلقى نجدات تعزيز بالرجال من قطاع العرقوب، وقد وصلوا عن طريق عين-وزين «فملأوا السهل والهضاب حتى مسافة خمسة أميال، تحت راية مشايخهم»(١). وفي اليوم نفسه نهض الأمير بشير شخصياً على رأس قواته، واتجه نحو السمقانية، فأرسل مجموعة من عسكره إلى كفرنبرخ لمنع الشيخ ناصر الدين العماد من الالتحاق بصفوف أعدائه، ومجموعة أخرى للتمركز على الروابي المشرفة على بلدة المختارة بغية جذب الشيخ بشير إلى هناك. أما بقية قواته فتمركزت معه في السمقانية.

التقى الخصمان في بقعاتا، والتحق عسكر الدولة بقوات الأمير بشير في المرج المذكور واصطفوا معها للمعركة. وكان عددهم حوالى الثلاثة آلاف(٢).

والتحق بالأمير أيضاً، حاكم طرابلس، بربر آغا زادا القرق مع خيالته.

نشبت المعركة في سهل بقعاتا وكان الأمير بشير يزجّ رجاله، أولاً بأول، وفق الحاجة التي تتطلبها المعركة. وفي النهاية أصبح الجميع بداخلها. هجم عسكر عكا وخيالة بربر آغا على عقال الدروز المتحصّنين في قلعة من الصخور على حدود المرج. أما الشيخ ناصر الدين العماد، «فأبقى أناساً من جماعته في كفرنبرخ» محافظين على التماس مع قوات الأمير، وشنّ مع مئة من مقاتليه هجوماً على عسكر الأمير وحلفائه، بالتنسيق مع هجوم الأمير سلمان عليهم، مما اضطرهم إلى التراجع(٣). استمر القتال مشتعلاً بشراسة حتى غياب الشمس، عندها رجع الخصمان إلى قواعدهما من دون أن يتمكن أي منهما من إحراز النصر المبين.

(١) مشاقه، المنتخبات من الجواب، ص١٠٠

(٢) الشدياق، ج٢، ص١٩٣.

- الشهابي، ج٣، ص٧٦٦.

(٣) الشدياق، ج٢، ص١٩٢.

قُتل من رجال الأمير خمسة وعشرون ومن أنصار الشيخ بشير سبعة وخمسون، العدد الأكبر منهم من العقال الدروز[١]. وقد طلب الأمير بجمع رؤوس القتلى من ساحة المعركة وإرسالها إلى عكا لدى صديقه عبد الله باشا. أما الأسرى فقد عفا الأمير عنهم فيما بعد وتركهم أحراراً.

لم يسمح الأمير باستعمال المدفعية الموضوعة بتصرفه مع عسكر الوالي، نظراً للتدمير المخيف الذي ستحدثه في أرض المعركة. وبالنتيجة، كما روى المؤرخ مخايل مشاقه عن لسان عبد الله آغا أحد قادة قوات عكا، أن الأمير كان يعتبر أن الذين قاموا ضده من الأهالي، قد غُرِّر بهم، وهم فقراء تركوا أشغالهم في قراهم وأتوا تحت ضغط مشايخهم وأمرائهم للقتال ضد الحاكم. ولو استطاع الأمير إبعادهم عن القتال، بالحسنى، لفعل[٢]. ومع ذلك فهذه الرحمة أو الشفقة غير المعهودة لدى الأمير تجاه أعدائه، لم تكن سوى سياسة حذقة اتّبعها بشير ليحافظ على الرباط الضروري بين الحاكم والمحكومين أو بين الرئيس والقاعدة.

٥٦ - معركة الجديدة (٣٠ كانون الثاني ١٨٢٥):

بعد معركة مرج بقعاتا قرّر الأمير متابعة القتال ضد الشيخ بشير حتى النهاية واقتحام عاصمته المختارة والقضاء عليه نهائياً.

جمع الأمير رجاله وكل القوات الموضوعة بتصرّفه وقسّمها إلى مجموعتين:

- المجموعة الأولى، مؤلفة من خيالة عكا - تأخذ محور الكملونية - الجديدة.

- المجموعة الثانية: مؤلفة من قوات الإمارة، بقيادة الأمير بشير شخصياً - تأخذ محور بقعاتا - الجديدة.

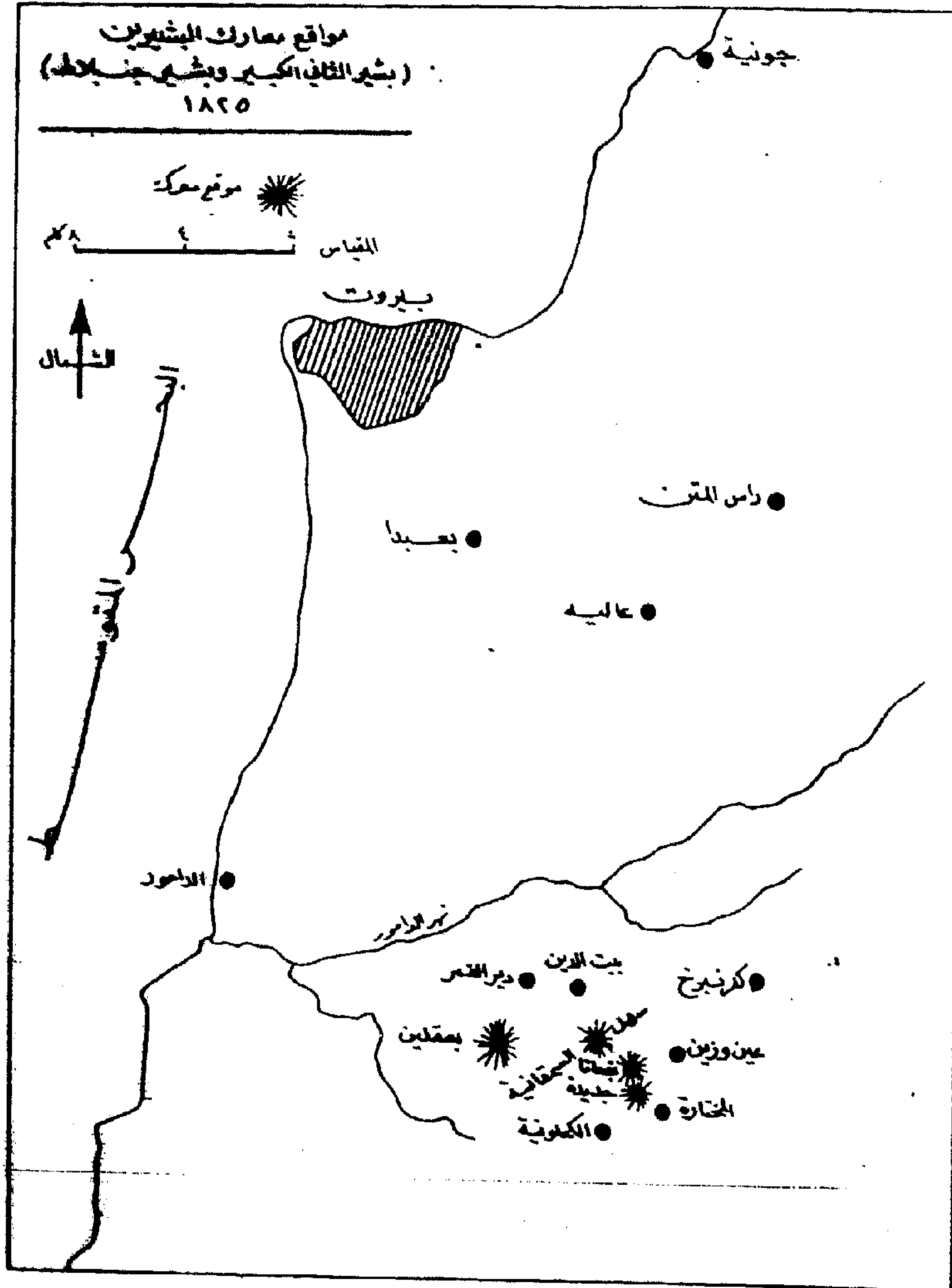
أبقى الأمير في بيت الدين، قوة من رجاله، كانت مهمتها مراقبة الشيخ ناصر الدين عماد، المتمركز في كفرنبرخ مع

(١) مشاقه، المنتخبات، ص١٠١.

(٢) مشاقه، مماثل.

الخريطة رقم ٣

معارك البشيرين، الشهابي والجنبلاطي (١٨٢٥)



أنصاره، بهدف قطع الطريق عليه باتجاه المختارة في حال أراد التوجه لنجدة الشيخ بشير.

وصل الأمير إلى الجديدة وركّز قواته على الشكل التالي:

- الخيالة تأخذ مراكزها على المدخل الغربي للجديدة.

- قوات الأمير تأخذ مراكزها على التلة المشرفة على القرية (ضهر الجديدة) باتجاه المختارة.

ما ان علم الشيخ بشير باقتراب قوات الأمير من الجديدة حتى نهض فوراً برجاله لمجابهتهم.

أ - المعركة:

أرسل الأمير مفرزة من الخيالة لاحتلال جسر المطمور على طريق الكحلونية - المختارة، لتأمين تقدمه نحو المختارة بهدف احتلالها. بعدها تقدّم الأمير إلى ضهر الجديدة وتمركز هناك منتظراً تحرّك رجال الشيخ بشير لمهاجمته.

أرسل الشيخ بشير الأمير عباس أسعد ورجاله، فاحتلوا جسر المطمور ومنعوا خيالة الأمير من الاقتراب. كما أرسل الشيخ علي جنبلاط والأمراء الأرسلانيين ورجالهم لاقتحام ضهر الجديدة وطرد الأمير منه. كان على رجال المختارة أن يتسلقوا المنحدر للوصول إلى المرتفع ومهاجمة خصومهم الذين منعوهم عن التقدم بفتح النار وبدحرجة الصخور عليهم. توقّف المتسلقون عن التقدّم واضطروا إلى التراجع، ثم أعادوا الكرة مرة ثانية وثالثة، لكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً وأصيب العدد الكبير منهم، مما اضطرهم إلى التراجع النهائي والفرار. فطاردهم رجال الأمير الموجودون على تلة الضهر وفاجأهم فرسان الأرناؤوط من الجهة الغربية وقطعوا عليهم طريق التراجع. أصيب الشيخ علي بجرح بليغ والتجأ الفارون إلى القرية، لكنهم أجبروا على الانسحاب منها تحت ضغط رجال الأمير، ففرّوا باتجاه المختارة، تاركين على أرض المعركة أكثر من أربعين قتيلاً ومئة جريح(١)، بينما قوات الأمير لم تخسر سوى عشرة

(١) الشدياق، ج٢، ص١٩٣.

قتلى أو أربعة، وفق بعض المؤرخين، وعشرة جرحى[1].

ب - *سقوط الشيخ بشير:*

إن نتيجة معركة الجديدة جعلت أمر المقاومة المنظمة من جانب الشيخ بشير خياراً مستحيلاً، فبعدها انفضّ العدد الكبير من أنصار الشيخ بشير عنه: رجال الشوف، الأمراء اللمعيون والإرسلانيون إلى المتن وإلى الشويفات، وغيرهم. البعض منهم عاد إلى الأمير نادماً والبعض الآخر هرب إلى أماكن بعيدة طلباً للأمان. أنفذ الأمير رسولاً من مشايخ عقال الدروز إلى المختارة، ينصح رجال الشيخ بالاستسلام وعليهم الأمان، ما عدا الأمراء الشهابيين والشيخ بشير نفسه[2].

هرب الشيخ بشير إلى جزين تاركاً دارته في المختارة. ودخل الأمير إلى البلدة منتصراً وهدم المسجد الذي كان الشيخ قد بناه منذ مدة. في أثناء ذلك نهب الأمير خليل دار الشيخ وضبط كل ما فيها، ونهبت منازل المختارة وبعدران ومنازل أنصار الشيخ. ثم ضبط الأمير كل أرزاق الشيخ بشير وبقيت في حوزته حتى السنة ١٨٤٠. وهدمت دار المختارة ولم تشيّد من جديد كما كانت إلاّ على يد ابنه الشيخ سعيد.

من جزين هرب الشيخ إلى حوران مع حليفيه الشيخين علي وأمين العماد. ألقى والي الشام مصطفى باشا القبض عليهم، فقتل الشيخ علي وأرسل الشيخين بشير وأمين إلى عبد الله باشا، والي عكا، الذي أمر بخنقهما نزولاً عند رغبة محمد علي باشا. ثم تركت جثتاهما عاريتين على رمال شاطئ عكا لمدة ثلاثة أيام.

كان الأمير بشير أكثر رحمة خلال هذه المعركة منه بعد انتصاره، فكل أسير كان يقع بأيدي رجاله كان يتركه، ما عدا الشيخ بشير والأمراء الشهابيين أقاربه. وكل المقاتلين

---

(١) يروي الشهابي في فصل «حرب البشيرين» أن عدد القتلى في صفوف الشيخ بشير تعدّى ٢٥٠ والجرحى ٣٠٠. أما في صفوف عسكر الأمير كانت الخسارة ١٣ قتيلا و٨ من قوات عكا و٣٠ جريحاً. الشهابي، ج٣، ص٧٦٩.

(٢) الشدياق، ج٢، ص١٩٣.

الـذيـن انسـحبـوا بملء إرادتهـم من المعركـة أخلـي سبيلهـم وأعطوا الأمان النـهائي من قبل الأمير. هذه الضغوط المعنوية أعطت مـفاعيـلها الممـتازة، وكانت السبب في فك التحالف المعادي للأمير. فالعدد الكبير من المشايخ والأمراء تركوا الشيخ يلاقي مصيره المحتوم وعادوا مع رجالهم إلى منازلهم.

وأراد الأمير أن يـكـمـل انـتصـاره فـأوعـز بسـمـل عـيـون الأمـراء: عـبـاس وسـلـمـان وفارس، وبقطع ألسنتهم بحضوره شخصياً، لأنـهـم كـانـوا قد انضـمـوا إلى حركـة الشيخ وكان بإمكانهم إقلاق راحته. وكتب رحالة فرنسي بتهكم «... هكذا نعم الأمير بشير بـهـدوء الـبـال ...». وبـعـد انـتـصـاره في هـذه المعـركـة حـمـل الأمير لـقب «الأمير بشير الثاني الكبير».

لـقـد كـان سـقوط الشيخ بشير جنـبـلاط إيذاناً بالقضاء على أكبر معاقل المقاطعجية القوية في جبل لبنان، بعده أخذت تتهاوى مـعـاقـلها الأخرى تباعاً تحت ضربـات، من جـهـة، المركـزيـة الحاكـمـة، ومن جـهـة أخرى النضال الاجتماعي الطبقي.

سقط «عمود السماء» ولم تسقط السماء!

والأمير بشير لم يعمل إلاّ بالوسائل المتاحة في بيـئـتـه وتمشـيـاً مـع عـاداتـهـا. وخـلـف هـذه السياسة كانت تقف شخصية بالغة الحيوية، لكن انتماءها كان إلى الماضي، وإذا أدى فعل الأمير إلى إحداث بعض التغييرات، فقد كان ذلك بغير إرادته وعلى حساب غايته.

٦ – مساهمة الأمير بشير في قمع العصيان في فلسطين (١٨٣١)

٦١ – توطئة:

بـعـد الـقـضـاء عـلـى ثـورة الشـيـخ بشير جنبلاط، تمكّن الأمير بشير من التفرغ كلياً لممارسة حكم البلاد بكل طمأنينة وراحة بـال، فـبسـط سـلـطـتـه وسطوته على كـامـل الأراضـي الـلـبـنـانـيـة من دون أي مقاومة أو معارضة. وقد قوّى رباط تحالفه من جهة مع والي عكا، ومن جهة أخرى مع عزيز مصر محمد علي باشا، الذي كان يهيئ الأرضية لحمـلـتـه المقبـلـة في بـلاد الشـام، عـاقـداً الصـداقات والـتـحـالفات في كل زوايا هذا الإقليم.

في السنة ١٨٣٠ أنعم الباب العالي على والي عكا، عبدالله باشا، بحكم الولايات الثلاث: القدس والخليل ونابلس بعدما سلخها من والي دمشق لعجزه عن تحصيل الضرائب السلطانية المتوجبة للدولة العلية. كانت العائلات الكبرى، مثل آل الجرار وآل طوقان، تحكم نابلس. وكان آل الجرار أسياداً يحكمون مقاطعة في شمالي نابلس تحتوي قرى وبلدات عدة، يقع في إحداها حصن يسمى «حصن سانور»، في منتصف الطريق ما بين نابلس وجنين. وقد بنى هذا الحصن منذ القديم محمد الجرار، وحصّنه وقوّاه الشيخ يوسف الجرار. وقد ألقى والي الشام، عثمان باشا الكورجي الحصار عليه السنة ١٧٦٤، وكذلك والي عكا أحمد باشا الجزار السنة ١٧٩٤، ولم يتمكن أي منهما من السيطرة عليه، نظراً لسهولة الدفاع عنه وصلابة بنيانه[١]. وقد عزّز آل الجزار هذا الحصن بالأسلحة والذخائر وأقاموا فيه مقاتلين من أنصارهم.

٦٢ - حصار قلعة سانور (شباط/فبراير- نيسان/ابريل ١٨٣١):

لم يستسيغ بيت الجرار تولية عبدالله باشا على بلادهم، حتى أن البعض منهم قام بعصيان مسلح وفاجأوا المتسلم وعبدالله باشا في بلدة جنين[٢]. طلب الوالي منهم تسليمه حصن سانور فرفضوا رفضاً قاطعاً وتحصّنوا بداخله بعدما أغلقوا مداخله في وجه رجال الوالي. ألقت قوات عبد الله باشا الحصار على الحصن وقصفته بالمدفعية والقنابل، لكنه صمد ولم يقع في أيديهم.

طلب عبد الله باشا من الأمير بشير أن «يهيئ له من بلاده ألفي مقاتل لفتح قلعة سانور رغماً عن النابلسيين العاصين فهيأهم منن مقاطعات البلاد».[٣] قرر الأمير النهوض إلى عكا على رأس قواته، مصطحباً معه الأمير خليل وحفيده الأمير محمود، وكلف ابنه الأمير أمين القيام بأعباء حكم الإمارة أثناء غيابه. كان عديد جيش الأمير

(١) الشهابي، ج٣، ص ٨٠٠-٨٠١.
(٢) الهشابي، ج٣، ص ٨٠٠.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٢٠١.

حوالى /٤٥٠٠/ مقاتل. وكان عبد الله باشا قد وعده بدفع كل تكاليف الحملة[١].

نهض الأمير مع جيشه من بتدين إلى نهر الأولي، في منتصف كانون الثاني ١٨٣١[٢]، وعسكر قرب الجسر لمدة ٣ أيام، ثم توجه بعد ذلك إلى عكا فاستقبله الوالي بالموسيقى وحرس الشرف وأنزله في قصر البهجة وأنزل عسكره حوله في الخيام. وبعد محادثات طويلة بين الوالي والأمير، توجه بشير مع جيشه إلى نابلس لينضم إلى قوات عبد الله باشا. ولدى وصوله أخذ أمرة القوات كلها المتواجدة هناك وباشر فوراً بتنظيم حصار الحصن المنيع.

استؤنف القتال بضراوة أكثر من السابق بين المحاصِرين والمحاصَرين. فكان الحصن يُقصف يومياً بحوالى /٢٥٠/ قذيفة. وأخيراً تمكّنت المدفعية من تدمير القسم الأعلى من أكثرية الأبراج[٣] بعدها فصل الأمير مجموعة من قواته لقطع الطريق على «الآتين من نابلس إلى المزار المحاذي للحصن»[٤] لمساندة المحاصرين الذين لم يعد عندهم طاقة لتحمّل الحصار.

ففي ليل ١٨٣١/٢/١٠ خرج المحاصرون من حصنهم وهاجموا مرابض المدفعية، وكانوا على وشك السيطرة عليها، لكن الأمير أرسل فوراً تعزيزات إلى هناك، فدارت معركة شرسة بين الخصمين دامت ٨ ساعات وانتهت بتراجع المهاجمين وبدخولهم إلى الحصن، واقترب رجال الأمير من حائطه وابتدأوا يتسلقونه، لكن النساء راحت «تغمس اللحف بالزيت وتشعلها وترميها من القلعة على المتسلقين»، وعلى ضوء هذه اللحف المشتعلة، كان المدافعون يطلقون النار على رجال الأمير الذين أجبروا إلى التراجع بعدما قتل منهم أحد عشر رجلاً. ودام القتال بعد ذلك ثلاثة أيام.

(١) إسماعيل، المحررات، ج٥، ص١٩١.
(٢) الشهابي، ج٣، ص٨٠٢.
(٣) الشهابي، ج٣، ص٨٠٤.
(٤) الشدياق، ج٢، ص٢٠٢.

٦٣ - معركة العجة والفندقومية ونتائجها:

تابع الأمير قصف حصن سانور لمدة ثلاثة أيام من دون الحصول على نتيجة تذكر. بقيت معنويات المدافعين عالية وزادوا شراسة بالمدافعة عن حصنهم، ولم يستسلموا لأعدائهم رغم الصعوبات الجمة التي اعترضتهم.

في غضون ذلك حضر الأمير عبد الله حسن شهاب إلى هناك. ثم تجمع أهالي نابلس وأرسلوا نجدة إلى المحاصرين قوامها ٣٠٠ فارس من أنصار آل الجرار، عسكروا بالقرب من نبع مياه يقع بين قرية العجة (إلى الغرب من سانور) وقرية الفند قومية (إلى الجنوب الغربي من سانور)، بهدف منع جنود الأمير من ورود هذا النبع واستعمال مياهه لهم ولمطياتهم. «وانضاف إلى هؤلاء الفرسان عدد من المقاتلين النابلسيين حتى أصبحوا جيشاً صغيراً».(١) وقد قتلوا في اليوم الأول اثنين من خدم الأمير وفي اليوم الثاني جندياً واحداً، عندما وردوا للاستسقاء من هذه المياه. بعد ذلك تقدّمت مجموعة من عسكر الأمير محاولة استخدام المياه، فمنعها المقاتلون النابلسيون، فنشبت معركة بينهم وبين المجموعة التي أنجدها عدد من جنود الأمير من دون تلقي أي أمر بذلك، لأن الأمير لم يكن يرغب بتوسيع رقعة هذه المناوشات. ولما علم الشيخ ناصيف بو نكد بذلك، نهض لتوّه، ومعه حوالى مائتي مقاتل من دير القمر وباقي المناصف، ونهض أيضاً الشيخان حسين وفارس تلحوق بنحو مائة من رجالهما، وهجموا جميعاً على القوم المجتمعين في مرج عجة. أسفرت المعركة عن هزيمة النابلسيين وفرارهم إلى القرية، فطاردوهم وحاصروهم فيها، لكنهم تمكنوا من التسلل إلى خارجها فدخلها اللبنانيون وأضرموا النار في منازلها وألقوا القبض على من تبقى منهم بداخلها. بعد ذلك طاردوا الفارين وقتلوا العدد الكبير منهم وذبحوهم كالخراف. كانت الحصيلة ٦٩ قتيلاً و١٤ أسيراً من أهالي نابلس بينهم بعض المشايخ من بني الجرار، و١٤ قتيلاً من عسكر الأمير بشير. وقد أرسل الأمير الرؤوس والأسرى إلى الوالي

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٠٣.

في عكا الذي بعث له بكتاب تهنئة ومديح[١].

بعد الإنتصار في عجة، طارد رجال الأمير ورجال الوالي، المهزومين في مقاطعة نابلس. وكان في نيتهم أيضاً النهب والسرقة، فخشي الأمير من وقوع الفتنة، فوجه بطلبهم الأميرين بشير ملحم وعبد الله حسن فأدركاهم عند قرية «كفر راعي» حيث احتدمت المعركة من جديد بين الخصمين، فالتجأ النابلسيون إلى داخل القرية فدخلها رجال الأمير وأضرموا النار فيها فقتلوا منهم ١٦ رجلاً، ثم التهى المهاجمون بنهب القرية وسرقتها الأمر الذي سمح للنابلسيين من الرجوع إليهم ومهاجمتهم وإجبارهم على الفرار منها بعدما قتلوا ١٧ رجلاً[٢].

في هذه الأثناء وجّه الأمير بشير ابنه الأمير خليل والشيخ ناصيف بو نكد لغزو قرى وبلدات نابلس وإضرام النار فيها. فهرب الأهالي من أمامهم، لكنهم سرعان ما عادوا وراحوا يستسلمون للأمير ظرافات ووحداناً.

٦٤ - *سقوط حصن سانور*:

دام حصار هذا الحصن حوالى الثلاثة أشهر. وقد بلغ مسامع المدافعين عنه ما وقع لأهالي نابلس وقراها من مجازر دموية وحرق منازل وصعوبات جمة مادية ومعنوية، فأصيبوا بالذهول وخيبة الظن، فيئسوا من متابعة المقاومة، خاصة وأن الحصار كان يشتد أكثر فأكثر، وبدأوا يفتقرون إلى الأرزاق والمياه، وارتفع عدد القتلى والجرحى والمرضى، ودمّرت قذائف المدفعية العدد الكبير من المتاريس والحواجز والأمكنة السكنية[٣]. وقطعت الهزيمة التي مني بها أنصارهم وحلفاؤهم النابلسيون كل أمل بوصول النجدات إليهم، فقرروا الاستسلام شرط أن يخرجوا مع عائلاتهم وممتلكاتهم. وكان والي عكا في هذه الأثناء، قد استدعى

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٠٣.
- باز، مذكرات، ص٢٨.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٠٤.
(٣) الشهابي، ج٣، ص٨٠٩.

إليه مشايخ نابلس الذين تعهدوا له بدفع الأموال الوافرة كنفقة للقوات التي تقاتل في مدينتهم[1]. فسلمهم كتاب الأمان لأهالي نابلس وبني الجرار وأسعد بك طوقان «مهيّجهم». وقد وضع المشايخ أولادهم «رهنا» عنده[2].

وافق الأمير بشير على خروج المحاصرين من الحصن، وفق الشروط المتفق عليها. وفي السادس من نيسان ١٨٣١، وكان قد مضى ثلاثة أشهر على بدء الحصار، ابتدأ مقاتلو آل الجرار يخرجون من الحصن مصحوبين بعائلاتهم وأموالهم وممتلكاتهم، وقد اختاروا ثلاث قرى في مقاطعة نابلس ليسكنوها هي: الجبّه وطلّوزا وعسيرا. وقد أرسل الأمير بشير ابنه الأمير خليل مع قوة من رجاله للمحافظة على هؤلاء أثناء انتقالهم إلى قراهم الجديدة[3].

بعدما أصبح الحصن خالياً من ساكنيه أصدر الوالي أمراً بهدمه نهائياً، فهدم ولم يبقَ فيه حجر على حجر.

عند بدء الحصار كان عدد المقاتلين في داخله حوالى /١٢٠٠/، فلم يخرج منهم سوى ٣٦٧ رجلاً، فالعدد الباقي قتل أو هرب منه[4].

بعدما دُمّر الحصن، ألبس الوالي مدافع قواته جوخاً أحمراً للدلالة على أنها هي التي فتحته وقضت على المدافعين عنه.

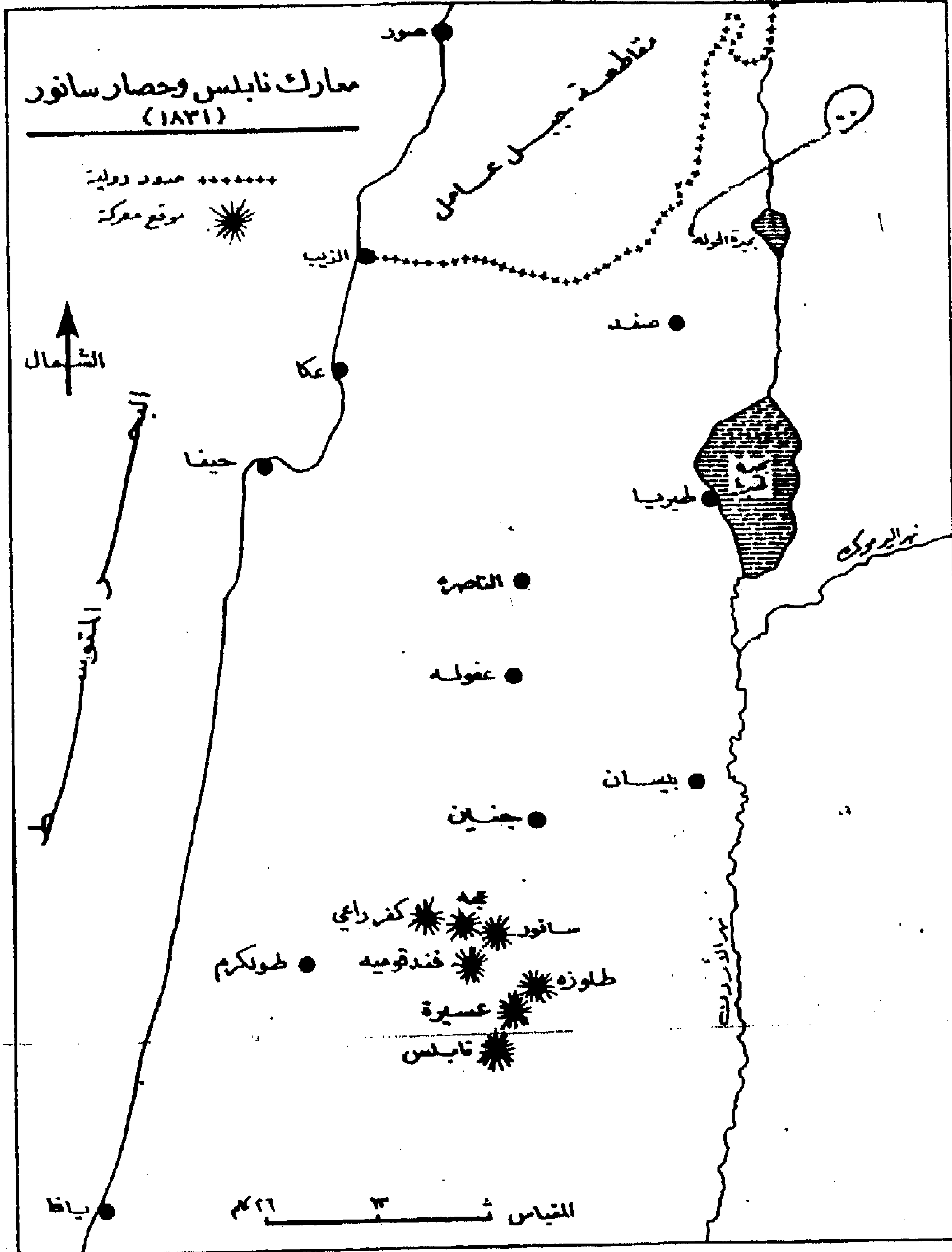
أرسل عبد الله باشا هدايا متعددة إلى الأمير وقادته وهنأهم على شجاعتهم وإقدامهم. طلب الأمير بشير من الوالي السماح له ولقواته بالمرور في عكا، أثناء عودتهم إلى الديار اللبنانية، فلم يوافقه ذلك بسبب مرض الطاعون المتفشي في المدينة.

رجع الأمير إلى عاصمته بتدين والغيظ يختلج بداخله أولاً لأن الباشا كان قد بث الدعاية في بلاد الشام أن سقوط حصن سانور، تمّ بفضل مدفعيته، وثانياً لأن الوالي رفض أن يستقبله في عكا[5].

(١) المبلغ كان سبعة آلاف كيس، منح ألفين منها إلى الأمير بشير. إسماعيل، ج٥، ص١٩٢.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٠٤.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٢٠٥.
(٤) المعلوف، دواني القطوف في تاريخ بني معلوف، المطبعة العثمانية بعبدا ١٩٠٧، ص٢٣٩.
(٥) الشدياق، ج٢، ص٣٠٥.

الخريطة رقم ٤

معارك الأمير بشير شهاب الثاني في نابلس وحصاره قلعة سانور (١٨٣١)



الفصل الخامس

الحملات العسكرية للأمير بشير الثاني الكبير في ظل الحكم المصري لبلاد الشام (١٨٣١ - ١٨٤٠)

١ - توطئة

تعتبر حقبة الحكم المصري في بلاد الشام من المحطات البارزة في تاريخ لبنان خلال القرن التاسع عشر في شكل خاص، وفي تاريخ بلاد الشام العثماني في شكل عام. ذلك لأن الحملة المصرية هذه جرت حوادثها في مرحلة الانهيار العام للسلطنة العثمانية في منطقة، اعتبرت لمدة طويلة الجزء الأكثر أهمية في الإمبراطورية العثمانية.

إن ضعف السلطنة العثمانية في بلاد الشام ظهرت ملامحه قبل الحملة المصرية هذه بزمن طويل. ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهرت حركات تمرد وعصيان عدة، منها حركة علي بك الكبير وحركة ظاهر العمر في فلسطين. لكن هذه الحركات لم تعش طويلاً، كما لم تؤتِ ثمارها الاستقلالية بسبب عدم مبالاة السكان لخوفهم المتنامي من مظالم الأتراك من جهة وتمكن الباب العالي من القضاء على زعماء تلك الحركات.

كان الباعث الأساسي لهذه الحركات طموح بعض الولاة في الداخل إلى المزيد من السلطة والنفوذ، ليس إلاّ. فالنزعة الاستقلالية لم تكن متأصلة بعد، لا في نفس الوالي ولا في نفس رعايا السلطان. لقد كان التأييد الداخلي لهذه الحركات محدوداً واقتصر على تأييد بعض المقاطعجيين لأسباب شخصية تكوكبت حول إطار الصراع المحلي التقليدي الذي كان مستشرياً بين المقاطعجيين في ذلك الحين. فالناس، كل

الناس، كانت تخشى بطش الدولة العثمانية ومظالمها غير المحدودة، فيما لو سولتها نفسها الخروج عن السلطنة. وكان الولاء التقليدي للسلطان العثماني كرمز للسلطتين الدينية والزمنية معاً. لذلك كنا نرى أن أي مشروع لكيان مستقل عن السلطنة في هذه البلاد، كان مشروعاً فاشلاً لأنه لن يحظى بدعم سياسي كافٍ من القوى السياسية المحلية، ذاك أن الوعي القومي كان معدوماً آنذاك على كل المستويات.

إن حركة محمد علي باشا كانت كبيرة وواسعة لكنها لم تشذّ عما قلناه سابقاً. لقد أدّى عزيز مصر في مطلع حياته السياسية والعسكرية خدمات جلى للسلطنة العثمانية سواء في حرب الموره أو في الحرب ضد الحركة الوهابية، وكان ينتظر مكافأة من السلطان العثماني على خدماته هذه بولاية تتعدى حدود مصر والسودان. لقد حاول محمد علي الحصول على هذه المكافأة، بإعطائه بلاد الشام والبلاد العربية كلها، برضى من السلطان نفسه وموافقته. غير أن إخفاقه في تحقيق هذه الأمنية سلمياً دفعه للاستيلاء عليها بالقوة، فكانت حملته الشهيرة على بلاد الشام التي أثارت حفيظة الدول الأوروبية الطامعة «بتركة الرجل المريض» بعد موته. فإنكلترا خافت على طريق الهند كما خافت بروز سلطنة فتية على أنقاض سلطنة عجوز بانتظار وفاتها لترثها، رغم أنها، أي إنكلترا، كانت تعطيها بين الحين والآخر، الأدوية والعقاقير المنشّطة لإبقائها حيّة من دون حراك، حتى الوقت الذي تراه هي مناسباً حسب مصالحها، لتغمس السكين في نحرها. أما فرنسا فمصلحتها تأييد ومساعدة محمد علي باشا للقضاء على المصالح الإنكليزية في بلاد الشام ولقطع طريق الهند مهما كلف الأمر... إنها مصالح الدول، تارة تلتقي وتارة تتباعد أو تتنافر.

٢ – الهجوم المصري على بلاد الشام (تشرين الأول ١٨٣١)

٢١ – *الجيش المصري عشية الهجوم:* عشية الحملة العسكرية على بلاد الشام بلغ عديد الجيش المصري حوالى السبعين ألف رجل، ينضوون في ١٨ فوج مشاة و٨

أفواج خيالة وفوج مدفعية ووحدات نقل وخدمات، عدا عن وحدات البحرية[(١)].

وقد تألف جيش الحملة من الوحدات التالية:[(٢)]

- ٥ أفواج مشاة (٨-١٠-١٢-١٣ وفوج الحرس).
- ٤ أفـواج خـيـالـة (٣-٥-٦-٧ مـن القناصة الرماحة).
- فوج مدفعية مؤلّف من ٤٠ مدفع ميدان و٢٠ مدفع حصار و١٠ هواوين.
- ٤٠٠ رجل لجرّ المدافع.
- ١٢٠٠ خيال من البدو مدرّبين جيداً وحذقين.
- ١٠٠ جمـل وضـعـت بتصرف كـل فـوج لـنـقـل الـعـتـاد والأرزاق والـمـيـاه. (رتل اللوجستية العملانية).

بـعـد سـقـوط مدينة عكا بيد القوات المصريـة، أرسـل محمـد عـلي باشا لابـنـه إبـراهـيـم كـل مـا عـنـده مـن المقـاتـلين والذخيرة، ولم يترك في مصر سوى العدد الضروري فقط. والوحدات التي أرسلها هي:

- ٣ أفواج مشاة جديدة (٥-١٨-٢٠).
- فوج الخيالة الثامن.
- ٣٠٠٠ خـيـال بـدوي مع أسـلـحـتـهـم وخيولهم[(٣)].

في شباط ١٨٣٢، كان بإمرة إبراهيم باشا في بلاد الشام حوالى أربعين ألف مقاتل موزعين على الشكل التالي:[(٤)]

- ٧ أفواج مشاة.
- ٦ أفواج خيالة.
- ٨٠ قطعة مدفعية من بينها ٣٨ قطعة حصار.

وكان الأسطول المصري، في بداية الحملة، يضم: ٢٣ سفينة حربية منها: ٧ فرقاطات و٦

---

(١) Weygand, Maxime, Histoire militaire de Mahomet Aly et ses fils, Imprimerie , Nationale 1936, Vol 2, p12-13-14.

- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٦١.

(٢) Weygand, Ibid, p13-14.

(٣) مماثل، ص٣٢.

(٤) مماثل، ص٢٠.

غرابات (Corvettes) و٣ مراكب ذات صارين، و٧ زوارق مدفعية وغيرها من النقالات الصغيرة[١].

انطلقت الحملة المصرية نحو بلاد الشام في منتصف شهر تشرين الأول ١٨٣١. خمسة عشر ألف رجل من المشاة إلى جانب خمسة آلاف خيال، انتقلوا بطريق البر، وستة آلاف مقاتل، بطريق البحر. أما قائد الحملة، إبراهيم باشا، فقد أبحر على ظهر سفينة حربية في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر فوصل إلى يافا في فلسطين مصحوباً بأسطول صغير[٢].

٢٢ - خطة اقتحام بلاد الشام (تشرين الثاني ١٨٣١):

كان على الحملة المصرية، فور وصولها أمام عكا، أن يستقبل قائدها عشرة آلاف لبناني من رجال الأمير بشير الثاني الكبير[٣]، للمشاركة في فتح بلاد الشام.

قسّم إبراهيم باشا جيشه إلى فيلقين:

- الفيلق الأول، بقيادة اللواء إبراهيم يكن باشا، ابن شقيقة العزيز، وقد كلف بمهاجمة بلاد الشام على محور: بلبيس - الصالحية - فقاطية - بئر العبد - العريش - خان يونس - غزه - يافا وحيفا.

- الفيلق الثاني: بقيادة إبراهيم باشا شخصياً. ومهمته مهاجمة بلاد الشام عن طريق البحر، آخذاً محور الإسكندرية - يافا والوصول إلى حيفا. وقد وصلها في الثامن من تشرين الثاني. وقد نسّق إبراهيم اقتحامه هذا على الشكل التالي: في اللحظة التي يجتاز فيها اللواء يكن باشا، الحدود المصرية الشامية (٢٣ تشرين الأول/أكتوبر)، يبحر الأسطول المصري، ومعه إبراهيم باشا وقوة من ستة آلاف مقاتل ومدفعية جيشه، باتجاه الشاطئ الشامي.

---

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٦٠.
- لامنس، سوريا، ج٢، ص١٥٣.
(٢) ديب، ج٢، ص٢٢٣.
(٣) رستم، ج١، ص٦١.

استطاع اللواء يكن باشا، وبسهولة تامة، اجتياز الحدود والإستيلاء على كل المدن التي مرّ فيها حتى حيفا، بقعة التقاء فيلقي الجيش.

في ٨ تشرين الثاني، تمكّن إبراهيم باشا من القيام بعملية إنزال جيشه على شواطئ يافا من دون أن تعترضه أي مقاومة. لقد أتى أعيان المدينة ووجهاؤها عارضين عليه تسليم يافا من دون قتال. وافق على العرض وأرسل كتيبة من قواته فاحتلتها وكتيبة أخرى احتلت القدس(١). وفيها أيضاً تقبل طاعة شيوخ نابلس وجنين، وعلى رأسهم الشيخ حسين عبد الهادي والشيخ محمد القاسم الأحمد والشيخ عبد الله الجرار، واستمع إلى شكواهم، وثبّت كلاً منهم على إقطاعه. بعد ذلك اتجه إلى حيفا فوصلها في ١٧ منه.

في حيفا، اجتمع جيشه بكامله واعتمد المدينة قاعدة عسكرية، ينطلق منها لإنجاز فتوحاته في بلاد الشام. فابتدأ بالمدينة الأكثر قوة وأسلحة وتحصيناً: عكا، عاصمة الولاية حيث كان يقبع حليفه القديم عبد الله باشا. وما أن وصل أمام أسوارها حتى ألقى الحصار عليها(٢).

٣ – مراحل الإحتلال المصري ودور الأمير بشير (١٨٣١–١٨٤٠)

٣١ – دور الأمير في حصار عكا (١٨٣١–١٨٣٢):

في العشرين من شهر تشرين الثاني العام ١٨٣١ توجّهت طلائع الجيش المصري إلى قلعة عكا، المعدودة، من الوجهة العسكرية، مفتاح إقليم الشام وحلب، فحاصرتها من كل الجهات براً وبحراً(٣). وكانت عكا بلدة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها بضعة آلاف نسمة(٤)، تدافع عنها قوة عسكرية قدّرت بحوالى الثلاثة آلاف مقاتل. كانت مدينة

(١) رستم، ج١، ص٦١.
(٢) رستم، مماثل، ص٦١–٦٢.
(٣) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٦٢.
– فريد بك محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار النقاش، ط٢، بيروت ١٩٨١، ص٤٤٩.
(٤) رستم، مماثل، ص٦٢.

صعبة المنال بسبب أبراجها المسلحة وأسوارها الشاهقة، المسورة من جهة البر بخنادق تمنع تقدم المشاة.

قبل الشروع بالتقدّم إلى عكا، وعندما كان لا يزال في حيفا، اتصل إبراهيم باشا بالأمير بشير طالباً منه الالتحاق بصفوفه. تردّد الأمير قبل أن يأخذ القرار النهائي، وشرح للقائد المصري أن سبب التأخر بالالتحاق، هو «قطع دابر الفساد الذي كان يدبّ بين الناس من جراء تواتر الأخبار عن قدوم العساكر المنصورة وجسّ النبض في جميع البلاد قبل القيام منها إلى عكا». وطلب الأمير إصدار مرسوم شريف بحضوره لغاية في نفسه يفصح عنها لدى وصوله «شفهياً... »[1]. فأمر إبراهيم بإصدار هذا المرسوم.

ما ان علم العزيز بتردد الأمير في مساندة ابنه إبراهيم، حتى كتب له آسفاً لعمله هذا ويتوعده بأنه إذا «أحجم بعد وصول هذا الكتاب إليه، عن الانضمام إلى إبراهيم باشا فإنه سيجرّد عليه قوة كبيرة تدك دياره دكاً وتخرّب مساكنه ويغرس موضعها تيناً[2]. ويقطع دابر الدروز قطعاً».

لقد حاول الأمير أن يقف على الحياد كما فعل أيام وصول بونابرت إلى عكا. والواقع أن بشيراً كان لا يزال مخلصاً للعزيز، إذ أنه كان قد نصح عبد الله باشا بالرضوخ لمحمد علي، وأشار على الشيخ حسين عبد الهادي بوجوب ملاقاة المصريين والسير أمامهم على عكا مضيفاً إنه لدى وصولهم إليها ينزل هو أيضاً على عكا[3].

ومهما يكن من الأمر فالأمير بشير، ما أن تسلم المرسوم الذي طلبه من إبراهيم باشا، حتى قام من قصره في بتدين على رأس مئة فارس إلى عكا، متخطياً ضغوط السلطات العثمانية عليه للبقاء على ولائه للسلطان

---

(١) رستم، مماثل، ص٦٣.

(٢) رستم، المحفوظات المصرية، ج، ص١٣٥.

– الشدياق، ج٢، ص٢٠٦.

(٣) مشاقه، الجواب على اقتراح الأحباب، ص٢٢٣.

بعدما كلف ابنه الأمير أمين بتسيير أمور الحكم في إمارته.

استقبل القائد الأعلى الأمير بالترحاب والموسيقى وإطلاق البارود وأدخله بموكب عظيم وأنزله في خيمة قرب خيمته والتقاه أحسن لقاء وكتب إلى والده يخبره بحضور الأمير(١) وطاعته. لم يطل الوقت حتى تسلم الأمير مرسوماً يعيّنه حاكماً على بر الشام ويبقي لإبراهيم باشا قيادة الجيوش. اعتذر الأمير عن عدم مقدرته على قبول هذا المنصب الكبير.

لم يلعب الأمير بشير أي دور في العمليات العسكرية في حصار عكا، إنما اشترك بالمفاوضات الدبلوماسية التي كانت تجري بين إبراهيم باشا وعبد الله باشا خلال الحصار.

لقد حثّ محمد علي ابنه إبراهيم للاستيلاء على عكا بأسرع ما يمكن، مذكّراً إياه «إن الحرب خدعة»، وعليه أن يستدعي مدبر عبد الله باشا ويتركه مع الأمير بشير وبربر آغا، في خلوة مع بعضهم، لعلهما يستطيعان، بالكلام المعسول والملاطفة، التوصل إلى تسليم عكا سلماً وخضوع الوالي للعزيز.(٢)

نفذ إبراهيم باشا نصيحة والده واستدعى مدبر الوالي الذي وصل بعد طول عناء واجتمع مع الأمير بشير في خيمته. بعدها اصطحبه الأمير إلى خيمة القائد العام الذي أبلغه أن ولاية صيدا قد ربطت بمصر وعليه إبلاغ هذا الأمر إلى الوالي عبد الله باشا، وأن يعرض عليه الخروج من عكا للذهاب إلى الديار المصرية أو الالتحاق بإبراهيم باشا ليعمل معه كأخ كريم، وعلى باشا عكا اختيار أحد الحلين المناسب له، وهكذا نتحاشى هدر دماء المسلمين.

انتهت المفاوضات بالفشل الذريع، لأن والي عكا لا يثق بكلام إبراهيم باشا إطلاقاً، ولأنه لم يصله أي فرمان من السلطنة تعلمه أن ولاية صيدا ضمت إلى مصر، هذا أولاً. وثانياً، «إننا لم ننهزم حتى نستسلم... وإننا

---

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٠٦.

(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج١، ص١٦١.

سنرد الصاع صاعين، وإن المعركة بيننا ستكون الحد الفاصل»[١].

دام حصار عكا ستة أشهر وأسبوع واحد، بعدها سقطت بيد المصريين في ليل ٢٧-٢٨ أيار ١٨٣٢[٢]، عندما خرج عبد الله باشا، يرافقه مدبره خورشيد بك واللواء المصري سليم الذي، أرسل خصيصاً لمصاحبة الوالي إلى خيمة السرعسكر إبراهيم باشا الذي طلب منه «أن يقدم حساب خزنته وأن يسلم أمواله».

ويُقال إن العزيز كان يطمع بصندوق عبد الله باشا وما حواه من المال، وإن المال المخزون في هذا الصندوق بلغ ٣٠ مليوناً من الفرنكات الفرنسية وإن الاستيلاء عليه كان من أهم أهداف الحملة على بلاد الشام[٣].

خسر المصريون في معركة عكا أربعة آلاف ما بين قتيل وجريح، ووقع منهم في أثناء الهجوم الأخير ٥١٢ قتيلاً و٤٢٩ جريحاً. وتوفي في أثناء الحصار من جراء الأمراض حوالى الألفي رجل. أما خسارة عسكر عكا فلم تتجاوز الألف.[٤]

«وضع إبراهيم باشا يده على مخازن حامية عكا، فوجد فيها كميات كبيرة من البارود والقنابر والقمح والذرة والأرز والعدس تكفي حاميتها مؤونة سنتين كاملتين».[٤]

بعد سقوط عكا بيومين فقط طمأن العزيز الباب العالي بواسطة وكيله في الأستانة محمد نجيب أفندي، مؤكداً ولاءه وإخلاصه للذات الشاهانية ... وإنه يلتمس إلحاق بر الشام بمصر... وفي حال عدم القبول يكون قد استولى عليها[٥]. أما عبد الله باشا فقد نقل أسيراً إلى الإسكندرية بعدما أعطى الأمان على نفسه وعياله[٦].

---

(١) رستم، المحفوظات الملكية، ج١، ص١٦٩.

(٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٧٥-٧٦.

(٣) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٥٨-٧٦.

(٤) رستم، مماثل، ص٧٦-٧٧.

(٥) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٣.

(٦) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٢٠.

٣٢ - دور الأمير في الدفاع عن طرابلس (آذار/مارس ١٨٣٢):

في الوقت الذي كان إبراهيم باشا يدك قلعة عكا بمدافعه، كان السلطان العثماني يصبّ عليه فيضاً من اللعنات وسيلاً من الفتاوى الشرعية والدينية. ثم عيّن حسين باشا قائداً عاماً للجيش العثماني المتجه لقتال عسكر العزيز وولاّه حكومة مصر وجزيرة كريت والحبشة وتوابعها، بعد أن عزل محمد علي وابنه، فرد العزيز باستصدار فتوى من شريف مكة بتكفير السلطان(١).

لم يكن العزيز غافلاً عما يجري في بلاد الشام أثناء عملية حصاره مدينة عكا، فقد عيّن الباب العالي عثمان باشا والياً جديداً على طرابلس التي كانت في تلك الأثناء بيد مصطفى آغا بربر، أحد حلفاء محمد علي. وكان فيها حامية مصرية.

وصل عثمان باشا إلى حلب قادماً إلى ولايته، وباشر بتكوين جيش يقتحم به طرابلس، فكتب إلى الأمير بشير يحثّه على العودة إلى صفوف أنصار الدولة العلية في قتالها ضد العزيز. وقد دبّج كتابه بعبارات الصداقة والمديح والثناء والمحاباة. ولديه الثقة التامة بأن الأمير سوف لن ينفصل عن الدولة مهما كان الثمن، واعداً إياه بأن الحكومة العثمانية ستحقق له كل رغباته(٢).

إن تعيين الوالي الجديد على إيالة طرابلس اعتبره العزيز تحدياً غير مقبول، فطلب من إبراهيم باشا أن يطرده في حال وصوله(٣). حينئذ أنشأ إبراهيم باشا ديواناً استشارياً برئاسته وعضوية كل من الأمير بشير والمعلم يوحنا البحري، وعثمان بك. وبعد دراسة معمقة للوضع العسكري قرر الديوان ما يلي:

- إنشاء فيلق عسكري يضم قوة من المشاة والمدفعية والخيالة، ينطلق إلى مرج ابن عامر وإلى القدس للقضاء على كل معارضة تقوم ضد السلطات المصرية هناك.

(١) أبو عز الدين، ص٨٠.
(٢) رستم، المحفوظات، ج١، ص١٩١ ١٩٤.
(٣) رستم، تماثل، ص١٧١.

- إنشاء قوة عسكرية تضم حوالى ألف وخمسماية مقاتل بإمرة الأمير خليل، ابن الأمير بشير، تنطلق إلى طرابلس لمساندة حاميتها لرد عثمان باشا إذا حاول الدخول إلى المدينة.

- تعزيز حاميتي بيروت وطرابلس ببولوكين للأولى وخمسة للثانية.

- إعداد قوة خاصة بقيادة القائد العام نفسه لمساندة حامية طرابلس فيما لو حاول الوالي الجديد دخول المدينة عنوة.

- إعداد قوة بقيادة الأمير أمين ابن الأمير بشير، بغية احتلال دمشق إذا أعلنت الدولة العثمانية الحرب ضد محمد علي باشا[1].

- تعيين حكام القدس ونابلس وبيروت وبقية القصبات لإدارة هذه المقاطعات باسم إبراهيم باشا.

- تكليف الأمير بشير إدارة البلاد الشامية باسم إبراهيم باشا، وضم التحريرات والأوراق والتبليغات بختم السرعسكر الخاص، لأن الأمير كان على بينة تامة بقضايا بر الشام وحال سكانه ومشاكلهم التفصيلية[2].

ولوضع هذه المقررات قيد التنفيذ طلب الأمير من إبراهيم باشا السماح بعودة ابنه الأمير خليل إليه من عكا، ليكلفه بالمهمة المطلوبة. عاد الأمير خليل إلى الشويفات وجمع جيشاً من الأنصار «وأكثرهم من النكديين والتلاحقة وعبد الملك، وآل الخازن وآل حبيش»، قوامه حوالى /١٥٠٠/ رجل وسار به إلى طرابلس[3]، وقد عاونه في القيادة المشايخ: حمود بو نكد، حسين تلحوق ويوسف عبد الملك، كل على رأس رجاله. وبوصول جيش الأمير خليل، تجاوز عدد الحامية الستة آلاف مقاتل.

نهض عثمان باشا من حلب على رأس بضعة آلاف من المقاتلين، ولدى وصوله إلى

(١) رستم، المحفوظات، ج١، ص١٧٣-١٧٧.
- سويد، ج٢، ص٧٨٤.
(٢) رستم، المحفوظات، ج١، ص١٨٩.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٢٠٦-٢٠٧.
- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٦٩.

اللاذقية، أرسل كاخيته إلى بلاد عكار لاستدعاء الأهالي للالتحاق به، وتابع سيره نحو طرابلس، وعسكر في بلدة المنية القريبة. ومن هناك كتب إلى ضباط الحامية يحثهم على التمرد ضد إبراهيم باشا والخضوع لأوامر الدولة العلية. كما كتب بمثل هذا إلى مصطفى بربر آغا، ثم نهض إلى طرابلس فوصلت طلائع جيشه إلى أبواب المدينة[1].

أ - المعركة (٣١ آذار ١٨٣٢):

وصلت مقدمة الجيش العثماني إلى أسوار طرابلس، فخرج إدريس بك قائد الفوج ١٨ لملاقاتها بكتيبة من قواته. نشبت المعركة بين الخصمين وتظاهر العثمانيون بالهزيمة فتراجعوا، فلاحقهم إدريس بك إلى السهل الواقع خارج المدينة نحو شمالها الشرقي. وعندما أصبح بعيداً عن الأسوار، استدارت القوات العثمانية نحوه فجأة فصدمته بقوة، مما اضطره إلى التراجع على أعقابه، تاركاً عدداً كبيراً من الرجال صرعى على أرض المعركة. «عندئذ تجرأ عثمان باشا وتقوى قلبه فهاجم طرابلس بقواته في ٣١ آذار»، ثم راح يبني تحصينات على تلة مواجهة للمدينة.

لم يسمح الأمير خليل لعثمان باشا باجتياز الأسوار ولا بالتمركز بمواجهتها، فخرج برجاله وهاجم الخيالة المنتشرة في السهل فانتصر عليها ثم عاد إلى الأرناؤوط وجرفهم بطريقه عن التلة وتغلب عليهم، وجدّ في أثرهم حتى البداوي في شمالي المدينة، ثم عاد إلى طرابلس[2].

أسفرت المعركة عن خسارة العثمانيين لحوالي ٣٠ رجلاً، من بينهم شيخ صافيتا الذي كان برفقة عثمان باشا. ولم يفقد الأمير خليل سوى خمسة قتلى[3]. ويروي القائم بالأعمال القنصلية الفرنسية في بيروت آنذاك السيد جورال أن «المشاة

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٧٠.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٠٩.
(٣) إسماعيل، المحررات، ج٥، ص٢١٢-٢٢١.

المصريين قد خسروا أثناء هذه المعركة حوالى /٢٠٠/ بين قتيل وجريح».

ما ان علم إبراهيم باشا بأخبار معركة طرابلس حتى نهض على رأس قوة من عشرة آلاف مقاتل (فوج الحرس وفوج الخيالة السابع) بحوزتهم ستة مدافع، فوصل إلى البترون في ١٨٣٢/٤/٧[1] وبات فيها تلك الليلة. وما أن تحقق عثمان باشا من وصول خصمه إلى هناك حتى استولى عليه الذعر وترك خيامه وجرحاه وكمية كبيرة من الذخائر وفرّ شمالاً[2]. تابع إبراهيم تقدمه حتى وصل إلى طرابلس فدخلها بقواته وكلف الأمير عبد الله شهاب بالذهاب إلى المنية لضبط مخلفات عثمان باشا من عتاد كان قد تركه في معسكره وجدّ في إثره إلى حمص. ولدى وصوله إليها، تقبّل طاعة أهلها وعلم أن طلائع الجيش العثماني كانت قد وصلت إلى حماه. فصمم على ضربها ضربة حاسمة، ولكنه عاد فآثر التراجع إلى بعلبك ليكون أقرب إلى القاعدة اللوجستية التي كان قد أنشأها في زحلة وأقام على حراستها قوة من العسكر اللبناني بقيادة الأمير قاسم نجل الأمير بشير.

٣٣ - دور الأمير في قمع عصيان الشوف (نيسان ١٨٣٢):

استطاع والي حلب محمد باشا تحريض أعيان ومشايخ الشوف للقيام بتمرد ضد الأمير بشير وحليفه المصري محمد علي باشا. وقد أصغى إليه بعض من التجأ إلى معسكره من زعمائها، كأولاد الشيخ بشير جنبلاط والشيخ أسعد بو نكد وغيرهم من دروز المتن. ثم وقع هذا الوالي مرسوماً عيّن بموجبه الشيخ نعمان بشير جنبلاط شيخاً على مشايخ الشوف، وأوكل إليه حكومة جبال الشوف وكسروان مكان الأمير بشير، نظراً لخيانته الدولة العلية «صانها رب البرية». وهذا المرسوم كان ثمرة الاتفاق بين والي حلب ووالي عكا، ويبدو أنه كان له كبير تأثير

(١) رستم، مماثل، ج١، ص٧٠.

(٢) رستم، مماثل، ص٧٠.

في الشوف. فالعدد الكبير من الأعيان، وخاصة الدروز منهم، أسرعوا وقدّموا ولاءهم للسلطان العثماني، بواسطة رسائل رفعوها إلى والي حلب، وتناقلوها فيما بينهم. وقد عدّد أمين سر إبراهيم باشا، يوحنا البحري، ستة منها(١).

يبدو في مضمون هذه الرسائل أن الدروز لم يكونوا مقتنعين أو راضين عن التحالف ما بين الأمير بشير وعزيز مصر وقد عبّروا عن حسن نيتهم تجاه الدولة العثمانية وبأنهم جاهزون لضرب هذا التحالف. وقد ثاروا فعلاً ضد الأمير وحلفائه معبّرين عن خضوعهم وطاعتهم للدولة العلية. هذا الانحياز إلى والي حلب ضد الأمير بشير أدّى إلى وقوع مصادمات بين بعض الدروز وبعض النصارى في دير القمر والمتن وزحلة(٢). وصلت أنباء هذه المصادمات إلى مسامع الأمير بشير في عكا وإبراهيم باشا في بعلبك(٣). فكتب الأمير إلى هؤلاء يتهددهم. ورأى أن يستغل وجود إبراهيم باشا وجيشه في البقاع فقام من عكا إلى بتدين وأرسل عوضاً عنه الأميرين ملحم حيدر وفاعور قعدان الشهابيين(٤)، ذلك لأن الأمير الكبير كان لا يرغب بدخول الجيش المصري إلى الشوف والمتن بحجة وجود الثوار، فيحصل الخراب والدمار في الحجر والبشر. إنما إبراهيم باشا قام على رأس قوة مصرية إلى دير القمر وأنزلها في دور النكديين فوقع الرعب في قلب «المعارضين وجاءوا إلى بتدين مستسلمين طائعين»(٥).

ترك إبراهيم باشا بتدين إلى زحلة وكتب إلى الأمير ان يرسل بعض وجوه المعارضة، مع ابنه الأمير قاسم إلى عكا، فأرسل الأمير من اللمعيين الأمير سعد الدين مراد والأمير

---

(١) رستم، المحفوظات، ج١، ص٢٥٧-٢٦٠٢.
(٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٧١.
(٣) رستم، المحفوظات، ج١، ص٢٨٤.
(٤) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٧١.
(٥) الشدياق، ج٢، ص٢١٠.

بشير قايدبيه ثم أرسل الأمير أمين أرسلان والشيخين حسين تلحوق ويوسف عبد الملك. وأمر إبراهيم باشا بمداهمة منازل الأمير بشير الشهابي الصغير والأمير سلمان سيد أحمد والأمير حسن أسعد الشهابي لأنه قد بلغه أنهم سينهضون لملاقاة الجيش العثماني[١]. كل هذه الأمور التي حصلت والتدابير التي اتخذت، لم تمنع عدداً من النكديين ورجالهم من الفرار إلى حمص ومعهم الشيخ محمد القاضي، ومن القتال مع الجنبلاطيين والعماديين هناك إلى جانب الدولة. فأمر إبراهيم باشا بهدم دور الذين توجهوا إلى حمص، فنفذ أمره في كل من دير القمر وكفرنبرخ والمختارة[٢] في الشوف.

وبعد أن أمن شر المعارضة في لبنان على هذا الشكل، قام القائد العام المصري إلى بعلبك ينظّم حاميتها ليلهي بها العثمانيين عن عكا، وقد كان بحوزته هناك اربعة أفواج مشاة وفوج خيالة و٣ بطاريات مدفعية.

٣٤ - دور الأمير في عملية الاستيلاء على دمشق (حزيران ١٨٣٢):

بعد سقوط عكا لم يعد أمام القوات المصرية أي عوائق على الإطلاق لمتابعة التقدم. وقد حدد العزيز لولده خطة هذا التقدم بكل تفاصيله، تاركاً له الخيار بين الانطلاق نحو حمص حماه وحلب أو المباشرة باحتلال دمشق مركز الولاية[٣].

جمع القائد الأعلى مجلسه الاستشاري المؤلف من الأمير بشير وقادة جيشه للتداول في شؤون الساعة وأخذ الخيار الملائم بالنسبة للخطة العسكرية. بعد ذلك جمع المجلس الاستشاري الآخر المؤلف من الأمير بشير وحكام حاصبيا وراشيا. وبعد التداول والمناقشات المستفيضة في كلي المجلسين أجمعت الآراء على الشروع بالاستيلاء على دمشق أولاً، ومن ثم التقدم شمالاً لملاحقة الأعداء. بعدها كتب إبراهيم باشا إلى والده شارحاً له الخطة المعتمدة، وإنه بانتظار الجواب

(١) الشدياق، ج٢، ص٢١٠.
(٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٧٢.
(٣) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٥.

للمباشرة بالتنفيذ الفوري[1]. وافق العزيز على الخطة وأعطى الأمر بالنهوض باتجاه دمشق لتحريرها وتطهيرها[2].

كان العزيز يثق بالأمير بشير وثوقاً تاماً في ما يخص بلاد الشام ومشاكلها. وكثيراً ما كان يطلب من السرعسكر إبراهيم باشا، الاستماع إلى هذا الأمير الحكيم بشؤون منطقته وشجونها[3] وأخذ رأيه باستمرار.

أ - المعركة (١٣ حزيران ١٨٣٢):

في ٩ حزيران ١٨٣٢، قسّم السرعسكر جيشه إلى ثلاث مجموعات:

- الأولى: بقيادته الشخصية وتتألف من ٩ آلاف مقاتل نظامي و٣ آلاف فارس من البدو. تنطلق من عكا نحو الرامه - جسر بنات يعقوب - القنيطرة - خان سعسع ومنها إلى داريا بالقرب من دمشق.

- الثانية: بقيادة الأمير بشير وتتألف من بضعة آلاف من رجاله وأنصاره، يعاونه كل من ولده الأمير خليل والأميرين الأرسلانيين أمين ومحمد[4]. تنطلق هذه المجموعة من بتدين إلى وادي الحرير ووادي القرن، ومن ثم إلى داريا لملاقاة إبراهيم باشا.

- الثالثة: مجموعة الاحتياط العام وتتألف من مجموعتين: الأولى هي الاحتياط القريب تتمركز في بعلبك ويقودها عباس باشا، والثانية الاحتياط البعيد، متمركزة في طرابلس ويقودها حسن بك المناستولي[5].

وكان العزيز، منذ بدء حصار عكا، قد أمر بمفاوضة أعيان دمشق واجتذابهم إلى جانبه فوعدوا، ولكنهم لم يبروا. والواقع إن آغاوات دمشق كانوا، قبل الزحف المصري على عكا، أحرقوا أحد ولاتهم محمد سليم

---

(١) رستم، المحفوظات، ج٢، ص١٤.

(٢) رستم، المحفوظات، ج٢، ص١٥-١٦.

(٣) رستم، المحفوظات، ج٢، ص١٢ و١٨.

(٤) الشدياق، ج٢، ص٢١٢.

- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٧٩.

(٥) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٧٩.

باشا الصدر الأعظم السابق. وكانوا ينتظرون عقاباً صارماً من الدولة العلية، وقد حاولوا مراراً طلب العفو عنهم بواسطة والي عكا عبد الله باشا. وما أن ظهرت طلائع الجيش المصري الزاحف نحو بلاد الشام، تعهدوا للسلطنة بالدفاع المستميت عن «حقوق السلطان»، وفي الوقت نفسه عرضوا خدماتهم على الجانب المصري كي يمسكوا بالحبل من الطرفين. والجدير ذكره أن الأمير بشير كان لا يثق بأحد منهم وقد حذر السرعسكر بذلك(١).

والظاهر أن أهالي دمشق لم يكونوا متحمسين لقتال المصريين، لذلك ذهبت سدى كل الجهود التي بذلها واليها علوش باشا لحثهم على مقارعة الزاحفين نحوهم. في كل حال استجاب لنداء الوالي عدد من مناصب المدينة، مثل محمد جور بجي آغا الذي سلّح أتباعه «ونبّه» على الأهالي أن يتسلحوا ويستعدوا للقتال والكفاح(٢)، فانصاع له البعض وخرج الجميع لقتال المصريين واللبنانيين. وكان عدد الذين نهضوا نحو داريا لا يتعدى /٨٠٠/ فارس وبضعة آلاف من المشاة(٣). أرسل إبراهيم باشا كتيبة نظامية من قواته وسرية خيالة بدوية لمجابهتهم «ففروا هاربين في ظرف ساعة من الزمن»(٤). وفي المساء نفسه، الثالث عشر من حزيران ١٨٣٢، استسلمت المدينة، بعدما هرب واليها علوش باشا والقاضي والمفتي والنقيب ومعظم آغاوات البلد وأعيانها إلى حمص بطريق النبك ودير عطية.

في صباح اليوم التالي (١٤ حزيران) دخل القائد العام إلى مدينة دمشق على رأس فوج الحرس في موكب عظيم، في مقدمته الأمير بشير ورجاله. وحيّت قلعة المدينة دخول إبراهيم باشا بإطلاق نيران مدفعيتها. وبات الجميع تلك الليلة في المرجة خارج دمشق

---

(١) رستم، مماثل، ص٧٨.
(٢) رستم، مماثل، ص٧٩.
(٣) رستم، مماثل، ص٧٩.
(٤) رستم، مماثل.

وفي سرايا الحكومة داخلها. وفي صباح اليوم التالي نودي بأحمد بك ابن الكنج يوسف (الوالي السابق) متسلماً على المدينة يعاونه مجلس «الـمشورة» مؤلف من عشرين عضواً[1]. مثل بين يدي السرعسكر، علي آغا عرمان محافظ القلعة وسلمه مفاتيحها. وعند الظهر قام الباشا لوحده إلى الجامع العمري لحضور صلاة الجمعة «فاحتار العلماء والأئمة باسم من يخطبون: باسم السلطان أو باسم العزيز. فأجابهم الوالي: إنني لا أزال عبداً للسلطان فاخطبوا باسم السلطان وادعوا للعزيز»[2]. وفي اليوم ذاته استقبل الباشا الأعيان الذين كانوا قد بقوا في المدينة وأعطاهم الأمان، وأمر بنفي عدد من أولاد الأعيان الدمشقيين لأنهم نكثوا بتعهداتهم ووعودهم التي قطعوها للسلطات المصرية وفروا مع الوالي. وأبعد من دمشق كل من خشي أمره[3]. وكتب إلى والده يقول «على المصريين ألا ييأسوا من دخول الجنة فالجنة نفسها قد دخلت تحت حكمنا»[4].

٣٥ - دور الأمير في عملية الاستيلاء على حمص (٨ تموز ١٨٣٢):

أ - القوات المصرية:

بعد الإستيلاء على دمشق، تقدم الباشا نحو حمص على ثلاثة محاور:

- المحور الأول: دمشق - القطيفة - النبك - الحسّية - القصير وبعدها حمص. كان إبراهيم باشا يقود بنفسه الرتل المتقدم على هذا المحور، تؤازره قوة من رجال الشوف بقيادة الأمير بشير، وقد شكّل هذا الرتل ميمنة الجيش المتقدم[5].

- المحور الثاني: بعلبك - القصير - حمص. وكان عباس باشا قائداً لهذه القوى

---

(١) رستم، مماثل، ص٨٠.

(٢) رستم، مماثل، ص٨٠.

(٣) رستم، مماثل، ص٨٠.

(٤) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٢٥.

(٥) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٨٣.

التي كانت تشكّل الاحتياط الأول في تلك الناحية أثناء معركة دمشق وقد شكّلت قلب الجيش المتقدم.

- المحور الثالث: طرابلس - القصير، حمص. يقود هذه القوات حسن المناستولي، وكانت تشكّل الاحتياط الثاني في طرابلس.

ب - *القوات العثمانية:*

كان عظيم القوات العثمانية لا يزال في قونيا عندما وصل إلى قائدها العام السردار الاكرم نبأ سقوط عكا. وكانت طلائع هذا الجيش مرابطة في أضنه بقيادة محمد باشا، الذي أمره القائد العام، أن يتقدم إلى إنطاكية ومنها إلى حمص. وصل محمد باشا وأخذ مراكزه قريباً من تلة النبي ماندو المحازية لنهر العاصي، أما بقية الجيش فقد تقدمت إلى إنطاكية.

قدّر عديد القوات المصرية بما فيها قوات الأمير بشير بحوالي عشرين ألف مقاتل. أما القوات العثمانية فقدّر عديدها بحوالي خمسة وعشرين ألفاً منها عشرة آلاف وخمسماية جندي نظامي فقط والعدد الباقي من الخيالة(١).

ج - *الإستعداد للقتال:*

(١) - خطة الدفاع العثمانية:

وصل محمد باشا في ٧ تموز إلى حمص فاستقبله والي حلب بالترحاب وأقام على شرفه الولائم، وبات تلك الليلة مطمئناً ظاناً أن الخصم لا يزال على بعد يومين عنه. ومساء ذلك اليوم علم أن المصريين وصلوا إلى بلدة قريبة جداً من حمص، فقرر الاستئثار بالنصر لوحده من دون مشاركة السردار أكرم الموجود مع قواته بعيداً إلى الوراء في إنطاكية. فدرس خطة دفاعية نفذها في اليوم التالي على هذا الشكل:(٢)

اختار سهل بابا عمرو جنوبي حمص، كمكان لملاقاة عدوه. وقسّم حقل المعركة إلى ثلاثة خطوط دفاعية:

- خط الدفاع الأول: يقع على جانبي طريق دمشق - حمص يستند يميناً إلى نهر

(١) أبو عز الدين، ص٩٥.

(٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٨٢.

العاصي ويساراً إلى تخوم الصحراء. تدافع عنه أربعة أفواج من المشاة.

- خط الدفاع الثاني: يقع وراء الخط الأول. يدافع عنه فوجان من المشاة وفوج من الخيالة، باستطاعتها مساندة قلب الصف الأول وميمنته.

- خط الدفاع الثالث: يقع وراء الخط الثاني، بين العاصي إلى الغرب وقرية مهدّمة على بُعد ألف وثمانماية متر عن قلعة حمص إلى الجنوب الشرقي. تدافع عنه قوات غير نظامية معزّزة بفوج من الخيالة النظامية.

وقد عزّز محمد باشا أفواج المشاة بمدفع واحد لكل منها وأفواج الخيالة بمدفعين اثنين لكل منها، كما ركّز وراء هذه الخطوط الثلاثة، وفي أماكن مختلفة، ٢١ مدفعاً تعمل لصالح الجبهة(١).

(٢) - خطة الهجوم المصري(٢):

في ٧ تموز وصلت القوات المصرية دفعة واحدة إلى بلدة القصير جنوبي حمص، وفي اليوم التالي نظم القائد المصري قواته باتجاه حمص، واضعاً قوات المشاة في الوسط والخيالة على الجانبين طبقاً للجهاز الهجومي التالي:

- في الوسط: في الرعيل الأول: ٣ أفواج مشاة (١٢-١٣-١٨). في الرعيل الثاني: فوجي مشاة (٥-١١) وفوج الحرس.

- في الجناح الأيمن: ٣ أفواج خيالة بقيادة عباس باشا.

- في الجناح الأيسر: ٣ أفواج خيالة بقيادة يكن أحمد باشا.

- الاحتياط العام: فوج المشاة الثامن وقوات غير نظامية من البدو.

- الإدارة واللوجستية: ثلاثة آلاف جمل محملة بالذخيرة والتموين موجودة وراء رعائل القتال، يحرسها رجال الأمير بشير.

- الدعم الناري (٤٣ قطعة مدفعية): ركزت بطاريات مدفعية وراء الرعيل الأول وأربع بطاريات مدفعية مع هواوين وراء الرعيل الثاني.

- مركز القيادة: في وسط الجيش المتقدم.

---

(١) رستم، مماثل، ص٨٢.

(٢) رستم، مماثل، ص٨٣.

د - المعركة:

تبين للقائد المصري أن مسيرة القوات العثمانية كانت خالية من العوائق والموانع الطبيعية مما يسمح للمصريين بضربها أو بالالتفاف عليها، بينما كان من الصعب مهاجمة الجناح الأيمن المستند على العاصي. أمام هذا الوضع قرّر القائد المصري القيام بالمناورة التالية:

- القيام بهجوم تضليلي على الجناح الأيمن للعدو.
- القيام بحركة التفاف على الجناح الأيسر للعثمانيين.
- القيام بهجوم أساسي على وسط عدوه.

نُفّذت هذه المناورات من قبل إبراهيم باشا على الشكل التالي:

- قام الجناح الأيسر المصري بهجوم صاعق على الجناح الأيمن العثماني ليوهمه بأن الهجوم الأساسي سيتم على هذا المحور.

وبينما كان العدو مشغولاً باحتواء هذا الهجوم قامت قوات الوسط بهجوم قوي على وسطه، وفي نفس الوقت قام القائد المصري على رأس مشاته وخيالته ومدفعيته، بعملية التفاف على الجناح الأيسر المعادي، حيث تمكّنت الخيالة من اختراق مراكزه في الخطوط الدفاعية الثلاثة. فاجتازوا القرية المهدّمة وانقضّوا على الخيالة العثمانية، فتراجع عناصرها وتفرقوا في السهل لا يلوون على شيء، واحتلّ المصريون الأرض وراء القرية المذكورة وبينها وبين حدائق حمص(١).

بعد سقوط الجناح الأيسر العثماني اضطر الوسط هو أيضاً للتقهقر، ولم يعطه القائد المصري أي مهلة لتنظيم هجوم معاكس. وقد حاول محمد باشا، القائد التركي، القيام بواسطة خيالته، بهجوم معاكس على الجناح الأيمن المصري، لكن عباس باشا صمد جيداً بخيالته، وتوصّل إلى رد الهجوم وإجبار الخصم على التراجع. وبدوره تراجع الوسط العثماني تحت ثقل المهاجمات والنيران المصرية. وأثناء الليل ترك محمد باشا جيشه

(١) رستم، مماثل، ص٨٣.

باتجاه حمص وفعل مثله القادة الأتراك واقتدى الضباط برؤوسائهم الكبار، فدبّت الفوضى في صفوف الجند فالهزيمة فالذعر(١).

تابع المصريون تقدمهم باتجاه حمص، فدخلوها صباح اليوم التالي (٩ تموز) وكان الأمير بشير مع رجاله في مقدمة الجيش، فكلفه القائد المصري بترتيب أمور المدينة. «فداست خيوله القتلى مسافة ميل في سهل بابا عمرو» واستقر في السرايا، فطلب من القاضي والمفتي أن يعنيا بدفن القتلى. ثم أرسل الأسرى والجرحى إلى عكا بحراسة قوة لبنانية يتقدمها الشيخ حسين تلحوق. وأطلق سراح ٨٠٠ أرمني كانوا في خدمة الأتراك، فتسلمهم مطران الروم الكاثوليك. وقد استولى على كافة العتاد والمعدات التي تركت في أمكنتها في ساحة القتال(٢).

تحدّثت الحوليات يومذاك أن حصيلة تلك المعركة كانت بالنسبة إلى العثمانيين: /٢٥٠٠/ قتيل و/٢٥٠٠/ أسير، يقابلهم من الجهة المصرية /١٠٣/ قتلى و/٧٠/ جريحاً(٣).

وفي تقرير لوالده، فصّل إبراهيم باشا حصيلة المعركة بالنسبة للعدو: /٢٠٠٠/ قتيل و/٢٠٠٠/ جريح و/٣٠٠٠/ أسير والاستيلاء على عشرين مدفعاً وذخائر وخيام لا تعدّ ولا تحصى، وإنه أرسل الجرحى إلى عكا، فصار فتح حمص وحماه بعد انهزامهم... وإنه سيستولي على الممالك بالسيف والمدفع والبنادق حتى اسكودار(٤).

بعد هذه المعركة بقي الأمير بشير في حمص يسيّر أمور الحكومة باسم إبراهيم باشا، بينما تابع هذا الأخير تقدّمه في بلاد الشام فاستولى من دون قتال على حماه وحلب (١٥ تموز) واحتل بيلان (٢٩ تموز) واسكندرون وبانياس وإنطاكية واللاذقية. ومن هناك توجّه نحو حدود الأناضول

---

(١) رستم، نماثل.
(٢) رستم، نماثل، ص٨٣.
- مشاقه، ص١١٧.
(٣) أبو عز الدين، ص٩٧.
(٤) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٨٤.

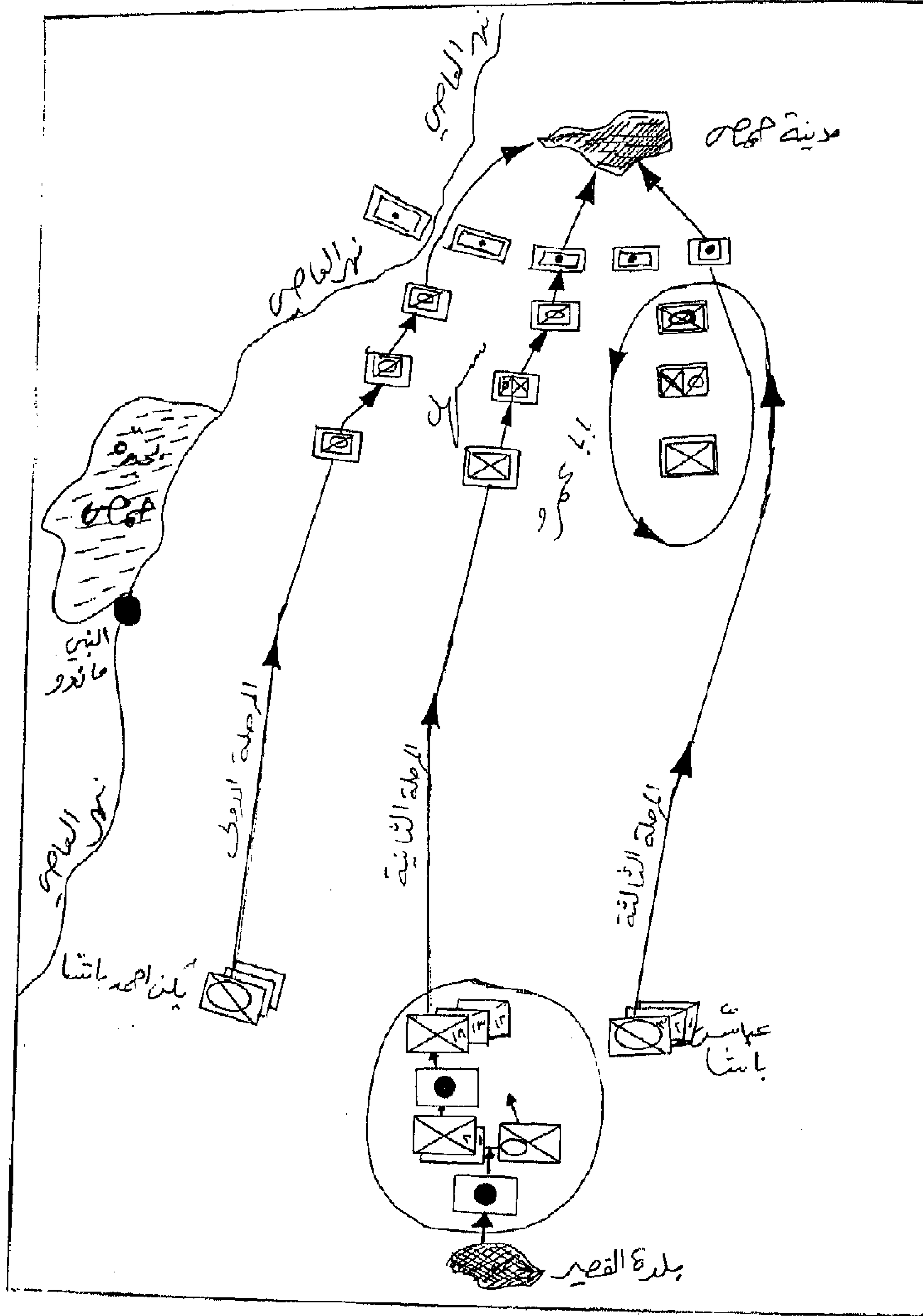
الخريطة رقم ٥

معركة الأمير بشير وحليفه ابراهيم باشا في حمص (١٨٣٢)

الخريطة رقم ٦

المناورة واحتلال مدينة حمص من قبل قوات التحالف الشهابي المصري

(تابع للخريطة ٥) (١٨٣٢)



فاحتل أورفا وعينتاب ومرعش وقيصرية وأدنا على الحدود الشمالية لبلاد الشام، حيث توقّف مدة من الزمن كي ينظّم حملته المقبلة على الأناضول(١).

بعد هذه الانتصارات انشغل القائد المصري بتأمين حماية مؤخرة جيشه الزاحف، فأبعد عن بلاد الشام كل العناصر المعارضة، وسلم سلطاتها إلى حلفائه. فتسلم الأمير بشير، عدا عن الشوف، حكم بيروت وصيدا وصور، وبدوره كلف كل من : الأمير ملحم شهاب بتسيير الأحكام في بيروت، والأمير بشير قاسم شهاب بتسييرها في صيدا، والأمير حسن أسعد في صور(٢).

أبت صيدا أن تخضع لحكم الأمير بشير، وتزعّم المعارضة فيها القاضي الشيخ محمد يونس وأخوه المفتي. وتظاهر «أعيانها بذلك شاهرين السلاح. وشكوا أمرهم إلى محمد منيب أفندي في عكا. فرفع شكواهم إلى السرعسكر» الذي أمر بمعاقبتهم، وطلب إلى الأمير بشير أن يلقي القبض على القاضي والمفتي وأعوانهما ويودعهم السجن، ففعل. وأمر بقطع رأس كل من شهر السلاح في وجه المتسلم الأمير بشير قاسم، فنفّذ أمره على مدخل المدينة.

من المؤكد أن الأمير بشير وأعوانه ورجالهم لم يتخطوا حدود حمص. بينما تابع إبراهيم باشا زحفه نحو اسطنبول: فاحتل كولك بوغاز وجفت وأولو قثلاق واركلي، فانفتحت أمامه طريق قونيه ومضى في زحفه حتى بلغها فاحتلها من دون قتال وجعلها قاعدة أمامية لمتابعة زحفه(٣).

في ١٨ كانون الأول ١٨٣٢، وصلت طلائع الجيش العثماني الجديد إلى شمالي قونية. وفي العشرين من الشهر نفسه وصل الجيش بكامله بقيادة الصدر الأعظم. وفي اليوم التالي دارت المعركة بين الخصمين، وبعد ساعتين من بدئها وقع الصدر الأعظم

(١) رستم، مماثل، ص٨٣-٨٨.
(٢) رستم، مماثل، ص٨٧.
(٣) رستم، مماثل، ص٨٨.

أسيراً في أيـدي المصـريين. انـتـهت المعركـة بهزيمة العثمانيين وتقهقرهم وانفتحت طريق الأستانة، فتقدّم إبراهيم باشا من دون مقاومة فاحتلّ كـوتاهيـه. وراح يستـعد للتقدم إلى بـروسه ليخلع السـلطان ويملي إرادة العزيز على أخصامه، وألح في ذلك، لكن والده آثر التريث تحت ضغط الدول الأوروبية التي فرضت عليه وقف تقدم قواته نحو الشمال. في مـنـتصـف أيـار ١٨٣٣، وقّع الخصـمـان مـعاهدة صـلح في كـوتـاهيـه، وضعت حداً للحرب بين العزيز والسلطان، لكنها لم تأت بالسلام[١].

---

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج١، ص٩٤.

٤ - الثورات والفتن ضد الحكم المصري في بلاد الشام

٤١ - دور الأمير بشير في قمع عصيان صفد (تموز ١٨٣٢):

أ - توطئة:

رغم إدراك محمد علي باشا أن معاهدة كوتاهيه الموقّعة مع السلطان ليست سوى هدنة مؤقتة، فإنه شرع، بواسطة ابنه إبراهيم، بحكم بلاد الشام كما لو أنها ضمت نهائياً إلى مصر. لم تأت هذه المعاهدة بأي حل جذري للصراع المصري العثماني، ولم تحسم الحرب أسباب النزاع بين السلطان والعزيز: محمد علي ظل والياً كسائر الولاة تجدد ولايته كل سنة من دون. أن يحظى بالاستقلال، أو حتى بجعل باشوية مصر وراثية في عقبه. والسلطان بقي على خوفه وحقده من الوالي الذي انتزع منه سوريا بالقوة وأذاقه ذل الهزيمة(١).

شكّل فقدان الثقة بين الاثنين، وضرورة تحصين بلاد الشام عسكرياً في وجه أي هجوم عثماني قد يحصل ضد القوات المصرية فيها، السبب الأساسي للانقلاب المفاجئ في سياسة حكومة محمد علي، وقد تبنّى إبراهيم باشا الإجراءات الجديدة التي تؤدي إلى تقوية الجيش وحشد الأموال استعداداً للطوارئ(٢).

اضطر إبراهيم باشا لإبقاء قوات كبيرة من جيشه على الحدود الشمالية مقابل الجيش العثماني، وبما أن نفقات الاحتلال كانت باهظة، ظل الجيش المصري مفتقراً إلى المال والرجال، فاضطر السرعسكر إلى:

- التجنيد الإلزامي.
- السخرة.
- فرض الضرائب بغية تغطية نفقاته وزيادة الرواتب، وبناء الحصون والقلاع عبر حدود الأناضول(٣).

وكان السلطان العثماني لا ينفك يعمل على إثارة الشغب والفتن ضد حكومة

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١١٨.
(٢) أبو عز الدين، مرجع سابق، ص١٥٥.
(٣) بازيلي، سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٨، ص١٨٧.

محمد علي، ظناً منه أن اضطراب الوضع وإثارة السكان يسهلان له وللجيش العثماني استعادة برّ الشام.

تجاه هذا الوضع اضطر إبراهيم باشا إلى إبقاء جيشه متهيئاً للحرب، مستعداً لها، ورأى أن يستغلّ فتوحاته لهذه الغاية فأمر بناء لتعليمات والده، باحتكار بعض السلع والبضائع وخاصة الحرير «وفرض نوعاً جديداً من الضرائب: كالفردة والشونة ورسوم الدخولية على الحيوانات ورسم التسريح ورسوم الجمارك والدخوليات والتلاعب بأسعار العملة والميري». إن سياسة الاحتكارات والضمانات شملت الحاصلات الزراعية والأعمال الحرفية، فأدى ذلك إلى ارتفاع في أسعار مختلف المواد والسلع والحاجيات الأساسية، كالطحين والسمن والزيوت والقمح والعقارات والحيوانات(١).

غذّت إجراءات إبراهيم باشا التعسفية، ومظالمه المتعددة التربة الخصبة لتنامي التيارات الرافضة للحكم المصري، وترافقت حركات العصيان والتمرد بإجراءات عنيفة صارمة كانت تولّد ضغطاً وتفجيراً أدت إلى إحراج أهالي بر الشام إحراجاً لم يبق وراءه سوى انفجار بركان الأحقاد ونشوب نار الثورات في البلاد، فاشتعلت أولاها في فلسطين وانتقلت إلى جبال العلويين فشمالي سوريا فحوران فلبنان. ولم تنته إلاّ بانتهاء حكم محمد علي في بلاد الشام(٢).

ب - *العصيان في صفد:*

كان لإجراءات إبراهيم باشا الأثر الحاسم في استنهاض قوى المعارضة، ليس في منطقة معينة بل على مدى أراضي بلاد الشام ومناطقها، حيث بدأت مظاهر العصيان والثورة تنتقل من مكان إلى آخر، ومن مقاطعة إلى أخرى. فما أن توفّق القوات المصرية في القضاء على ثورة هنا حتى تندلع ثانية هناك.

(١) غيز، مصدر سابق، ج٢، ص١٦٤-١٦٥.
(٢) أبو عز الدين، ص١٦٧-١٦٨.

دشن سكان فلسطين الثورة ضد إبراهيم باشا، إثر إعلانه الأوامر الواردة من والده والقاضية باحتكار تجارة الحرير وتحصيل ضريبة الفردة ونزع السلاح وفرض التجنيد الإلزامي[1].

ابتدأ الشغب بين قبائل البدو الرحل في بادية سوريا، وحوران وشرقي الأردن. ثم ظهر بين قبائل الكرك والخليل، ثم انتشر بسرعة فائقة في بقية المقاطعات. وبدأ زعماء جبال القدس والخليل ونابلس مثل آل الطوقان والجرار وأبو الغوش والقاسم[2]. وإلى جانب رفض هذه الإجراءات التعسفية، كان لكل زعيم منهم أسبابه الخاصة: في أكثر الأحيان كان الحقد الشخصي ضد أي عمل أو تصرف للسلطات المصرية، يذر قرنه في التشجيع على العصيان.

ومهما يكن من أمر فقد انتشرت الثورة في كل فلسطين، مما أرعب إبراهيم باشا، فسارع إلى طلب النجدة من والده. وقد ساعدت على ذلك دسائس العملاء العثمانيين الذين أشاعوا أنباء استعدادات السلطنة العثمانية في سيواس وتأهبها لاسترجاع بلاد الشام. وهذا ساهم في حمل مختلف الاعيان والزعماء على الانضمام إلى ركب الثورة. لذلك وصل محمد علي شخصياً إلى يافا، آتياً من الاسكندرية على رأس جيش قدّر عديده يومذاك بحوالي ١٥ ألف مقاتل، وذلك في ٣٠ حزيران ١٨٣٤، فاستدعى ابنه إبراهيم وطلب إلى الأمير بشير الثاني أن يحضر إلى يافا للتداول بشؤون فلسطين. أوفد الأمير بشير نجله أمين للمثول بين يدي العزيز معلناً إنه بعد التداول مع «اللواء يوحنا البحري، رأى أن المصلحة تقضي ببقائه في لبنان - للمحافظة والملاحظة - وإنه على كل حال مستعد متأهب - للثم الأذيال»[3]. اجتمع العزيز بالأمير أمين حوالى الساعتين أو أكثر ثم عاد إلى والده حاملاً أوامر محمد علي باشا بوجوب الزحف على صفد

---

(١) إسماعيل، المحررات، ج٥، ص٢٩٠-٢٩١.

(٢) رستم، المحفوظات الملكية، ج٢، ص٣٩٩.

- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٢٠-١٢١.

(٣) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٣٩٩.

لإخماد الفتنة فيها[١]. ويبدو أن محمد علي كانت لديه شكوك بموقف الأمير بشير وولده الأمير خليل بالنسبة إلى هذه الفتنة من حين اندلاعها في فلسطين، وخاصة في صفد، لأنه كان لديهما في تلك المقاطعة، أنصار بين أعيانها.

بعد عودة الأمير أمين حاملاً أمر العزيز، قام الأمير بشير الثاني، على رأس قوة من خمسة آلاف مقاتل في ١٦ تموز ١٨٣٤، متجهاً إلى صيدا. هناك تلقى أمراً بإرسال ألفين من رجاله (منهم ألف من كسروان) مع ابنه الأمير خليل لإخماد ثورة النصيريين في الشمال. تابع الأمير بشير تقدمه مع قواته حتى جسر القعقعية قرب النبطية، حيث دعا أهالي صفد للطاعة والخضوع. ولم يطل الوقت حتى أوفد الثوار إليه واحداً من أعيانهم هو الشيخ صالح الترشيحي (قاضي ترشيحا) بهدف التفاوض، وقد وافقوا على العودة إلى الهدوء والسكينة[٢]. فأرسل الأمير بشير قوة من رجاله إلى صفد لاحتلالها. وعين محافظاً عليها وألقى القبض على عدد من مسببي الشغب ومفتعليه. ثم فعل مثل ذلك لجميع قرى الشاغور والجبل وساحل عكا وطبريا، حتى الناصرة.

وكتب إلى العزيز مفيداً «بانقطاع دابر الفساد ودخول الرعب والإرهاب إلى قلوب الجميع من ضيع ووضيع»[٣]. وكان ذلك بعد تسعة أيام من بدء الحملة. وهكذا استطاع الأمير بشير إخماد نار الثورة والفتنة في ولاية صيدا، وتابع بعد ذلك عمليات تنظيف الولاية من المشاغبين والعصاة، وقد ألقى القبض على عدد كبير منهم وأرسلهم إلى عكا[٤].

---

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٢٤.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢١٦.
(٣) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٤٣٠.
- إسماعيل، المحررات، ج٥، ص٢٩٥-٢٩٦.
(٤) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٤٣٥-٤٣٦.

٤٢ - دور الأمير بشير في قمع عصيان طرابلس وعكار (تموز - آب ١٨٣٤):

أ - توطئة:

سبقت العصيان الذي نشب في طرابلس وعكار في حزيران وتموز العام ١٨٣٤، اضطرابات وقلاقل في مدينة دمشق، بسبب أعمال التجنيد وجمع السلاح التي قام بها شريف باشا في شهر أيار من العام نفسه. وكانت الثورة في نابلس قد أعطت أهالي دمشق حماساً وهيجاناً، فأخذوا يتوعدون حكومة محمد علي وأتباعه من السكان النصارى، ويتآمرون للنيل منهم. وهذا ما حدا بشريف باشا إلى وقف حملات التجنيد والاكتفاء بجمع السيوف والبنادق. كذلك في طرابلس وعكار إذ بولغ بأخبار ثورة فلسطين، حتى تحرّك الأهالي ورفعوا راية العصيان والثورة على الحكم.

ب - العصيان:

ابتدأ الأهالي بمهاجمة الحامية المصرية والسكان المسيحيين في المدينة الذين تركوها ولجأوا إلى القرى والبلدات في جبل لبنان (زغرتا وإهدن وبشري وغيرها). وانسحبت الحامية من المدينة إلى قرية الميناء على الساحل[١] وتحصن العسكر فيها بانتظار التعزيزات[٢].

كان محمد علي باشا لا يزال في يافا، فعندما وصلت إليه أخبار ثورة طرابلس وعكار، طلب من الأمير بشير إرسال نجدة إليها، فأرسل ابنه الأمير خليل على رأس ألف مقاتل من رجاله، وذلك في منتصف شهر تموز. ولدى وصوله إلى هناك انضم مع قوته إلى الحامية التي كانت بقيادة سليم بك. وأقدما على إطفاء نار العصيان والثورة في المدينة، و«عادت المياه إلى مجاريها» فألقي القبض على سبعة وخمسين من رؤوساء الثورة وزجوا في السجن: منهم

(١) الشدياق، ج٢، ص٢١٦-٢١٧.

(٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٢٦.

الحاج عبد الله علم الدين والحاج شاكر المطرجي والسيد شاكر عدره والسيد إبراهيم السندروسي والحاج حسين علم الدين والسيد مصطفى ملك والحاج مصطفى الأدهمي ومحمد أفندي الذوق والسيد خليل الثمين أمين الفتوى وإسماعيل أفندي شقيق النقيب وغيرهم. بعد ذلك دخل الأهالي في طاعة السلطات(١).

وكان إبراهيم باشا قد أمر بإرسال كتيبتين من المشاة من الرملة إلى طرابلس، وضم إليها فرسان حسن اليازجي. وتوجه أحمد آغا ومدها ببطارية مدافع من حمص وألحق بها لفيفاً تكتياً من لواء المشاة العاشر وأرسلها إلى عكار(٢).

من طرابلس توجّه سليم بك والأمير خليل نحو عكار، في آخر شهر تموز. وعندما علم الثوار بوصول هذه القوى إلى مقاطعتهم، فروا إلى خارج عكار. وألقى سليم بك القبض على سعيد بك القدور ومحمد بك القدور وسعد الدين آغا وأخيه حسن آغا وصادر أسلحتهم وزجهم في سجن القلعة في طرابلس. أصيب الأمير خليل بمرض منعه من متابعة تنفيذ مهمته، فعاد مع رجاله إلى بيت الدين في ١٩ أيلول(٣).

أمر إبراهيم باشا بإعدام زعماء الثورة المسجونين في طرابلس وعكار، فنفذ الحكم في ساحة الملاحة في طرابلس إرهاباً(٤).

ومما لا شك فيه أن العثمانيين حاولوا مرات عديدة، إغراء الأمير بشير لفك تحالفه مع إبراهيم باشا والعودة إلى كنف الدولة العلية والثورة على السلطات المصرية، وذلك عن يد محمد رشيد باشا، الصدر الأعظم الأسبق، ووالي سيواس وديار بكر والرقة وأمين المناجم السلطانية، الذي بعث له برسالة عن يد موظف كبير عثماني هو أحمد الهواري باشا، طالباً منه «الالتحاق

---

(١) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٤٣٢.
- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٢٦.
(٢) رستم، مماثل، ج٢، ص١٩٦.
(٣) الشدياق، مماثل، ص٢١٧.
(٤) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٢٧.

بالعثمانيين في حربهم ضد المصريين». لكن الأمير قبض على حامل الرسالة وزجّه في سجن عكا، وأفاد يوحنا البحري، أمين سر إبراهيم باشا، عنه وعن الرسالة، طالباً منه عرضها على السرعسكر.

٤٣ - دور الأمير بشير في قمع ثورة بلاد النصيرية (آب - تشرين الأول ١٨٣٤):

تابع القائد المصري سليم بك مهمته في قمع الثورة في عكار وصافيتا والحصن، فأوقف متسلميها، مصطفى بك الأسعد (عكار) والشيخين دندش وخضر (صافيتا والحصن) وأودعهم في سجن القلعة في طرابلس. بعدها أتى أعيان تلك المقاطعات ومشايخها إلى قيادة سليم بك في المدينة طالبين الخضوع والطاعة «ولثم الأرض التي لمستها نعال السرعسكر»(١). وانتهت بذلك هذه الثورة وهذا العصيان.

في هذه الأثناء اندلع لهيب الثورة في تلال اللاذقية وجبلة وبانياس وطرطوس في جبال النصيرية، حيث امتنع أهلها عن تقديم السلاح وعمدوا إلى مهاجمة الجنود المصريين والممتلكات العامة والمسيحيين المؤيدين للنظام المصري، ونهبوا مساكن الضباط وحوصر متسلم اللاذقية في دارته واحتلوا المدينة وأهلكوا حاميتها المصرية ونهبوا المخازن الخاصة بالجنود(٢). تبين لسليم بك أن القوة التي بحوزته لا يمكنها مجابهة هذه الثورة، فطلب نجدة من إبراهيم باشا الذي أرسل له سليم باشا قائد القوات المصرية في شمالي سوريا.

هبّ سليم باشا من مقره إلى نجدة اللواء سليم بك وأرسل إليه في منتصف أيلول اللواء العاشر من حماه وأمر محمد آغا معجون أغاسي بوجوب إرسال ثلاث مئة من فرسانه الهناديين من جسر الشاغور للغاية نفسها(٣).

إلى جانب ذلك، أصدر إبراهيم باشا أمره إلى الأمير بشير بإرسال قوة من رجاله،

---

(١) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٤٣٥-٤٣٦.
(٢) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٤٦١.
(٣) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٤٦٥ و٤٦٩.

بقيادة أحد أولاده، لمساندة سليم بك في سوريا. كلف الأمير ابنه خليل، في العشرين من تشرين الأول، مع بضعة آلاف من الرجال القيام بهذه المهمة، يعاونه الأمراء الشهابيون، من وادي التيم، فندي وجهجاه وسعد الدين وأحمد مع أنصارهم. وصلت هذه القوة إلى اللاذقية في بداية شهر تشرين الثاني ١٨٣٤ واتجهت نحو بلاد النصيرية في الثامن منه وعسكرت في منطقة البهلولية، فهرب السكان لدى وصولهم، تاركين مواشيهم وغلالهم وأعمالهم. فقامت هذه الحملة بأبشع أعمال النهب والحرق والإيذاء فقتلت المواشي وصادرت الغلال وأحرقت القرى وقطعت الأشجار وأوقعت مختلف أعمال الإيذاء بالسكان والثوار الذين كانوا يفرون من أمام مقاتلي الأمير اللبناني(١).

دخل سليم بك مع جيشه إلى بانياس وإلى حصن المرقب. وأعدم قائد الحصن عبدالله آغا والبعض من قادة الثوار: أحمد القرقور والأمير أصلان وطاها، مدبر عبد الله آغا. وتابع البك تقدمه نحو اللاذقية لمعاقبة ثوار المقاطعات وأهالي المدينة الذين تآمروا على الدولة معهم(٢).

وضع الأمير خليل قوة من رجاله بإمرة الأمير جهجاه شهاب من حاصبيا، فأحرقوا ٣٠ قرية من جبال النصيرية. وفي اليوم التالي قام الأمير خليل شخصياً، ومعه الأمير أفندي حاكم راشيا تسانده خيالة مصريون وعرب هنادي، بالهجوم على الثوار في قرية منبايا، فانتصروا عليهم وقتلوا خمسة منهم بينما فقدت القوة اللبنانية مقاتلين والخيالة المصرية ثلاثة. وبعد هذه المجابهة مع الثوار، أحرق الأمير خليل خمسين قرية هناك(٣).

بعد أيام، نهض سليم بك والأمير خليل من البهلولية إلى مقاطعة صهيون فعسكروا في قرية الحفة. وفي الصباح الباكر اتجهوا نحو قلعة صهيون، ملجأ الثوار، وتمركزوا شرقي القلعة. ولما بلغ أهل مقاطعة بيت الشلف ذلك، أرسلوا نحو ألفي مقاتل «يدهمون القوة الضاربة»، فأرسل الأمير خليل قوة من رجاله

(١) الشدياق، ج٢، ص٢١٨-٢١٩.
(٢) رستم، المحفوظات، ج٢، ص٤٦٢.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٢١٨.

لمقارعتهم، فانتصروا عليهم وقتلوا منهم حوالى أربعة عشر رجلاً وفقد اللبنانيون اثنين فقط. ثم أعطى الأمير خليل أمراً بالهجوم على قلعة صهيون، فنفذ رجاله الأمر واحتلوا ثلاثة أبراج بقربها وأبقى مئة رجل هناك لمشاغلتها ثم قفل راجعاً إلى المعسكر.

أضرم اللبنانيون نار الحرب على من في القلعة، وعند منتصف الليل طلب الثوار الأمان «وفروا هاربين، فدخلها رجال الأمير» واحتلوها[1].

بعد هذه الحوادث، انتقل اللواء سليم بك والأمير خليل، من نصر إلى نصر. وأتى سكان مقاطعة ديروس طالبين الخضوع والطاعة. بعد ذلك انتقل القائدان إلى مقاطعات: بيت الشلف والمزرعة وبيت عمار والجهنا «وأحرقوا قراها وأدخلوا أهلها في الطاعة». وقام أهالي بلدات الطروحة وبيت ياشور والقرّاضة والحمّام ونصبوا كميناً على جسر السن، بين المرقب وجبله، ليقطعوا الطريق على القوات المتقدمة. وعندئذ وصلت نجدة مؤلفة من خمسماية مقاتل من زحلة وبسكنتا، أرسلها الأمير بشير إلى ابنه الأمير خليل. فاصطدمت مع الثوار النصيريين وكادت تصل إلى حافة الهزيمة بعدما خسرت ستة وثلاثين رجلاً. لكن الأمير خليل أرسل الأميرين سعد الدين وأحمد ومعهما حوالى ٣٠٠ من الخيالة، لنجدة المقاتلين. فهرب النصيريون إلى جبل الحمّام بعدما خسروا ثمانية مقاتلين. أضرم الأمير خليل النار في قراهم وبلداتهم بعدما تمّ نهبها[2].

خشي إبراهيم باشا أمر الثورة هذه، فوصل إلى حمص قادماً من دمشق، غير أن سليم بك أبلغه خبر القضاء على الثورة وتفرق العساكر. في هذه الأثناء أعطى إبراهيم باشا أمراً للأمير خليل بالعودة مع رجاله إلى البلاد. فعاد أولاً الأميران أحمد وسعد الدين الشهابيان وبعدهما، ترك الأمير

(١) الشدياق، ج٢، ص٢١٩.
- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٢٨.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢١٩.
- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٢٨-١٢٩.

خليل بلاد النصيرية في ٢٢ كانون الأول ١٨٣٤، فوصل بيت الدين في مطلع العام ١٨٣٥. لم يطل الوقت حتى عاد اللواء الثالث عشر إلى طرابلس بعدما نفذ مهمته في هذه المقاطعات(١).

وبعد أن انتهت ثورات ١٨٣٤ واستتب الأمن، عمدت حكومة محمد علي باشا إلى جمع سلاح المقاطعات الثائرة، وألحقتها بنزع سلاح اللبنانيين، الذين شاركوا في إخماد ثورات صفد وطرابلس وعكار وجبال النصيرية. ثم أمرت بتجنيدهم في جيش نظامي(٢) فأثار هذا مشاعر الخيبة في نفوسهم وأجج نيران الحقد والكراهية لدى مختلف الطوائف والسكان.

٤٤ - دور الأمير بشير في قمع ثورة الدروز في حوران ووادي التيم (١٨٣٨):

أ - توطئة:

كان محمد علي باشا يراقب تطور الأحوال على الحدود الشمالية بشيء من التيقظ والتحفظ، فرأى أن لا مفرّ من اللجوء إلى القوة مرة أخرى لحسم النزاع بينه وبين السلطان العثماني. فأمر إبراهيم باشا بإكمال النقص في الألوية الموجودة وإنشاء ألوية جديدة تحسباً للمستقبل، الأمر الذي لم يعجب الإنكليز. لذلك زاره قنصل إنكلترا في منتصف كانون الأول ١٨٣٧ فسأله عن الداعي للتجنيد الجديد وإنشاء السفن، في وقت أصبحت الأستانة آمنة هادئة. وكان العزيز على علم بأن السلطنة العثمانية قد جهّزت واحداً وخمسين لواءً لمباشرة عملياتها العسكرية ضد قواته في بلاد الشام، ووفق تطور الحالة يمكن أن تصبح الديار المصرية الهدف الثاني لها.

وكان العزيز قد أعفى دروز حوران وغيرهم من سكان المناطق المتاخمة لحدود البادية من التجنيد نظراً إلى تمرد القبائل فيها ضد قواته. لكن هذه المرة يجب أن يعمّ التجنيد مختلف مناطق بر الشام نظراً لحاجة جيشه إلى إنشاء وحدات جديدة وتكملة

(١) أبو عز الدين، ص١٨٨.

(٢) الشدياق، ج٢، ص٢١٩-٢٢٠.

النقص بالوحدات القديمة، لذلك طلب من محمد شريف باشا أحد أبرز قواد إبراهيم باشا في دمشق بتنفيذ التجنيد.

لقد كانت لدروز حوران خصوصية معينة دفعتهم إلى رفض التجنيد، إذ وجدوا أنفسهم في نزاع مصيري ومستمر مع جيرانهم ومع القبائل الرحل التي اعتادت المرور والرعي في ديارهم، ومع قبائل البادية الذين يعيشون على السلب والنهب. فهم إذاً بحاجة إلى كل رجل للدفاع عن ديارهم ووجودهم. لهذا الواقع حتّم عليهم مناقشة محمد شريف باشا بأمر التجنيد، خاصة بعد أن كانت حكومة محمد علي باشا قد أعفتهم منه نظراً إلى قيامهم بوظيفة حفظ الأمن ورد الغارات عنهم. لقد طلب منهم تجنيد مئة وسبعين رجلاً فقط، وهذا العدد المطلوب لم يكن ذا أثر محسوس في قوة الجيش المصري. فقد تبادر إلى ذهن أعيان الدروز أن المسألة تخفي ذريعة للتحرش بهم توصلاً إلى أغراض أكثر أهمية من تجنيد هذا العدد الضئيل(١).

وأعقبت ذلك مفاوضات فاشلة جرت ما بين الشيخ يحيى الحمدان شيخ مشايخ حوران ومحمد شريف باشا، أفضت إلى إهانة الشيخ يحيى بصفعه على وجهه بحضور أعضاء مجلس دمشق(٢).

ب - ثورة الدروز:

بعد عودة الشيخ يحيى الحمدان إلى حوران أخبر الأهالي بما جرى له في دمشق فهالهم الأمر وأفزعهم، فاتصلوا بعرب السلّوط وغيرهم من القبائل المجاورة وتفاهموا فيما بينهم، ثم هجموا فجأة على القوات المصرية والمراكز الحكومية في حوران وقتلوا الوكلاء ونهبوا ما فيها. فأرسل محمد شريف باشا علي آغا البوصيلي الهواري باشي، ومعه ثلاث مائة فارس، ليقتص من الدروز، فهاجم هؤلاء هذه القوة ليلاً وقتلوا العدد الكبير من رجالها، وفرّ قائدها علي آغا إلى

(١) أبو عز الدين، مرجع سابق، ص١٩٥-١٩٨.
- بازيلي، مرجع سابق، ص١٩٥-١٩٨.
(٢) رستم، مرجع سابق، ص١٨٨.

دمشق يخبر بما رأى وحصل. بعدها قام الجميع إلى منطقة اللجاة واعتصموا بها، بناء على اقتراح كبير شيوخ العقل الشيخ حسين•إبراهيم الهجري. واللجاة كناية عن بقعة بركانية واسعة الأرجاء طولها ٢٠ ميلاً وعرضها خمسة عشر. وهي كثيرة الصخور، عسيرة المسالك، يصعب على الغريب التوغّل فيها(١).

تجاه هذا الواقع أرسل محمد شريف باشا حملة عسكرية بقيادة محمد باشا مفتش الجيش بلغ عديدها ستة آلاف، وذلك في أوائل العام ١٨٣٨. وأثناء تقدم الحملة تصدّى لها الدروز في بصرى الحرير ومنعوها من المسير، فقصفتهم بالمدافع ودمرت البلدة وفر الأهالي منها. وصل العسكر إلى حدود اللجاة وتمركز في قرية العامرة حول مياهها. ثم قام منها إلى سوميط، فضرب الثوار فيها وأجلاهم عنها. وما أن بدأ الجنود بالنهب والسلب حتى عاد الثوار إليهم ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً وقتلوا قائد الحملة والأميرالاي أيوب بك وعدداً من الضباط. فدبّ الذعر في بقية الجنود، وفرّ منهم حوالى ثمانماية رجل من دروز لبنان وشبان نابلس والتحقوا بالثوار(٢).

ساند دروز وادي التيم دروز حوران في ثورتهم، فباشر محمد علي باشا بإرسال الحملات العسكرية الواحدة تلو الأخرى إلى حوران ووادي التيم لقمع الثورة. حصلت معارك عدة شرسة، خاصة في اللجاة وحاصبيا وعين قنية وشبعا وأماكن أخرى. ولم يكن القتال سهلاً بالنسبة إلى المصريين، إذ استبسل الثوار في المقاومة رغم قلة عددهم وهزال معداتهم، وألحقوا بالقوات المصرية الخسائر الفادحة في الرجال والعتاد.

ابتدأ دروز وادي التيم عملياتهم العسكرية ومناوشاتهم لعسكر الباشا. فقد سلبوا في إحدى المرات خيول وأسلحة وافرة من خيالة المصلحة (نوع من الدرك) كانوا في مهمة التفتيش عن المتخلفين عن الخدمة العسكرية في قرى عين قنية وشويا من

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٣٧.
(٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٣٧.

مقاطعة حاصبيا. كما أن البعض منهم (حوالى ٥٠ رجلاً) أطلقوا نيران أسلحتهم من ميمس والخلوات باتجاه عين عطا وعين حرشه، في نيتهم قتل محمد رفيق إبراهيم آغا المسؤول الحكومي في هذه القرى والبلدات[١].

لم ينتج من سلوك المصريين الملتوي إلاّ ازدياد البغضاء وامتلأت القلوب غلاً وحقداً. ذلك لأن المصريين، رغم استشارتهم للأمير بشير الثاني بأحوال بلاد الشام، لم يدرسوا نفسية الشعوب والعناصر التي دخلت تحت حكمهم درساً وافياً يتيسر لهم معه حكمها على خطط حكيمة ملائمة لحالة العصر، بل كانت سياستهم تدور على السيف والنار، اعتداداً بقوتهم ونظام جندهم، واستخفافاً في شؤون بلاد الشام وأهلها من زعماء وأعيان. ويعود السبب في ذلك، على الأرجح، إلى انشغال محمد علي باشا بسياسة الفتح والتوسع التي أخذت بلبه وطموحه ورغبته في إنشاء دولة كبرى ترث السلطنة العثمانية في الشرق الأوسط.

وقد استنفدت هذه الأحلام كل وقته، فلم تبق له سبيلاً للتفكير في إدارة سوريا، ففوض أمرها إلى شريف باشا والأمير بشير الشهابي المغلوب على أمره والقابع في قصره في بيت الدين، «فحساب الحقل لم يطابق حساب البيدر» مع عزيز مصر حتى السنة ١٨٣٨ على الأقل.

لقد قدر عديد الثوار في وادي التيم بحوالي ألف رجل من المشاة وأربعماية من الخيالة. لقد نهبوا في سعسع عشرين حملاً من الذخيرة تخص القوات المصرية[٢]. وفي هذه الأثناء وصلت مجموعة من الثوار الدروز، آتية من اللجاة في حوران، إلى إقليم البلان لزرع الفوضى وقطع الطريق على كل نجدة مصرية مرسلة لتعزيز قواتهم في حوران. هذه المستجدات أجبرت إبراهيم باشا على طلب مساعدة الأمير بشير لطرد هؤلاء الثوار وفرض النظام والهدوء في هذا الإقليم. لذلك كلف الأمير بشير حفيده الأمير مجيد قاسم تنفيذ هذه المهمة، فنهض على رأس رجاله إلى إقليم البلان، وأعطى

(١) رستم، المحفوظات، ج٥، ص٣٧١.
(٢) رستم، مماثل.

«الأمان» لدروز هذه القرى، لكن ثوار حوران اشتبكوا مع رجاله في بيت جن في معركة طاحنة لم يتمكن أحد منهم من الانتصار على الآخر. وفي المساء عاد الثوار إلى ديارهم[١].

عقب هذه الحوادث كلّف إبراهيم باشا أحمد بك قائد لواء المشاة السادس ومجموعة السكمان الذين وصلوا من أدنا بناء لأمره، بتأديب ثوار وادي التيم[٢]. وفي نفس الوقت أصدر أمره إلى مصطفى باشا محافظ جزيرة كريت ليقوم بالتعبئة العامة في الجزيرة ويتوجه باللواء الثالث للحرس إلى بيروت والاتصال بالأمير مجيد والتنسيق معه للقيام بعملية تأديبية للثوار في وادي التيم قبل أن يلتحق بدمشق[٣].

ومع تنامي الثورة الدرزية في وادي التيم وحوران، وتهديدها للوجود المصري في بلاد الشام، وتنفيذاً لما كان يردّده إبراهيم باشا «وكما أنه لا يقطع الألماس إلاّ الألماس كذلك لا يقهر الجبليين إلاّ الجبليين»[٤]، فقد كتب إبراهيم باشا إلى الأمير بشير، بناء على اقتراح محمد شريف باشا[٥]، يأمره بجمع أربعة آلاف مقاتل من نصارى لبنان، وأن يسلمهم أسلحة مؤبدة لهم ولذريتهم، ويوجّههم بإمرة ولده الأمير خليل إلى حاصبيا لقتال الدروز[٦] الذين ثاروا لمساندة إخوانهم دروز حوران. فجمع الأمير حوالى ألفي مقاتل، وفي هذه الأثناء، وجهاراً، التحق دروز الشوف وجبل لبنان بثوار حاصبيا وراشيا وحوران من دون أن يبدي الأمير تجاه ذلك أي ردة فعل أو تدخل

(١) رستم، المحفوظات، ج٥، ص٣٧٣.
- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٤١.
(٢) رستم، المحفوظات، ج٥، ص٣٧٩.
(٣) رستم، مماثل.
(٤) مزهر، مرجع سابق، ج١، ص٥٦٢.
(٥) رستم، محفوظات، ج٣، ص٣٣٩-٣٤٠.
(٦) الشدياق، ج٢، ص٢٢١-٢٢٢.

ضدهم. وقد اشترك هو أيضاً وعلناً، مع حلفائه المصريين بقتال الدروز.

في الرابع من نيسان زحف أحمد بك بقواته عن طريق سعسع إلى قرية دربل الفوقا، فدار القتال بينه وبين الثوار الدروز، فتغلب عليهم، وكان عددهم يزيد على السبعماية والخمسين رجلاً. فسقط منهم العدد الكبير وخسر أحمد بك ثلاثة عشر قتيلاً وخمسة وستين جريحاً. كما أن شبلي آغا العريان قد خرج من اللجاة على رأس مئتي فارس واتخذ من قرية مجدل شمس مقراً له، فهاجمه أحمد بك وأخرجه منها فاتجه إلى حاصبيا، وقد كُلّف الأمير بشير بإدارة البلدة وجمع السلاح[١]. قصد شبلي آغا بلدته راشيا عند الفجر ودخل دار الحكومة وذبح أمين الجعفري متسلمها، ثم أخذ يتجوّل بين القرى يحثّ أهلها على قتال المصريين ورجال الأمير بشير[٢].

بعد مدة وقعت معركة أخرى في وادي بكّا بين الدروز وإبراهيم باشا، خسر الدروز المعركة فانكفأوا إلى جنعم، وكانت كناية عن هضبة مسطحة تقع قرب شبعا ما بين جبل حرمون والجبل الوسطاني الذي يفصل جنعم وشبعا عن حاصبيا.

توجّه إبراهيم باشا إلى راشيا في الوقت الذي تركها أهاليها باتجاه جنعم، وكان من بينهم شبلي آغا العريان ورفاقه. فقرّر الباشا محاصرتهم في هذه الهضبة، ومن ثم الهجوم عليهم وتدميرهم، فجمع جيشه في سهل عيحا وأرسل تفاصيل خطة الهجوم إلى قواته المعسكرة في بانياس. وتألفت قواته هذه من الجنود النابلسيين بإمرة المسؤول عن إيالة صيدا، وكان رسوله الشيخ جرجس الدبس، الذي وضعه الأمير بشير بتصرّف السرعسكر كخبير في شؤون وادي التيم، يرشده أحياناً ويضلله أحياناً أخرى، ثم ينقل أخباره أحياناً أخرى إلى الثوار الدروز[٣].

---

(١) رستم، المحفوظات، ج٣، ص٣٨١-٣٨٢.

(٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٤١.

(٣) رستم، مماثل، ص١٤٢.

وهكذا فعل يومذاك إذ أفشى تفاصيل خطة إبراهيم باشا إلى شبلي العريان ورجاله بغية أن يأخذوا الاحتياطات اللازمة لرد الهجوم المفترض.

كما انه أطلع قادة عسرك إبراهيم باشا في بانياس على الخطة نفسها. وكانت هذه الخطة تلحظ مهاجمة الثوار الدروز من جهات ثلاث:

١ - من الجنوب، بواسطة قوات نابلس المرابطة في بانياس.

٢ - من الشمال، بواسطة القوات الموجودة معه في سهل عيحا قرب راشيا.

٣ - من الغرب، بواسطة قوات الأمير خليل شهاب المرابطة في حاصبيا.

وقد فصّل الباشا محتويات هذه الخطة محدداً بدقة: محور التقدم وساعة الانطلاق لكل مجموعة قتالية.

انطلقت قوات نابلس من بانياس باتجاه جنعم، وكانت مقدمة المجموعة بإمرة الأمير مسعود، ابن الأمير خليل ويبدو أن الأمير خليل استعجل تنفيذ الخطة، فتحرّك من مراكزه نحو الهدف، ساعتين قبل الساعة «س» المحددة له. (كان من المتوقع أن يصل إلى جنعم ظهراً في نفس الوقت الذي ستصل قوات الباشا المتقدمة من الشمال).

وكان قصده بذلك أن يفوز بالانتصار وحده قبل وصول الباشا، لينال بذلك المديح والفخر. وقعت المقدمة في كمين كان قد نصبه الثوار قرب قرية شويا في سفح الجبل الوسطاني فتراجعت، وكذلك فعل جيش الأمير خليل، وحاصرهم الدروز في مكان مليء بالصخور وشديد الإنحدار[1]. وراح الثوار يطلقون النار عليهم فاضطروا للانكفاء والتراجع، وأخيراً الفرار «مذعورين مشتّتين» تاركين على أرض المعركة جثة الشيخ فضل الخازن وسبعة عشر رجلاً آخرين، وسلب الدروز عتادهم ومعداتهم وكان ذلك في العاشر من تموز ١٨٣٨.

في هذه الأثناء، و بينما كان الدروز مشغولين بالقتال ضد الأمير خليل ورجاله، وصل إبراهيم باشا مع قواته إلى ساحة المعركة، فكانت المفاجأة القاتلة بالنسبة إلى

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٤٣.
- الشدياق، ج٢، ص٢٢٣.

الثوار إذ لم يعد في إمكانهم تنظيم المقاومة ضد المصريين فاضطروا إلى التراجع والفرار. وهكذا احتل إبراهيم باشا شبعا، ثم جنعم، وهرب العريان مع مئة من رجاله نحو حوران. وفي اليوم التالي قام وفد من دروز جنعم إلى شبعا فمثلوا بين يدي السرعسكر وقدموا «الطاعة إليه، وأربعماية بندقية وطلبوا العفو، فعفا عنهم وأمرهم بالعودة إلى قريتهم»، ثم قام بعسكره إلى قطنه بالقرب من دمشق. عاد العريان من حوران وفي ودّه الاستسلام عن يد الأمير بشير الذي رفض خوفاً من عدم النجاح. بعدها سلّم نفسه، بواسطة الشيخ جرجس الدبس، الذي ضمن له ما تمنّى وأخذه إلى قطنه، فتقبّل السرعسكر استسلامه وأدخله في الخدمة، وعيّنه قائداً على خمس مئة خيال درزي غير نظامي[١] وكان ذلك في التاسع من آب ١٨٣٨[٢].

بعد هذه المعركة راح الثوار يسلّمون أنفسهم للأمير خليل وللسلطات المصرية في وادي التيم.

وفيما تمكن إبراهيم باشا من وضع حد للثورة في وادي التيم، كانت الثورة في حوران تعود إلى التفاقم بعدما خف الضغط عن الثوار هناك، فعاد هؤلاء إلى شن الغارات على القرى المجاورة وتهديد الجيش المصري وخطوط مواصلاته. ورافق ذلك ظهور تحركات للجيش العثماني على حدود سوريا الشمالية استعداداً لجولة أخرى بين السلطان والعزيز[٣]. وشعر السرعسكر بالخطر الخارجي، فضلاً عن الداخلي، فمال إلى تسوية المسألة الحورانية، وجنح إلى سياسة التسامح مع الدروز. وكان الدروز أيضاً راغبين في المسالمة، لما ألمّ بهم من التعب والإرهاق بسبب قلة المياه وإطالة أمد القتال ومقتل عدد كبير من مقاتليهم،

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٤٤.
- الشدياق، ج٢، ص٢٢٤.
(٢) رستم، المحفزظات، ج٣، ص٤٦٥.
- مشاقه، ص١٣٠.
(٢) رستم، المحفوظات، ج٣، ص٣٥٥-٣٥٩.

فجرت المفاوضات بسهولة بينهم وبين إبراهيم باشا عن طريق الشيخ جرجس الدبس الذي انتدبه السرعسكر. وكان الأمير بشير، هو الآخر، قد بعث رسولاً من قبله، في هذا المعنى، إلى زعماء الدروز في حوران، طالباً منهم الخضوع والطاعة لقاء عفو شامل يصدره إبراهيم باشا. ولم يطل الوقت حتى تقدم منه أربعون من مشايخهم مع ألف من المقاتلين وفي حوزتهم سبعماية بندقية خاصتهم وألفا بندقية كانوا قد سلبوها من العسكر المصري، مقدمين الخضوع والطاعة أمام القائد المصري، الذي أصدر عفواً عنهم، فعادوا إلى قراهم آمنين(١).

مع حلول نهاية آب ١٨٣٨ انطفأت الثورة الدرزية في حوران ووادي التيم بعد تسعة أشهر من اشتعالها. لكن الحقد بقي دفيناً في قلوب الثوار ليعود ويشعل نار الثورة من جديد بعد سنتين من الثورة الأولى.

والجدير ذكره أن استجابة الأمير بشير لأمر إبراهيم باشا بتجنيد الموارنة لقتال الدروز في ثورتهم ضد المصريين، أوقعه في الشرك المصري، كما أوقع الموارنة أيضاً. لقد كان هذا القتال ما بين الطائفتين الأول من نوعه في تاريخ تعايشهم الطويل مما أورث الأحقاد والضغائن وأثار المشاعر والعواطف وأجّج نيران العداوة ما بين أبناء الطائفتين الأساسيتين في جبل لبنان، لينفجر حرباً ضارية ودموية بعد سنتين من ذهاب إبراهيم باشا عن بلاد الشام. وانتهت تلك الحرب بتقسيم إمارة الشوف وجبل لبنان إلى قائمقاميتين: الأولى مسيحية، والثاني درزية.

٤٥ - دور الأمير بشير في قمع العصيان في عكار وبعلبك وجبل عامل (١٨٣٩):

لم يثمر القضاء على ثورة الدروز في وادي التيم وحوران الاستقرار والراحة لإبراهيم باشا في بلاد الشام، إذ تنامت الثورات وحركات التمرد والعصيان، واستمرت في تنقلها من مقاطعة إلى أخرى ضد السلطة المصرية الحاكمة، مما أجبر السرعسكر على التحرك في صورة مستمرة لملاحقة الثوار

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٤٤-١٤٥.

والقضاء عليهم. لقد تكبّد المصريون جراء ذلك الخسائر المادية الجسيمة بالعتاد والطاقات والرجال، كما ساهمت هذه الثورات في تدهور السلطة المصرية في صفوف السكان المستائين من إجراءات إبراهيم باشا التعسفية في التجنيد والضرائب وجمع السلاح والاعتداء على كرامات الناس وممتلكاتهم. ولقد كانت السنة ١٨٣٩ والثورات التي حدثت خلالها المنطلق الأساسي للوصول إلى الثورة العامة ضد الحكم المصري في بلاد الشام العام ١٨٤٠، عقبتها فوضى عامة في لبنان، بدّلت كل المقاييس السابقة وأمّنت للعثمانيين التدخل المباشر في إمارة الشوف والجبل، وغذّت النعرات الطائفية في فسيفساء المجتمع اللبناني، فتفكّكت أوصال الوطن بعد حروب أهلية ومذهبية.

هكذا اضطر إبراهيم باشا إلى الاستعانة بالأمير بشير الكبير لقمع هذه الحركات الثورية التي برزت مجدداً السنة ١٨٣٩ في عدد كبير من المقاطعات. ففي حزيران من تلك السنة قامت حركة فتنة في جهات طرابلس وعكار إذ راح الثوّار يجوبون هذه المقاطعات متحدّين السلطة. أعطى السرعسكر أمراً إلى اللواء عثمان بك في كيللس بأن يذهب على رأس قوة عسكرية من عنده للقضاء على هذه «العصابات» التي كانت تقطع الطرق وتتعدّى على الآمنين من السكان(١)، كما أوعز إلى الأمير بشير بأن يرسل أحد أحفاده على رأس قوة من رجاله النصارى، قوامها حوالى الألف نفر لتأديب بني حماده، الشيعة، الذين اغتالوا متسلم عكار في منزله، على أن ينسّق عمله مع يوسف باشا، محافظ طرابلس، الذي سيوجّه رجال الأمير لملاحقة هذه العصابات الثائرة والقضاء عليها(٢). ويبدو أن الأمير بشير لم تأخذه الحماسة لتنفيذ أوامر إبراهيم باشا بالسرعة المطلوبة، مما فجّر غضب السرعسكر عليه وملامته. وقد ظنّ الباشا إن تباطؤ الأمير في ضرب الشيعة

(١) رستم، المحفوظات، ج٤، ص١٠٩-١١٠.
(٢) رستم، مماثل، ص١٠٩-١١٠.

الذين اغتالوا المتسلم في بيته وسرقوا خزينة متسلمية عكار مرده إلى بخل الأمير وجشعه[1]. والحقيقة أن الأمير بشير أرسل قوة بإمرة حفيده الأمير مجيد إلى عكار تمكّنت خلال شهر تموز من القضاء على عصابتي بيت النون وبيت حماده، الشيعتين، قضاءً تاماً[2].

ما أن تخلص إبراهيم باشا من عصيان عكار حتى ظهر عصيان آخر في البقاع ترأسه الأمير جواد الحرفوش. كلف إبراهيم باشا محافظ إيالة دمشق محمد شريف باشا إرسال حملة عسكرية لمداهمة الثوار وتوقيف الأمير جواد. وقد حدد عدد العسكر بحوالي الأربعة آلاف مقاتل يمكن تعزيزهم في حال الضرورة بألف من رجال الأمير بشير على رأسهم أحد أبناء الأمير خليل[3]. علم الأمير الحرفوش بحملة المداهمة، فهرب من البقاع ولجأ إلى الأمير بشير الثاني مستأمناً، فقام الأمير بتسليمه إلى السلطات المصرية في دمشق. وبوصوله إلى هناك أمر شريف باشا بإعدامه وبإعدام ستة من أعوانه،/ بينهم رجل من جماعة شبلي العريان بطل ثورة الدروز في وادي التيم[4].

في هذا الوقت، قام عصيان آخر في جبل عامل كان له ميدان رحب وأسباب عامة مشتركة بين مختلف المقاطعات والمناطق، فضلاً عن الأسباب الخاصة التي تميزت بها منطقة جبل عامل، وبدأت منذ أن تسلم بشير الثاني مقاليد الأمور فيها.

ويقال إن سياسة المصريين في جبل عامل كانت غيرها في بلاد الشام التي رفعت عليها أعلامهم. ويعود السبب إلى ضم جبل عامل لإمارة الشوف والخلاف المستحكم بين أبناء الجبل وأهل جبل عامل، إلى الأحقاد ما بين ذوي الإقطاعات من زعماء المنطقتين المتغلغلة

(١) رستم، مماثل، ص١٠٥.

(٢) رستم، مماثل، ص١٥٩.

(٣) رستم، مماثل، ص١٨٣.

(٤) رستم، مماثل، ص١٨٧-١٨٨.

في النفوس والسارية سريان الدم في العروق. فمن البديهي أن يكون حكم الشهابيين شديداً صارماً على أبناء جبل عامل[1].

بعد ضم جبل عامل إلى إمارة الشوف ولّى الأمير بشير حفيده الأمير مجيد إدارة مقاطعاته. وكان مجيد شاباً متغطرساً شديد الإعجاب بنفسه لم تحنّكه التجارب، فاضطّهد الأهالي وأرهقهم تعسفاً وساقهم بالمئات إلى سجن صور، حتى بلغ عددهم قرابة الألف رجل، وحقّر علماءهم والأعيان، فثار الشيعة في مناطقهم وقراهم يقودهم حسين بك ابن الشيخ شبيب الصعيبي، الذي شغلت ثورته السلطات المصرية، خاصة وإنه كان جمع حوله ما يقارب الستماية مقاتل، مسلحين بالبنادق والخناجر والمسدسات[2].

ويقال إن سبب ثورته يعود إلى مطالبته السلطات المصرية برفع المتسلمين عن بلاده وإعادة الحكم إليه، كما كانت الحال في عهد والده، متعهداً بدفع الأموال وتقديم الغلال وبصيانة الأمن والعدل في جبل عامل في ظل الحكومة المصرية. لم ينل طلبه الموافقة فثار وجمع رجاله وتحصن معهم في منطقة صخرية شديدة الوعورة يصعب على الجنود النظاميين ارتيادها والوصول إليها بسهولة، وخاصة الخيالة. أعطى حاكمدار دمشق محمد شريف باشا أمراً إلى محافظ إيالة صيدا الشيخ محمود عبد الهادي بالتصدي لهذه العصابة، بمساعدة الأمير مجيد شهاب ورجاله. انتقل الأمير مجيد إلى جبل عامل على رأس قوة من خمسماية رجل لوضع حد للأعمال الإرهابية التي يقوم بها هذا الرجل. وبناء لأمر السرعسكر، طلب محمد شريف باشا من الأمير بشير، في تشرين الثاني ١٨٣٩، إرسال مئتي خيال لمساندة حفيده الأمير مجيد. وقد كتب إبراهيم باشا إلى الأمير أيضاً طالباً منه الضغط على المشايخ الشيعة في إقليم الشومر لعزل الثوار وإبادتهم[3].

(١) آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص١٤٧.
(٢) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٢٥٧ و٢٦٩-٢٧١-٢٧٢.
- رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٧٢.
(٣) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٢٥٨.

نهض الأمير مجيد بقواته إلى النبطية، ومنها راح يلاحق الشيخ حسين ورجاله في المنطقة، فوصل إلى ميمس فيارون حيث احتك به وأكرهه على الفرار ليلاً، مع خمسماية من أتباعه، إلى الوعر[1]. لقد عجز الأمير مجيد عن إخضاعه أو الانتصار عليه، غير أن استمرار المصريين في التضييق على الشيخ حسين دفع به إلى الفرار إلى حوران فدمشق بهدف التخفيف من وطأة جند الحكومة على الأهالي.

أقرّ حسين شبيب بهزيمته، فوجّه في التاسع من تشرين الثاني من العام نفسه استرحاماً «إلى الأعتاب الخديوية»، عارضاً خضوعه وطاعته والعودة إلى الشرعية، على أن يعطى «الأمان» على دمه ودم أنصاره وممتلكاتهم وأسلحتهم، وأن يكون متسلماً على المقاطعات الثلاث «كما كانت العوايد» أيام المرحوم والده الشيخ فارس الناصيف. وقد تعهّد بدفع الضرائب والميري وغيرها إلى السلطات العلية.

لم توافق الحكومة المصرية على هذا الإسترحام المرفوع من الشيخ شبيب، فبقي متوارياً عن الأنظار مع أخيه محمد علي شبيب، اللذين هربا إلى اللجاة في حوران.

لم يطل الوقت حتى ألقت القوات المصرية القبض على حسين شبيب وعشرة من أتباعه[2]، بعدما وشى به أحد مشايخ الدروز. أرسل حسين إلى المشنقة دافعاً حياته ثمناً لإخلاصه للعادات والتقاليد المتوارثة في حكم جبل عامل. أما شقيقه محمد فقد نجا بنفسه، فخرج من الدار واخترق صفوف الجند المصري وهم لا يعرفونه، يتبعه جماعة من رجاله، بينهم نصرالله نعنوع من «المروانية وأيوب عليق ونصرالله زهنون من يحمر». وعاش بعد هذه الحادثة أربعين سنة[3].

(١) رستم، تماثل، ج ٤، ص٢٦٩-٢٧١-٢٧٢.
(٢) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٢٨٦-٢٨٧.
(٣) آل صفا، محمد جابر، ص١٤٧-١٤٨.

الخريطة رقم ٧

معارك الأمير بشير الثاني حليف ابراهيم باشا (١٨٣١ - ١٨٤٠)

مواقع معارك الأمير بشير الثاني الكبير
الى جانب ابراهيم باشا المصري
(١٨٣١ - ١٨٤٠)

٤٦ - دور الأمير بشير في قمع الثورة العامة ضد المصريين (١٨٤٠):

في أعقاب انتصار إبراهيم باشا على العثمانيين في «نزب» السنة ١٨٣٩ قررت القيادة المصرية نزع سلاح النصارى في بلاد الشام، مع أن هذه القيادة نفسها كانت قد وعدتهم سابقاً بعدم نزعه لأنه أعطي لهم ولذريتهم إلى الأبد، الأمر الذي أقلقهم، وأخافهم تبدل سياسة المصريين. كما انتشر بين المسيحيين إن نزع السلاح سيعقبه التجنيد الإلزامي، وكان على رأس هؤلاء موارنة لبنان الذين شعروا بأن كونهم مسلحين في مجتمع منزوع السلاح، يشكل ضمانة لهم في حال وقوع أي تبدّل طارئ، تماماً مثلما «إنه يسمح لهم بصيانة المركز المميز والمكاسب التي حققوها إبان حكم إبراهيم باشا، ولذا فإن هدفاً مباشراً جمع الدروز والموارنة» في حلف واحد ضد الوجود المصري في بلاد الشام عامة وفي لبنان خاصة، ناهيك عن التدخل الأجنبي الإنكليزي وتأجيج المعارضة للقيام بعصيان مسلح ضد الحكم القائم الممقوت. وقد كان العملاء الأجانب يسرحون ويمرحون في بلدات جبل لبنان وقراه ومدن الساحل، يعدون الأهالي، وخاصة الموارنة منهم، بتخفيف الضرائب، في محاولة لكسب الدعم الشعبي لعودة النفوذ المباشر للسلطان العثماني. وكان الوعد بإعفاء الأعيان من الميري لمدة ثلاث سنين. وبألا يدفعوا الميري بعد ذلك إلاّ في حدود قيمتها السابقة للاحتلال المصري لبلاد الشام. لقد كانت الضرائب المفروضة، وخاصة الفردة منها والرسوم الأخرى بالغة الظلم، وكذلك الخدمة العسكرية الإلزامية.

أ - الثورة في بلاد الشام ١٨٤٠:

أولاً - أسباب الثورة:

يقول هنري غيز عن علاقة اللبنانيين بالحملة المصرية على بلاد الشام «في العام الأول للاحتلال المصري، علّل أهالي الإمارة، الذين خدموا القضية المصرية، أنفسهم بإعفائهم من ثلاثة أشياء:

- التجنيد الإلزامي.
- نزع السلاح.
- دفع ضرائب جديدة.

في الحقيقة والواقع لم يستطع الحكم المصري تنفيذ لهذه الأمور الثلاثة. فزاد إبراهيم باشا من الأموال الأميرية، بتعديلة للرسوم وبفرض السخرة على النصارى الذين لم يطلهم التجنيد الإلزامي.

كانت الإجراءات التي اتخذها محمد علي ترمي إلى تأمين فعالية حكومته بتحسين الدخل الجبائي وتوسيع نطاق التجنيد في جيشه. وكان محمد علي وابنه إبراهيم، مثل كل الملوك والسلاطين في الشرق، همهم الأكبر، لا بل الأوحد، إيجاد خزانة مليئة بالأموال وجيش قوي، وهذان الأمران يصنّفان عظمتهم ويسيّران تنظيم دولتهم. لقد كانت النزعة إلى التسلط هي الأهم في كل حكم يتولونه.

بلغت الضرائب ٣ أضعاف ما كانت عليه، كما أن التجنيد فرض في شكل متقطع، تبعاً للحروب المستمرة التي كان يشعلها العثمانيون وحلفائهم ضد الوجود المصري. وكثيراً ما كان العصيان يرتدي طابعاً طائفياً بارزاً، مما يدفع بالضروري إلى تجنيد إلزامي جديد وإلى إرسال قوى عسكرية بعد تجنيدها لقمع هذا العصيان أو ذاك، إلى الظهور بمظهر طائفي واضح.

لقد ارتكب الأمير بشير الثاني خطأه الأكبر بتنفيذ ما طلبه منه السرعسكر حرفياً من دون الرجوع إلى عادات أهالي الجبل وتقاليدهم الأصيلة في النفوس، والتي إذا «لم تحترم ستؤدي إلى بروز العصيان المسلح والانتفاضات الشعبية – العاميات». كان هدف إبراهيم باشا تحسين دخله من كل طائفة في بلاد الشام، لكنه، ومن دون أن يدري، لم يفعل سوء إذكاء الريبة والحسد الطائفيين، حيث كان كل شخص يتمسك بالامتيازات الخاصة المرتبطة بوضعه الطائفي.

ثانياً - إندلاع الثورة:

في أيار ١٨٤٠ بدأ لهيب الثورة في إمارة الشوف ضد السلطات المصرية وضد الأمير بشير الثاني. ومشى المسيحيون والدروز معاً في هذه الثورة. ذلك لأن محمد علي باشا أمر باسترجاع الأسلحة التي وزعها إبراهيم باشا على الموارنة إبان تمرد الدروز في وادي التيم وحوران السنة ١٨٣٨.

لتنفيذ هذا الأمر العزيزي طالب الأمير بشير بفظاظة تسليم هذه الأسلحة الموزعة، فتخلى الموارنة عنه، وكان الدروز بفضل عصيانهم، محسوبين على أعداء محمد علي وعليه شخصياً.

ثار اللبنانيون واهتاجوا وألفوا جمعية للدفاع عن لبنان، انخرط بها عدد لا يستهان به من الأعيان من الطوائف كافة.

ويبدو أن الثورة هذه، كان قد خطط لها منذ زمن بعيد، إذ أقام الثوار مخافر مسلحة على طول الطريق بين صيدا وبيروت، رفعوا عليها الرايات الحمراء. وراحوا يقطعون الطرق على المارة ويقومون بأعمال لصوصية لإثارة غضب الناس على الحكم المصري. كل هذه الأعمال أقلقت بال السلطات الحاكمة والأمير بشير نفسه الذي طلب من محمد شريف باشا، حاكمدار إيالة دمشق، رأيه بالتدابير الواجب اتخاذها لمواجهة هذه الثورة(١).

انتشرت الثورة وامتد لهيبها في بلاد الشام، واتصل ثوار الشوف بإخوانهم في حوران وأعلنوا الخضوع والطاعة لأوامر السلطان العثماني، ونادوا بأن هدف الثورة هو رفع الظلم والاستبداد والانعتاق من الجائرين. كما أنهم وزّعوا قواتهم على طول الطريق الساحلية بين بيروت وصيدا في شكل يمكنهم من التصدي للقوات المصرية في حال تدخلها. وقد تعاطف أهالي دير القمر مع هؤلاء الثوار وبانت عليهم إشارة عدم الرضى والطاعة للحكم القائم، وقرروا سراً أن يثوروا ويلتحقوا بالمتمردين لمؤازرتهم عند أول اصطدام بينهم وبين عسكر السلطة(٢).

كان خيار الأمير بشير الاستمرار على وفائه لحليفه إبراهيم باشا، ولو أن الأكثرية الساحقة من سكان إمارته ستشترك في هذا العصيان، أو على الأقل ستدعمه. لذلك قرّر البقاء في دير القمر ليشن الحرب على أهالي هذه البلدة والاقتصاص منهم في حال حاولوا مساعدة المتمردين أو مساندتهم. وقد اقترح على محمد شريف باشا أن يصار إلى تركيز مخفر دائم على جسر الأولي لمنع

(١) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٣٤٠-٣٤١.
(٢) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٣٤٢.

الاتصال بين أهالي الدير والثوار في صيدا ولمنع المتمردين من التحرش بالجنود الذين يدخلون أو يخرجون من المدينة(١).

كان الأمير يعلم علم اليقين أن أهالي الجبل يرفضون ان يجرّدوا من السلاح مهما كانت الأوضاع والمستجدات، وقد شرح ذلك بكل وضوح إلى السرعسكر. وأضاف إنه في حال استرداد السلاح بالقوة، سيعلنون الثورة. وقد نفذ أهالي الدير نوعاً من التمرد عندما استرجعوا من موظفي الإدارة السلاح، الذي كانوا قد جردوه من البعض، فأعادوه بالقوة إلى أصحابه.

وقف أهالي الشوف، دروزاً ومسيحيين وقفة الرجل الواحد(٢) في وجه موظفي الإدارة لمنعهم من استرداد السلاح ولاسترجاع ما كان قد جمع منه وإعادته إلى أصحابه. وقد وجه إبراهيم باشا اللوم العنيف للأمير بشير بسبب ذلك. في هذه الأثناء جاء رد محمد علي باشا ليؤكد للشهابي أن ليس في نيته أن يجند أحداً من اللبنانيين وإنه أمر برفع طلب البنادق موضوع البحث(٣).

إزاء المنحى الجديد الذي اتخذته الإدارة المصرية في معالجة هذه المسألة، وبعد التوجيهات الجديدة التي تلقاها بشير الثاني من الحاكمدار المصري محمد شريف باشا والسرعسكر إبراهيم باشا وعزيز مصر، عمد بشير إلى معالجة قضية الثوار سالكاً فيها طرق المفاوضة مع زعمائهم، زارعاً بذور الشقاق في صفوفهم. وما إن تسلم رد القائد المصري محمد شريف باشا حتى جرت مفاوضات اشترك فيها ولدا الشهابي قاسم وأمين والمطران عبد الله البستاني وبعض اختيارية دير القمر. ووعد الأمير بإصدار مرسوم العفو حسبما اتفق عليه(٤).

وقد نتج عن مرسوم الأمان، الذي أعطي إلى الثوار وتلي عليهم في معسكرهم في عين مزبود أن تفرق شملهم فقفلوا راجعين إلى

(١) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٣٤٢.
(٢) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٣٥٥.
(٣) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٣٥٧ و: ٣٧-٣٧١.
(٤) غنام، ص١٣٧.

مقاطعاتهم وبيوتهم(١). وكان عددهم من دير القمر وحدها نحو خمسماية ثائر تقريباً. وفي ٩ حزيران صدر مرسوم آخر لأهالي دير القمر، فحواه «بالعفو عن طلب السلاح منكم من الطرف العالي الخديوي الأعظم ومن طرف السرعسكر، وتحوزوا الاطمئنان وتتعاطوا أسباب معاشكم..».

وفي الوقت الذي استتبت فيه الأمور حول صيدا ودير القمر والمناصف والشحار، كانت الثورة في ضواحي بيروت تأخذ في التصاعد فخشي إبراهيم باشا أن يعود أهل الجبل إلى سابق عهدهم فأرسل إليهم مرسوماً يتوعدهم فيه حيناً ويطمئنهم حيناً آخر، ويخدرهم مهدداً بسوق ١٥ لواء من الجيش وفرق الفرسان والمدفعية لخراب الجبل وإراقة الدماء إن هم أصروا على الثورة والعصيان(٢).

ويبدو أن انتهاء الثورة على هذه الصورة سببه عدم تمكن المداخلات الأجنبية منها، واقتصار مطالب الثوار على المطلبين المشار إليهما سابقاً(٣)، خلافاً للمطالب التي رفعها الثوار في حرج بيروت والتي تناولت الوجود المصري برمته في بلاد الشام. ولا يخفى ما لهكذا طروحات من تدخلات خارجية يقف وراءها عملاء الدول الأجنبية من بريطانيين وروس وعثمانيين.

وإذا كانت الثورة ابتدأت على يد أهالي دير القمر وزعمائهم وتركزت حول صيدا وضواحيها، فإنها ما لبثت أن امتدت بلهيبها نحو بيروت على يد بعض الأمراء الشهابيين المعارضين لسياسة الأمير بشير. وكانت الدعوات توجه إلى مقاطعات المتن وكسروان والبقاع والشمال بغية استنهاض الأهالي وحضّهم على العصيان(٤). إذ ورد في النداء الذي وجهه الأمير محمود سلمان شهاب، وهو أحد أبرز قادة الثوار في بيروت، في ٢٩ أيار ١٨٤٠ إلى أهالي إقليم الخروب قوله: «إنه امتثالاً لأوامر حضرة مولانا السلطان

---

(١) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٣٦٣-٣٦٥.
(٢) فيليب وفريد الخازن، المحررات السياسية، ج١، ص١-٢.
(٣) إسماعيل، المحررات السياسية، ص١-٢.
(٤) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٤٠١.

عبدالمجيد... الصادر برفع المظالم وردع كل ظالم... نرغب من محبتكم أن تتوجهوا صحبة العساكر المتوجهة من قبلنا إلى نهر الأولي... »[1].

بدأت حركة العصيان في بيروت في الأول من حزيران ١٨٤٠ إثر خروج أحمد داغر من برج البراجنة وأبي سمرا غانم من بكاسين، وانضمامها إلى العصيان، وكان في الطليعة كل من فارس حسن شهاب وسلمان ملحم شهاب ومحمود سلمان شهاب وبعض الأمراء اللمعيين، كعلي ومنصور وقايدبيه وعبد الله شديد مراد وعلي فارس وإسماعيل حسن قايدبيه والأميران خنجر وسلمان حرفوش والشيخ فرنسيس أبو نادر الخازن وعفيف حكم وشمسين صفا وصاع هيكل وبشارة فرنسيس وولده حصن ويوسف عيد وعيسى الخوري ويوسف الشنتيري[2]. وقد اختير الشيخ فرنسيس الخازن قائداً للثوار ولقب نفسه «سرعسكر النصارى». واتفق الجميع على أن يتوجه الأمير محمود سلمان شهاب وأحمد داغر نحو جهات صيدا، والأمير علي منصور بو اللمع نحو المتن لجمع الرجال والسير بهم بعد ذلك إلى البقاع، على أن يتوجه أبو سمرا غانم نحو جهات طرابلس، بعد أن يأخذ شباناً من جبيل والبترون وبشري، بغية قطع الطحين عن بيروت.

كرّر الأمير أمين، وبناء لرغبة والده بشير، محاولته في لجم ثوار بيروت، فحضر إلى معسكرهم في ٩ حزيران حاملاً مرسوماً من السرعسكر إبراهيم باشا بالتطمين وعدم أخذ السلاح وعدم التجنيد. فكان جوابهم «إننا لا نطيع هذه الدولة ولا نسكن بمحل تحت تسلطها»[3].

على اثر انضمام الشيخ فرنسيس الخازن إلى جموع الثوار وتعهده بقيام الثورة في كسروان، اجتمع زهاء ١٢ شخصاً من الدروز والنصارى وبعض الشيعة، عرف منهم: فرنسيس الخازن - أحمد داغر - أبو سمرا غانم وغالب بليبل وفاعور حماده وحمود أبو علي، وشكّلوا ديواناً عسكرياً قضى بأن

(١) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٣٤١-٣٤٢.
(٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص١٧٦.
(٣) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٣٧٠.

يحلف «جمهور الدروز في جبل لبنان ونصارى ومتاولة وإسلام بوجه العموم» اليمين على مذبح كنيسة مار الياس أنطلياس.

لم يفلح الأمير بشير الثاني في إنهاء عصيان بيروت والمتن وكسروان، كما أفلح بالنسبة لعصيان دير القمر والمناصف والشحار، لأن «تداخل معهم الإفرنج فراحوا يشددونهم ويعلمونهم كيف يتطلبون، وأمدوهم بالذخيرة وبالرصاص والبارود، ووعدوهم بأنه سيرد إليهم في القريب ذخائر وجبخانه وسلاح. وهذا شيء صار ظاهراً غير مخفي لأن الأنفار الفرنج لا يفارقوهم دايماً والحالة هذه ... ونحن ننصحهم وننهيهم عن هذه الغاية وما كانوا يعقلوها ولا ينتبهوا إليها»(١).

ويستدلّ من الوثائق المتوافرة أن تدخّلات العملاء الإنكليز والعثمانيين قد بدأت في وقت مبكر واستمرت طوال حقبة الحكم المصري لبلاد الشام. ومن خلال ما ذكرنا تبيّن لنا أهمية الدور الأجنبي في تحريك مطالب الثوار ومدهم بمختلف وسائل المساعدة والعون، وهذا ما حدا بالأمير بشير على أن يكتب إلى إبراهيم باشا في منتصف حزيران ١٨٤٠ قائلاً: «إن تخميدهم بوجه التطمين والتأمين لا يجدي نفعاً لجهلهم وغرورهم ودخول يد الغير بينهم مما يزيدهم شقاوة وفجورا»(٢) ... «إن إصرار العصاة على عصيانهم بهذه الشدة ناشئ عن تدخل الأوروبيين المقيمين في بيروت في الأمر»(٣).

لم يستخف الأمير بشير بخطورة الوضع المستجد على الساحة اللبنانية، ففي أحد تقاريره إلى «أعتاب الخديوية» في حزيران يشرح وضع المتمردين كما يلي: «يصرون على عدم التنازل عن مطالبهم، ويديرون الأذن الصماء للنصائح بالعودة إلى الهدوء».

وفي نهاية تقريره يقترح الأمير بشير على العزيز إرسال، وعلى وجه السرعة، قوات

(١) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص ٣٨٤-٣٨٥.
(٢) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص ٣٨٢.
(٣) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص ٣٩٤.

لقمع الثورة وإنهائها، وفي حال تأخر وصول القوات الظافرة، ستعم الفوضى كامل البلاد... وستزداد مطالب الثوار، وقد عدد الأمير هذه المطالب كالآتي:

- بقاء السلاح في أيدي الأهالي.
- عدم إخضاع السكان للتجنيد الإلزامي.
- خفض الضرائب.
- خفض الربع على ضريبة الميري.
- إبطال السخرة والعمل في المعدن ومناجم الفحم الحجري.
- يختار الأهالي ستة مندوبين عنهم لمناقشة الحكومة المصرية في شأن هذه الشروط.

رفض الأمير هذه المطالب رفضاً قاطعاً، وكتب إلى محمد علي باشا يفيده بأن قواته جاهزة للمشاركة عسكرياً لقمع الثورة[١].

ثالثاً - حملة عباس باشا وتراجع الثورة:

كانت التقارير العسكرية تتوالى على محمد علي، حاملة إليه أخبار الثورة وتناميها في مختلف المقاطعات اللبنانية. فقرر القيام بنفسه على رأس حملة قوامها سبعون ألف رجل[٢]. إلاّ أنه آثر البقاء في مصر بعد أن عزل خسرو باشا عن مقام الصدارة العظمى مفضلاً عقد لواء قيادة الحملة إلى حفيده عباس باشا، وأن يكون قوامها حوالى اثني عشر ألف مقاتل[٣]. وفور وصولها إلى لبنان يتولى عباس باشا مهاجمة الثوار في جهات بيروت، يعاونه الأمير بشير ويقوم سليمان باشا بضربهم في مناطق الساحل الممتدة من طرابلس إلى صيدا بقواته البالغ عديدها نحو عشرين ألف جندي، في حين يستمر عثمان باشا، الذي قدم من شمالي سوريا إلى بعلبك بنحو اثني عشر ألف مقاتل، في ضرب الثوار في مناطق زحلة.

كان لقدوم عباس باشا أثر كبير في تجدد أعمال العنف في غير مقاطعة، فما أن نزلت قواته في بيروت أواخر شهر حزيران من العام ١٨٤٠، حتى بدأت بعض المناوشات بين الثوار والجند المصري وسجل خلالها ثوار

---

(١) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٣٩٤.
(٢) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٣٧٠.
(٣) رستم المحفوظات، ج٤، ص٣٧٧-٣٧٨.

بيروت نصراً ملحوظاً إذ ألحقوا بالمصريين نحو خمسة وعشرين قتيلاً.

في هذه الأثناء أرسل الثوار إلى الأمير بشير جملة شروط أهمها:

- عدم نزع الأسلحة من أيدي السكان على مختلف طوائفهم.
- عدم دعوة السكان إلى التجنيد الإلزامي.
- أن يكون العمل في المناجم اختياراً وليس سخرة.
- خفض الضرائب والفردة.
- العفو عن الأسلاب وغنائم الحرب في المعسكرين.

وقد وقّع على لائحة الشروط كل من: خنجر الحرفوش - علي فارس وعلي قايدبيه بحضور الشاهد الأمير عبد الله مراد. فكان من الطبيعي ألا تقبل الحكومة المصرية بهذه الشروط، فقرر إبراهيم باشا الانقضاض على الثوار في جبهتين: بيروت وزحلة. ولأجل هذه المعركة جمع القوات التالية:[1]

- ١٥٠٠ بغدادي (من دمشق).
- أربعة أفواج من القوات غير النظامية (من مصر).
- فوجان ونصف الفوج بقيادة سليمان باشا.
- فوجان في بيروت بقيادة عثمان بك.
- قوات عثمان باشا.

رابعاً - المعركة وقمع الثورة:

(أ) - معركة زحلة ومناوشات المتن (نهاية حزيران إلى ١٠ تموز):

خشي الأمير بشير الثاني عاقبة انتصار الثوار، فأوفد حفيده مسعود لمرافقة الجنود المصريين القادمين من صيدا إلى بيروت، كما أرسل حفيده الآخر مجيد ليكون قريباً من عباس باشا، في حين كان أرسل حفيده الثالث ابن الأمير خليل للمشاركة في قمع عصيان الثوار في جهات زحلة إلى جانب عثمان باشا[2].

كان عدد الثوار في البقاع حوالى الألف يقودهم كل من الأميرين خنجر الحرفوش

(١) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٣٩٦-٣٩٧.
(٢) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٤٠٥-٤٠٦-٣٩١.
- بازيلي، ص٢٦٩.

وعلي فارس، وقد توجهوا نحو مدينة زحلة بغية جلب أهلها إلى معسكرهم ضد المصريين(١). وكان عثمان باشا قد ركز معسكره قرب المدينة ومعه الأمير محمود شهاب. وعندما علم الباشا بتقدم الثوار نحو زحلة أرسل الأمير محمود على رأس كتيبة من قواته لاستطلاع الوضع، وكان ذلك نهار الاثنين. وفي الساعة التاسعة والنصف وصل الأمير إلى جوار زحلة فشاهد طليعة الثوار تتقدم في اتجاهه، فأفاد على الفور عثمان باشا الذي انطلق لملاقاتهم على رأس قوة مؤلفة من فوج سواري وثلاثة مدافع وجنود الباشي بوزوق(٢). وما أن أصبحت القوتان في مواجهة بعضها البعض، حتى أمر الباشا بقصف الثوار بالمدافع، ثم قام الباشي بوزوق ورجال الكتيبة بالهجوم عليهم بالسلاح الأبيض. بقيت المعركة محتدمة طيلة النهار، وانتهت مساء بهزيمة الثوار وقد تركوا وراءهم عدداً كبيراً من القتلى قدرته المصادر يومذاك بحوالي أربعماية قتيل من دون حسبان الجرحى والأسرى، ومئة من المصريين. أما الباقي منهم فقد هرب تحت جنح الظلام إلى منطقة المريجات بوارج،(٣) فلاحقتهم القوات المصرية إلى هناك وضربتهم وشتتت تجمعاتهم، بمعاونة الأمير محمود شهاب ومحمود عبد الهادي مدير إيالة صيدا وإسماعيل عاصم بك مدير عكا وأخيه الشيخ سليمان عبد الهادي متسلم نابلس(٤). أحرقت القوة بوارج ثمّ انتقلت إلى كفر سلوان، فأمضت فيها أربعة أيام جمعت خلالها أسلحة أهالي المتن. ومن هناك تابع عثمان باشا تقدمه إلى نبع صنين، ونبع بقليّع، حيث استسلم إليه بعض قادة الثورة، كالأمير علي والأمير فارس وأبناء أخ الأمير حيدر(٥). وكان عثمان باشا قد أرسل كتيبة من قواته إلى حمانا فالتقاهم أهلها بإطلاق الرصاص، لكنهم ما لبثوا أن انهزموا أمام العسكر الذي دخل البلدة ونهبها.

(١) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٣٩٨ و ٤٠٣.
(٢) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٣٩٨.
(٣) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٣٩٨.
(٤) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٤٠٩-٤١١ و ٤١٤.
(٥) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٤١٨.

وصل الأمير أمين ابن الأمير بشير مع خمسماية من رجاله إلى جرود المتن، ونزل مع عثمان باشا على نهر بقلّيع، وبدأ بجمع السلاح من الأهالي، فتقدم منه يوسف الشنتيري وبرّأ نفسه فامّنه وأبقى له سلاحه، كذلك قدم إليه الأمير حيدر إسماعيل اللمعي فأمّنه بقسم وأرسله إلى بيت الدين حيث وضعه الأمير بشير في السجن، كما استدعي الشنتيري وأدخله بدوره إلى السجن. في هذه الأثناء ثم إلقاء القبض على أكثر رؤوس الثورة في المتن من الأمراء اللمعيين والشهابيين الواردة أسماؤهم سابقاً وأرسلوا جميعاً إلى سجن بيت الدين.

(ب) - القضاء على الثورة
(٢٠ تموز ١٨٤٠):

كان الثوار من أهالي دير القمر قد بلغهم خبر الهزائم التي حلت بالثوار في زحلة والمتن وضواحي بيروت، فعادوا إلى بلدتهم طالبين التسليم والأمان[١]. ففر محمود علي إلى الحازمية وتفرق شمل الثوار في مختلف المقاطعات.

أما الأمير مسعود شهاب فعاد إلى بيت الدين ورجع الأمير مجيد إلى بيروت متعمداً في طريق عودته نهب معلقة زحلة وحرقها. وفي الحازمية قرر قادة الثورة الانفضاض، فسار فاعور قعدان شهاب إلى غزير والأمير محمود شهاب إلى دير القلعة والأمير يوسف شهاب إلى حرش الزيرة، والأمير فارس شهاب إلى بيت الدين. وسار خنجر الحرفوش وأخوه سليمان إلى زوق مكايل في كسروان من أجل جمع الرجال. أما الأمراء اللمعيون فقد تشتتوا في مقاطعات مختلفة وسار سرعسكر النصارى الشيخ فرنسيس الخازن إلى كسروان حيث اختبأ هناك[٢].

وتقول الحوليات يومذاك إنه عندما وصل خنجر الحرفوش وشقيقه سلمان إلى المعاملتين ألقي القبض عليهما، وعلى ستة أشخاص كانوا معهما، واقتيد الجميع إلى غزير حيث أمر عبدالله بن حسن شهاب بوضعهم في السجن.

---

(١) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٤٠٨ و٤١١.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٣٣.

وما أن ذاع خبر إلقاء القبض على خنجر الحرفوش وحبسه لدى الأمير عبد الله، حتى انحدر نحو مائة رجل من قرى كسروان والفتوح نحو غزير وهاجموا السجن وأخرجوا منه كل المساجين واسترجعوا الأسلحة وانحدروا جميعاً نحو جونية، فانضمّت إليهم بعض الجماعات، ثم ساروا جميعاً نحو المكلس لإثارة مقاطعة المتن من جديد(١).

وما أن بلغ عباس باشا تفرق الثوار أمر بإلقاء القبض على المذنبين وفق أوامر محمد علي باشا. فالتمس الأمير فاعور من الأمير عبد الله حسن التوسط لدى الأمير بشير ففعل، ووضع في الإقامة الجبرية. فور وصوله إلى بتدين. ومنع عن الخروج من السرايا. أما الأمير محمود «فأبى الرهبان أن يختبئ عندهم فتوجه إلى نهر قرية بسوس».

نهض عباس باشا بالعسكر من بيروت إلى الحازمية، ومعه الأمير مجيد شهاب، ومن هناك انطلقوا نحو حمانا، وعند وصولهم إلى المكلس أطلق رجال الأمير خنجر الحرفوش النار عليهم، مما دفع بالأرناؤوط إلى مهاجمتهم ففر خنجر ومن معه باتجاه جرد العاقورة وأحرق الجنود منازل المكلس والمنصورية وبيت مري ودير القلعة وعادوا إلى المعسكر. وفي غد اليوم التالي نهب الأرناؤوط بعض بيوت في وادي شحرور، وقتلوا خوري الكحالة(٢) لتعاطفه مع الثوار.

في العاشر من تموز، في الوقت الذي كانت حدة الثورة تتراجع في مناطق متعددة، جمع الأمير خليل ألفاً من رجاله من الشوف والعرقوب وداهموا دير القمر وجمعوا السلاح من أهاليها. بعد ذلك وجه الأمير بشير ولده خليل وبعض أحفاده على رأس خمسين خيالاً وثلاثمائة راجل من الشوف إلى بيروت. ومنها ذهب الأمير سعيد ابن الأمير خليل إلى بلدة الشويفات فجمع السلاح منها، في حين توجه والده خليل من

(١) الشدياق، عاثل، ص٢٣٤.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٣٤.

الساحل إلى كسروان، فجمع الأسلحة من السكان بقسوة بالغة، وأكره من لا سلاح لديه على أن يشتري سلاحاً ويقدمه للدولة، وأغلظ القول لكل من لم يكن من حزب والده الأمير بشير الثاني(١).

أما في ما يتعلق بمنطقة الشمال فقد عاد أبو سمرا غانم ليستنهض قوى الثوار من جديد، فقام مع المشايخ الرعدية وقتلوا متسلم الدولة في بلاد الضنية إبراهيم السلطي. فوجه إليهم حاكم طرابلس قوة من عسكره، قابلها الثوار وقتلوا منها عدداً، لكن المصريين عادوا وهاجموا الثوار في اليوم التالي فبددوا تجمعاتهم وقتلوا منهم نحو ثلاثين رجلاً وأسروا عشرة، فتراجع أبو سمرا إلى وادي موسى حيث جمع مائة وخمسين متطوعاً وقصد بهم متسلم عكار فقتله واستولى على أربعة من خيله، ثم نهب قرية الريحانية عند نهر البارد. بعدها قصد جرد عكار حيث انفضت جماعات الثوار عنه، فاختبأ في مزياره، ومن ثم في دير قزحيا، فأرسل الأمير مجيد حفيد الأمير بشير خمسماية رجل للقبض عليه(٢).

في ١٩ تموز ١٨٤٠ يمكن اختصار وضع القوات المصرية على الشكل التالي:

- القوات المصرية التي خرجت من بيروت، أقامت في حمانا.
- القوات المصرية التي خرجت من منطقة زحلة، مرّت في بسكنتا في طريقها إلى نبع العسل في كسروان.
- الأمير خليل شهاب، انتقل إلى الزوق لجمع سلاح الأهالي في كسروان(٣).

في هذه الأثناء، وجّه البطريرك الماروني يوسف حبيش نداءً إلى الكهنة والرهبان وكل السكان في جبل لبنان، طالباً منهم التمرد ضد السلطات المصرية، ومهدداً كل رجل يتقاعس أو يتأخر عن الالتحاق بصفوف الثوار أو يقدم على عدم طاعته

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٣٥.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٣٥.
(٣) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٤١٥-٤١٦.

بإنزال الحرم الكنسي عليه مهما كانت مرتبته الاجتماعية[1].

في ٢٠ تموز ١٨٤٠ قام عباس باشا، على رأس لواء من قواته قاصداً عاصمة الإمارة، فالتقاه الأمير بشير في كفر نبرخ. أمضى عباس باشا قرابة الأسبوع في بيت الدين، تمكن خلاله من إتمام عملية جمع سلاح أهالي دير القمر. كما أصدر أمراً يقضي بتقديم /٥٣٠/ جندياً من الشبان الدروز، وهم العدد الناقص لإتمام الألوية النظامية. كما تم في هذه المرحلة جمع سلاح مقاطعات جبيل والبترون وكسروان وجبة بشري، فبلغ ما جمع منها حوالى أربعة آلاف بندقية، تم تسليمها للقوات المصرية في بيروت[2].

وما ان أشرف شهر تموز على نهايته حتى كان كل زعماء الثورة قد غيبوا عن ساحة الصراع قتلاً أو أسراً أو اختفاءً أو اختباءً. فسّر عسكر النصارى فرنسيس الخازن هرب إلى قبرص، ثم تبعه الأمير إسماعيل اللمعي وبشارة الخازن وولده حصن وروفايل الخازن[3].

واختبأ أبو سمرا غانم في الشمال. اما أحمد داغر، أحد أبرز القادة، فقد تمكن أعوان الأمير بشير من قتله بواسطة أحد عملائه وعملاء المصريين المدعو حسين السلمان الذي «أمسكه في بلاد المتاولة وقتله» وأرسل رأسه إلى بيت الدين. أما الأمير، وحبّاً منه باستئصال كل الأعيان والمناصب في بلاد الشوف، والذين لم يقفوا بجانبه، فأمر بإلقاء القبض على الشيخ حمود وولده الشيخ قاسم والشيخ عباس ناصيف النكدين وزجهم في سجن بيت الدين بالانفراد. بعد ذلك نفذ الأمير بشير تعليمات عباس باشا بوجوب نفي الأسرى إلى بلاد مصر، فتم نقلهم إلى صيدا وبيروت، ثم أرسلوا إلى عكا ومن هناك «إلى الإسكندرية بحراً في مركبين مقيدين أزواجاً أزواجا»[4]. وكان عددهم

(١) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٤١٦.
(٢) إسماعيل، المحررات، ج٦، ص١٢٣.
(٣) الشدياق، ج٢، ص٢٣٦.
(٤) الشدياق، ج٢، ص٢٣٦.

سبعة وخمسين منفياً، وكانوا من مقاطعات المتن ومن المناصف والشحار، وتحديداً من بسكنتا والشويفات ووادي شحرور وعبيه وبكفيا وكفرسلوان وصليما وبعبدات وبيت مري وشويت والعبادية والمعلقة وكفرمتى وكفرفاقود والجاهلية وعجلتون[1].

هكذا تمكنت القوات المصرية من وضع حد لمجمل الانتفاضات التي قامت في ربيع ١٨٤٠، وقد ساعدها في ذلك انعدام التنسيق العسكري ما بين مجموعات الثوار في ما بينهم ومجمل سكان المقاطعات اللبنانية؛ والدور المثبط الذي قام به الأمير بشير الثاني وأولاده لدى الثوار، متبعاً تجاههم شتى أساليب الترغيب والوعيد والترهيب.

في هذه الأثناء بالضبط كانت الدول الأوروبية الكبرى آنذاك تهيئ مسودة مشروع يحظى بالإجماع ويقضي بإعادة بلاد الشام إلى السلطنة العثمانية.

٥ - سقوط الأمير بشير الثاني الكبير (١٨٤٠)

عندما شعرت الدول الأوروبية الكبرى (إنكلترا، بروسيا، روسيا والنمسا) حليفة السلطنة العثمانية، بأن محمد علي باشا كان قادراً على إنهاء الثورة والعصيان في بلاد الشام، قررت التدخل فعلياً ومباشرة لإنهاء الحكم المصري فيها، وإعادتها إلى السطان العثماني. لذلك اجتمعت هذه الدول في ١٥ تموز ١٨٤٠ في لندن على شكل مؤتمر دولي في سبيل أخذ قرار سري لطرد الحكومة المصرية من بلاد الشام، وعلى رأسها إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا عزيز مصر.

في ١٤ آب ١٨٤٠، وصل الكومودور نابييه (NAPIER) قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط إلى شاطئ بيروت. ولدى وصوله أصدر، عن ظهر الدارعة الحربية - باورفول، نداءً سياسياً إلى أهالي بر الشام، أشار فيه إلى اتفاق الدول الكبرى في لندن

---

(١) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٤٢٧.

وإلى الفرمان السلطاني الإصلاحي، وحضّ الأهالي على الثورة ضد المصريين، مؤكداً أن السفن المصرية لن تقوى بعد اليوم على إزعاجهم. وكتب إلى محمود نامي بك محافظ بيروت يشعره باتفاق الدول على إعادة بلاد الشام إلى السلطان، ويطلب إليه أن يضع الجنود العثمانيين الموجودين في بيروت تحت سلطته وأن يعيد سلاح اللبنانيين إليهم. وخص الأمير بشير الثاني برسالة يدعوه فيها لطاعة السلطان ويعلمه بما تمّ في لندن(١).

وفي هذه الأثناء كان معتمد سفير بريطانيا في الأستانة المستر ريتشارد وود قد وصل إلى لبنان، وراح يتصل بالثوار لإذكاء نار الثورة، فاجتمع في بيروت برؤوساء «عامية الحرج»، وأشار عليهم بأن يكتبوا إلى الدولة العثمانية وإلى سفراء الدول ملتمسين إنقاذهم من حكم «الدولة المصرية». ثم ذهب إلى طرابلس، ومنها إلى بشري، حيث اتصل بأبي سمرا غانم زعيم الثورة هناك. وبعد عودته كتب إلى الأمير بشير يذكره بالحديث الذي دار بينهما العام ١٨٣٦ ويؤكد له تفاهم الدول الكبرى على إعادة بلاد الشام إلى السلطان، وما عليه إلاّ الانضمام إلى الشرعية وترك المصريين.

ضمّ الأمير بشير رسالة المستر وود إلى رسالة نابيه وأرسلهما إلى العزيز عارضاً ما يتعرض له من ضغوط إنكليزية لفك ارتباطه «بالأعتاب الملوكية»، ثم يقول له: «وأما عبدكم هذا فإني أنا وعبيد أعتابكم أولادي وأحفادي مستعدون كل وقت للموت بخدمة دولتكم من دون تردد ولا انتقاص»(٢). وهكذا ربط الأمير بشير الثاني مصيره بمصير محمد علي في بلاد الشام، بالرغم من الإنذار الذي وجهه له الكومودور الإنكليزي في ١٣ آب، دافعاً إياه للعودة إلى طاعة السلطان، ومهدداً إياه بنتائج أسوأ مما يعتقد في حال بقائه مرتبطاً بمحمد علي.

اشتركت الدول الكبرى مع قوات السلطان العثماني في إذكاء نار الثورة من جديد. فتنامت حركات العصيان ضد المصريين في طول البلاد وعرضها، خاصة أن

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص٢٠٠.
(٢) رستم، المحفوظات، ج٤، ص٤٣١.

الثوار كانوا مدعومين من الباب العالي والدول الكبرى والرأي العام. وقد تسلموا كميات كبيرة من الأسلحة الجديدة والذخيرة المتنوعة، إما عبر الحدود السورية التركية أو عن طريق المراكب الإنكليزية والتركية التي كانت ترسو بين الفينة والفينة في المياه اللبنانية الشامية.

رغم كل هذه الإشارات بقي الأمير بشير الحليف المخلص لمحمد علي باشا، وقد اشترك إلى جانب المصريين في معارك عدة، عبر أولاده وأحفاده، نذكر منها:

- معركة كسروان، بين حفيده الأمير مجيد ورجاله ضد حوالى ٦٠٠ من الثوار في أوائل تشرين الأول ١٨٤٠. وقد انتهت بهزيمة الثوار ومقتل ٧٥ منهم وجرح العدد الكبير. واستولى مجيد على مئة بندقية[١].

- معركة وطى الجوز التي وقعت في أوائل تشرين الأول وقد اشترك فيها الأمير مجيد إلى جانب المصريين وانتهت بهزيمة خنجر الحرفوش[٢].

- معركة بيت شباب التي وقعت في منتصف تشرين الأول بين الجيش العثماني والمصريين يؤازرهم الثوار. وقد مني إبراهيم باشا بهزيمة نكراء نهائية. بعدها رجع رجال الأمير وأولاده وأحفاده إلى بيت الدين، وكانت المعركة الأخيرة التي اشترك فيها الأمير بشير إلى جانب حلفائه المصريين[٣].

قبل هذه المعارك اتصل العثمانيون ومن ثم الحلفاء، بالأمير بشير الثاني، ولأكثر من مرة، يطلبون إليه الاستسلام والانتقاض على إبراهيم باشا، واعدين إياه بولاية الجبل له ولذريته من بعده، وقد أعطوه مهلة للانضمام إليهم تنتهي في ٨ تشرين الأول ١٨٤٠، لكن رده كان بالاعتذار عما طلب إليه بحجة وجود أولاده وحفدته بين عساكر إبراهيم باشا، وكان مُغرّراً بإخبار النجدة الفرنسية التي ستصل إلى حكومة محمد علي[٤]. وتروي

(١) إسماعيل، المحررات، ج٥، ص٤٤٣.
(٢) إسماعيل، مماثل، ص٤٤٧.
(٣) إسماعيل، مماثل، ص٤٤٩-٤٥٢.
(٤) الشدياق، ج٢، ص٢٤٠-٢٤١.

حوليات يومذاك، أن الأمير بشير عاد ليبلغ الحلفاء سراً استعداده للانضمام إليهم، طالباً منهم إبقاءه حاكماً بضمانة الدول الأربع، فلم يوافقوه على ذلك.

ويبدو من خلال تحركات إبراهيم باشا العسكرية، وتنفيذاً للتعليمات السياسية الواردة إليه من مصر، إنه كان بصدد تنظيم «إنسحابات وتراجعات تكتية» توفر على المصريين مزيداً من الخسائر البشرية والمادية.

استمرت الحرب طوال الفصل الأخير من السنة ١٨٤٠. وانتهت بسحق إبراهيم باشا وحليفه الأمير بشير شهاب وخروجه النهائي من بلاد الشام. وما أن حل التاسع والعشرون من شهر كانون الأول ١٨٤٠ حتى كانت آخر فلول المصريين تغادر دمشق باتجاه المزيريب. وقد قدّر عديد الجيش المنسحب بخمسة وخمسين ألف جندي، تضاف إليهم سبعة آلف من عائلاتهم المدنيين(١)، ويقال إن العديد كان سبعين ألفاً... والله أعلم!.

لم يكن مصير الأمير بشير الثاني أفضل من مصير حليفه إبراهيم باشا، إذ كانت إنكلترا صاحبة الحل والربط في الأمر، فقد استصدر ريتشارد وود فرماناً سلطانياً من دون تاريخ يقضي بعزل بشير الثاني وتولية الأمير بشير الثالث مكانه، وهو الملقب «أبو طحين»(٢). وقد أعطى الإنكليز لهذا الفرمان تاريخاً سابقاً هو الثالث من أيلول ١٨٤٠.

في ١١ تشرين الأول، قام الأمير بشير الثاني الكبير من بتدين باتجاه الساحل، مصطحباً أولاده الثلاثة وزوجته الست حسن جهان وأحفاده ومدبره وبعض الأعيان والمناصرين، وحوالى الثلاثين نفراً، ومعه ماله وأكثر مثمّناته. قيل وكانت خزنته ثمانية عشرة ألف كيس من النقود الذهبية القديمة(٣). عدا عن أمواله المنقولة وغير المنقولة ومثمناته التي أودعها في بعض أديرة الجبل(٤). دخل الأمير بشير صيدا في اليوم

---

(١) رستم، المحفوظات، ج ٤، ص٤٩٥.

(٢) باز، مذكرات، ص٣٦.

(٣) الشدياق، ج٢، ص٢٤٥.

(٤) باز، مذكرات، ص٨٦.

التالي لمغادرته، بعد أن نام وعائلته خارجها في بستان إبراهيم آغا الجوهري[1]. وفي اليوم الثالث عاد إلى بيروت على ظهر مركب ناري يرافقه ولده أمين وحفيده محمود وعدد من مناصريه، لمقابلة السرعسكر العثماني عزت باشا والأميرال الإنكليزي ستوبفورد[2]. وفي بيروت أبلغ الأمير قرار عزله عن إمارة الجبل وضرورة مغادرته البلاد منفياً، وطلب منه أن يختار محلاً لإقامته، باستثناء فرنسا وبلاد الشام ومصر. وقد اختار جزيرة مالطة، لذا لقب بالمالطي[3]. لقد انهار مجد الأمير بشير وانفتح الباب المؤدي إلى انهيار الإمارة الشهابية.

بعدها قام بشير يستعد للرحيل، فاستدعى بعض أحفاده ومساعديه، بمن فيهم بطرس كرامي ورستم باز ونحو سبعين رجلاً من خدمه. وفي اليوم المحدد لسفره قدم «بابور حربي اسمه «صاق لبس» فأقل الأمير بشير وزوجته الشركسية الأصل ذات الثلاثة والعشرين عاماً وسائر حاشيته من مرفأ صيدا، وذلك قبل غروب الشمس بساعة واحدة من يوم الأربعاء الموافق في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول ١٨٤٠، وكان قد بلغ سني العقد السابع من عمره. وبعد إقامة في مالطة مدتها أحد عشر شهراً سافر إلى إسطنبول حيث سكن فيها وتوفي السنة ١٨٥٠. وفي سنة ١٩٤٧، نقلت رفاته إلى قصر بيت الدين.

٦ – سقوط الإمارة الشهابية (١٨٤٢)

٦١ - الأمير بشير قاسم ملحم شهاب حاكماً على الجبل (١٨٤٠):

في التاسع من تشرين الأول ١٨٤٠ نودي بالأمير بشير قاسم ملحم حاكماً على إمارة الجبل وعلى عشائر الدروز، بناءً على الفرمان السلطاني الذي قضى بعزل الأمير بشير الثاني وتولية بشير هذا مكانه. وقد أعطى الإنكليز لهذا الفرمان، كما قلنا سابقاً، تاريخاً

(١) باز، مذكرات، ص٣٨.
(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٤٥-٢٤٦.
(٣) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ج٢، ص٢١١.

سابقاً هو الثالث من شهر أيلول ١٨٤٠. وقد جاء في حيثيات هذا الفرمان «الواجب القبول والاتباع في جميع البلدان البعيدة والقريبة، وإلى مشايخ وعشائر الدروز وعين أعيان الجبل زادهم الله طاعة.. إنه كان من المتوجب على الأمير بشير أن يأتمر بالأوامر التي صدرت إليه... بيد أنه لم يقم بهذه الشروط الأساسية... سالكاً مسلكاً مخالفاً لما كنا ننتظره منه. أما أنت أيها الأمير... فقد برهنت على إخلاصك... وفي عداد الواجبات المفروضة عليك حماية الأهالي وعشائر الدروز... وأنتم يا مشايخ الدروز... يقتضي عليكم كما هو الواجب أن تتحدوا معه... لإتمام إرادتنا... محافظين على حقوقنا الشرعية فاحترسوا من أن يشاهد منكم أدنى مخالفة لإرادتنا السلطانية من شأنها الإجحاف بسلطتنا في ممالكنا الموروثة»(١).

ما أن استحوذ ريتشارد وود وبلدوين والكر الإنكليزيان على نسخة من هذا الفرمان حتى انطلقا يفتشان عن الأمير بشير قاسم في جبهات القتال، وقد توصلا للاجتماع به في ميروبا بينما كان يقاتل المصريين، وأبلغه وود نبأ تعيينه حاكماً على الجبل، وكان المستر وود قد طلب من بعض الأعيان اللبنانيين اللحاق به إلى كسروان، وفور وصولهم قرأ على مسامعهم الفرمان السلطاني الآنف الذكر، فوافق الجميع ودعوا للباب العالي بالعزة والنصر المبين.

وبسقوط بشير الثاني ومجيء بشير الثالث، بدأ عهد جديد في تاريخ الإمارة. وقد كان بشير الثاني، حتى أواخر حكمه، ممسكاً بزمام سياسة البلاد الداخلية، مسيطراً على الإنقسامات الطائفية والحزبية التي طالما ساهم في إيجادها. أما الآن فقد زالت بزواله.

٦٢ - الثورة على الأمير بشير الثالث (أبو طحين) وسقوط الإمارة (١٨٤١-١٨٤٢):

أول من ثار على هذا الأمير الذي عيّنه العثمانيون حاكماً على جبل الدروز وعلى

(١) الخازن، فيليب، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية من سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩١٠، عربت عن الفرنسية، مطبعة الصبر، جونية ١٩١٠، ص٢١-٢٢.

عشائر الدروز، وطالب برحيله، كانوا عشائر الدروز أنفسهم. لقد أتبع الأمير بشير تجاههم سياسة خاطئة ملؤها الحقد والضغينة. وفي الوقت الذي كانت تدور مراسلات لإعادة أعيان الدروز الذين سبق ونفوا إلى سنار في بلاد السودان خلال ربيع ١٨٤٠، كان الشيخ نعمان جنبلاط والشيخان عبد السلام وخطار العماديين والشيخ ناصيف نكد وولده عباس ينزلون إلى يافا، بعدما قدموها براً من مصر. فلما بلغ النكديون أمر قدوم زعمائهم، نهض بعضهم من معسكر بشير الثالث في عكا لملاقاتهم، وحضروا معهم للسلام على السرعسكر العثماني الذي استقبلهم بالبشاشة والإكرام، ثم أمرهم بالتوجّه إلى معسكر الأمير بشير الثالث. في صباح اليوم التالي حضر أعيان الدروز إلى خيمة بشير شهاب «يسلمون عليه، فازدرى بهم وبألقابهم وشاراتهم العسكرية التي منحها العزيز إليهم، (سعيد جنبلاط بيك باشي، ونعمان أخيه وناصيف نكد وخطار وعبد السلام، أميرالاي مع أوسمة) «وأسمعهم كلاماً نابياً يخفض مقامهم. فشق ذلك عليهم لأنهم لم يذنبوا ضده، فخرجوا من عنده نافرين وتوجهوا إلى عكا مغتاظين ثم رجعوا إليه وأكمنوا الغيظ في قلوبهم»[١].

في آذار ١٨٤١ عاد بشير الثالث إلى البلاد، ولدى وصوله إلى بلدة الدامور، أمر الأعيان والمشايخ الذين كانوا برفقته بالعودة إلى منازلهم، وتوجه هو إلى داره في سبنيه القريبة من بعبدا[٢] وجعل بعبدا عاصمة لإمارته. ولقد كان شخصية ضعيفة غير مؤهلة لأخذ القرارات الحاسمة، وإذا أخذ بعضها فعن تهور وعدم تروي. لم يكن رجل الساعة الذي يقف بوجه الأوضاع الصعبة التي كانت البلاد تمرّ بها، لذلك بدأ زعماء الدروز الإقطاعيون، وسواهم ممن أجبروا على ترك البلاد في أواخر الحكم المصري، بالعودة إليها والمطالبة بالحقوق والامتيازات والإقطاعات التي خسروها في العهد

(١) الشدياق، ج٢، ص٢٤٨.

(٢) الشدياق، ج٢، ص٢٤٩.

السابق. وكان يتزعم هؤلاء العائدين نعمان وسعيد جنبلاط، ولدا بشير جنبلاط الشهير الذي نكب وقتل في عهد بشير الثاني[١].

وفي لبنان انضم إلى المشايخ العائدين كبار زعماء الدروز، أمثال حسين تلحوق وأمين أرسلان، من الذين فقدوا في عهد بشير الثاني كثيراً من مكانتهم وممتلكاتهم من دون أن ينفوا من البلاد. ولم يلبث هؤلاء معاً أن طالبوا بشير الثالث بأن تعاد للأسر الدرزية الإقطاعية سيادتها التامة على الأنحاء الخاصة بكل منها. لم يعط الأمير بشير بالاً لهذه المطالب وسخر من مطلقيها، لا بل ألقى القبض على بعض المطالبين ونزع من البعض الآخر ما تبقى لهم من امتيازات، وزاد على أعدائه الدروز أعداءً آخرون من المسيحيين، مثل بيت الخازن وبيت حبيش في كسروان[٢]. فزاد عدد أعدائه في طول البلاد وعرضها، خاصة وأن القنصلية الفرنسية ساندت آنذاك المقاطعجية الدروز والموارنة في آن واحد ودفعتهم للقيام ضد الأمير الحاكم، والسبب أن الفرنسيين تزايدت مخاوفهم من نفوذ البريطانيين لدى الأمير في بعبدا.

رفض الأعيان التعاون مع الأمير، وسرعان ما وقعت البلاد في فوضى، وعجز بشير عن إنقاذ هيبة الحكم أو فرض إرادته على البلاد. وزاد في عجزه أنه، على عكس سلفه، لم يكن على شيء من المهابة مما يحببه إلى عامة الشعب[٣]. هذه البلبلة التي عمت البلاد استغلها المقاطعجية كفرصة سانحة للمطالبة بإقالة الأمير بشير الثالث (أبو طحين) من الإمارة والمناداة بالأمير سلمان شهاب من وادي شحرور، خلفاً له والذي حكم الإمارة بين ١٨٢٠-١٨٢١. وكان سلمان هذا سنياً، تربى على المسيحية المارونية، وعرف عنه ميله إليها. ولا شك في أنه كان أكثر شعبية وأقدر على حكم البلاد من بشير بو طحين. لكن البطريرك الماروني يوسف حبيش عارض التعيين وأصرّ على أن يكون حاكم الإمارة من الطائفة المارونية. وعندما اقترح القنصل الفرنسي، الأمير الماروني حيدر أبي اللمع

(١) الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٧١.

(٢) الصليبي، ص٧٦-٧٨.

(٣) الصليبي، ص٧٨.

خلفاً لبشير الثالث، وكان صديقاً للبطريرك، وافق الإنكليز بحماسة على ترشيحه، عندها رفض البطريرك هذا المرشح وأصر على بقاء الأمير بشير بو طحين على كرسي الإمارة، آملاً في أن ازدياد الحالة سوءاً على يد هذا الأمير قد ترغم العثمانيين على إعادة الأمير بشير الثاني الكبير إلى سدة الحكم[1]. ولكل مصالحه وحساباته... والله أعلم...؟؟

أمام هذا الواقع عاد التباعد بين الموارنة والدروز، وتفاقمت أسباب الخصومة بين الطائفتين، وتذكّر بنو معروف تعاون الموارنة مع المصريين ضدهم في وادي التيم وحوران. ثم كان أن وقعت في أوائل ١٨٤١ حادثة ربما كانت بداية الاصطدام الدموي بين الدروز والموارنة في لبنان، سببها أن مارونياً من دير القمر اصطاد يومذاك حجلاً على أرض احد دروز بعقلين، فوقع جراء ذلك خصام، اتخذ في الحال، صبغة طائفية، فقتل من قتل وجرح من جرح. وفي وقت قصير تمت المصالحة وأعلن الدروز والموارنة نسيان الماضي.

في ١٣ تشرين الأول ١٨٤١ دعا بشير الثالث زعماء الدروز إلى اجتماع في دير القمر للنظر في توزيع الضرائب وفي بعض القضايا الأخرى، ولبّى الزعماء الدعوة، يواكبهم رجالهم وعدد من فرسان وادي التيم وحوران. تخوّف الأمير من ضخامة عدد القادمين المسلحين، ولم يطل الوقت حتى نشب القتال داخل دير القمر، فنهبت المنازل والحوانيت وأشعلت النيران فيها، ونزلت الخسائر بالجانبين ومنها مقتل أربعين شخصاً من الموارنة وبضعة دروز، بمن فيهم أحد مشايخ بيت بو نكد. عندها لجأ الأمير إلى قصر الإمارة القديم في دير القمر، ومنه أرسل إلى بيروت في طلب مساندة العثمانيين. استمر القتال لمدة يومين أو أكثر، ولم يتوقف إلاّ بعد ان تدخل كلّ من سليم باشا والي بيروت والقنصل الإنكليزي روز. إثر ذلك انتشر القتال في أنحاء أخرى من البلاد، وزحفت جماعات الموارنة من إهدن وزحلة وبعبدا وجزين للدفاع عن دير القمر، فاصطدمت في طريقها بفرق عسكرية عثمانية من الباشي بوزوق الذين وقفوا إلى جانب الدروز. وازدادت الحالة سوءاً وبدأت القلاقل تجتاح أنحاء أخرى من البلاد، في

(١) الصليبي، ص٧٩.

طليعتها منطقة البقاع: مثل راشيا وحاصبيا وزحلة وغيرها.

وحينما حوصر بشير الثالث في دير القمر لم يجد بين النصارى من يهبّ إلى نجدته، فهاجم الدروز القصر في دير القمر في أوائل تشرين الثاني وقبضوا على الأمير بشير وأساءوا معاملته. بعد كل ذلك قرر العثمانيون التدخل لتسوية النزاع، فأوفدوا مصطفى باشا إلى بيروت لهذا الغرض، فوصل إليها في منتصف تشرين الثاني. ولم تكن مهمته للوساطة وإنما لإقامة الدليل على استمالة قيام مصالحة فعالة بين الموارنة والدروز، وهكذا يضعون حداً لاستقلال لبنان الداخلي.

وحين بلغت الفوضى منتهاها سدّد العثمانيون ضربتهم القاضية: ففي ١٣ كانون الثاني ١٨٤٢ استدعى سليم باشا ومصطفى باشا الأمير بشير الثالث إلى بيروت، حيث وضع على ظهر باخرة عثمانية نقلته إلى إسطنبول، فعاش فيها لاجئاً سياسياً يتقاضى من السلطات العثمانية أربعة آلاف غرش سنوياً.

وما أن غادر الأمير بشير الثالث لبنان حتى دعا مصطفى باشا أعيان البلاد ومناصبها إلى الاجتماع في بيروت، في ١٦ كانون الثاني ١٨٤٢، ليعلن سقوط الإمارة الشهابية.

سقطت الإمارة هذه بعد مئة وخمس وأربعين سنة من وصول أول أمير منها من وادي التيم إلى دير القمر ليحكم إمارة الشوف، ومن ثم لبنان كله.

عاد الأمير بشير الثالث بعد مدة من منفاه إلى دارته في بعبدا، ليعيش فيها فقيراً منسياً، ضريراً، ثم ليقتله الدروز عند مقطع سكة الحديد في قريته السنة ١٨٦٠ أثناء الحرب الأهلية بين الموارنة والدروز، وقد ناهز عمره ٨٦ سنة.

بعد سقوط الإمارة، عيّن العثمانيون عمر باشا النمساوي حاكماً على الجبل. رحب الدروز بالوضع الإداري الجديد ترحيباً بالغاً، بينما رفض الموارنة الاعتراف به وأصروا على إعادة الإمارة. على أن هذا الطلب لم يكن ممكناً إلاّ برضى الدروز ومعونتهم. لم يدرك الدروز أن الضربة التي نزلت بموارنة البلاد جراء زوال إمارتهم وإقامة الحكم العثماني المباشر ستسيء إليهم أيضاً في نهاية الأمر.

القسم الثاني

الثورة العربية الكبرى

(١٩١٦ - ١٩١٨)

الفصل السادس
العلاقات العربية العثمانية ومرحلة الانفصال عن السلطنة (١٨٦٠ - ١٩١٦)

١ – توطئة

كانت السلطنة العثمانيّة قبل الحرب الأولى ١٩١٤، تشبه الإمبراطوريّة النمساويّة - المجريّة، التي كانت تضم جنسيات عدّة مختلفة، أهمها النمساوية والمجرية والألمانية. فأضعف البلاد نمو القومية فيها، لأن كل جنسية أرادت الحصول على حريتها بعد أن دخلها دم جديد. وجاءت الحرب الأولى فازدادت الحال سوءاً، وانقسمت البلاد إلى أقسام صغيرة بعد الهزيمة التي منيت بها، وألّفت كل جنسية دولة منفصلة. فالسلطنة العثمانية كانت تضم جنسيات عدة، كشعوب البلقان والعرب والأرمن وغيرهم. لذلك كان نشوء القومية ونموها عاملاً فعالاً في تفسيخ هذه السلطنة، فانفصلت عنها في بادئ الأمر شعوب البلقان في القرن ١٩، واضطرت تركيا إلى أن تقاتل هذه الشعوب لتستردها إلى حظيرتها. ثم حاولت الدول الكبرى وعلى الأخص روسيا أن تفيد من قيام هذه القوميات، فأخذت تتآمر معها، واستعملت الأرمن لتضرب بهم السلطنة. ولهذا نجد الصراع مستمراً والمذابح الدامية تجري في صورة دائمة بينهم وبين الحكومة العثمانية.

أما الأقطار العربية التي كانت قسماً من السلطنة فقد تأخرت قليلاً في الإستيقاظ، مع العلم أن العرب كانوا يكرهون الأتراك. وأول ما بدأت نهضتهم بدأت في الشؤون الثقافية وإحياء اللغة العربية وآدابها. وتكوّنت حركات

سياسية بعد الانقلاب الذي قامت به جمعية تركيا الفتاة في السنة ١٩٠٨ وسقوط السلطان عبد الحميد. وانتشرت الأفكار الوطنية بين العرب، وبدأت فكرة تحرير الأقطار العربية من حكم السلطنة وتوحيدها في دولة واحدة تتبلور في الأذهان. وكذلك أراد العرب استرجاع زعامة الإسلام الدينية بنقل الخلافة من السلطان العثماني إليهم.

في السنة ١٨٦٨، عقدت الجمعية العلمية السورية اجتماعاً سرياً أنشد فيه الشاعر اللبناني إبراهيم اليازجي - وكان في الحادية والعشرين من عمره - قصيدته المشهورة:

تنبّهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركبُ

وهي دعوة صريحة إلى الخروج على الحكم العثماني. وقد سرت هذه القصيدة بين الناس كالنار في الهشيم.

كانت اليقظة السياسية والدعوة إلى التحرر من الحكم العثماني نتيجة محتمة لليقظة الفكرية. أما الشرارة الأولى فقد انطلقت من أقلام اللبنانيين والسوريين لتلتهب شعور القومية العربية. وشاع على ألسنة الناس طائفة من الكلمات الجديدة، أو الكلمات التي أصبح لها معانٍ جديدة، مثل وطن ووطنية وأمة واستقلال وحقوق الإنسان[1]. إن شعور العرب بروح القومية كشعور سائر الأمم مستوحى من الفكر السياسي الفرنسي، ولا سيما ذلك الفكر الذي تجسد في الثورة الفرنسية. وقد قامت الحركة القومية العربية أولاً على أساس واسع عام: كل الذين يتكلمون العربية يشكلون أمة هي الأمة العربية التي يجب على كل عربي أن يسعى إلى تحقيقها.

في المؤتمر العربي الذي عقد في باريس العام ١٩١٣، لم تتناول قراراته التي كانت تهدف إلى الإصلاح أموراً جذرية، سوى المطالبة باللامركزية وبالاستقلال الثقافي والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في «مجلس المبعوثان» وفي المقاطعات التي يتكلم الناس فيها العربية.

(١) حتّي، فيليب، الدكتور - لبنان في التاريخ، دار الثقافة، بيروت دون تاريخ، ص٥٨٠-٥٨١.
- خوري، رئيف، الفكر العربي الحديث، بيروت ١٩٤٣، ص٢١٤-٢٢٣.

٢ - نشوء القومية العربية

لتكوين فكرة واضحة عن العلاقات التركية - العربية قبل الحرب العالمية الأولى، علينا أولاً إعطاء فكرة موجزة وخاطفة عن المجتمع في ظل السلطنة العثمانية، على الأقل خلال القرن التاسع عشر الذي يعتبر عصر النهضة في الشرق الأوسط أو ما يعرف بالعالم الإسلامي إذا صح التعبير. فهل كان هناك مكان لما يعرف بالقومية العربية في هذا المجتمع، وإذا كان هناك من قومية فإلى أي حد وعى الناس هذه القومية وتمسكوا بها، وعلى أي أساس ارتكزت؟ على أساس طائفي أم على أساس قومي وطني؟ فعلى الأقل يجمع كل المؤرخين على أن المجتمع العربي في ظل الحكم التركي لم يكن يعي قومية حتى القرن ١٩، ولكن معظمهم اختلفوا حول البعد الزمني لنشوء القومية العربية خلال هذا القرن.

فألبرت حوراني يشير بلمحة سريعة وموجزة إلى أن العرب كانت قد ظهرت لديهم الملامح القومية من خلال المملكة الوهابية في الجزيرة العربية التي كانت تدعو المسلمين إلى العودة إلى نقاوة الإسلام الأولى. ومع دولة محمد علي باشا القصيرة العمر حيث نجد في أقوال ابنه إبراهيم باشا ما يشير إلى ذلك: «أنا لست تركياً. فقد أتيت مصر عندما كنت فتياً وعند ذلك الوقت غيرت شمس مصر دمي فجعلتني عربياً خالصاً»(١). إلاّ أن القومية العربية الصريحة كحركة لها أهميتها وأهدافها السياسية، لم تظهر إلاّ حوالى آخر القرن التاسع عشر(٢).

وهناك فكرة تقول إن نشوء القومية العربية يعود بأسبابه إلى الإرساليات الأجنبية التي أفرزت رجالاً مفكرين في بلاد الشام، وبالتحديد في لبنان، وكانوا خاصة من المسيحيين أمثال بطرس البستاني وغيره وصحيفة «نفير سوريا». هذه الصحيفة التي كانت أول صحيفة سياسية أتيح لها الصدور في هذه البلاد، وقد وقفت معظم جهدها على الدعوة إلى التوفيق بين

---

(١) حوراني، ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة، بيروت، ص٣١٢.

(٢) حوراني، م س، ص٣١٣.

الغقائد المختلفة، وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة. لأن المعرفة تؤدي إلى الاستنارة العقلية، والاستنارة العقلية تؤدي إلى القضاء على التعصّب، وتحل محله المثل العليا المشتركة بين الدينين. وبلاد الشام لم يتكن قد سمعت بمثل هذا الكلام من قبل، وكان يشتمل في طياته على نواة فكرة القومية[١].

فنشوء القومية إذاً عند أنطونيوس يعود بأسبابه المباشرة إلى الإرساليات الأجنبية التي ساهمت في إنشاء المدارس ونشر المعرفة التي فتحت العقول على مجالات واسعة لم تكن معروفة من قبل. وهذه المعرفة جعلت الناس يخرجون أكثر فأكثر من تحجر العقل ودفعتهم إلى إنشاء المزيد من المدارس، فكان ذلك سبباً حمل «جماعة من المفكرين الشباب على أن يبدأوا سعيهم من أجل تحرير وطنهم من الحكم العثماني. وكان هؤلاء الشبان تلامذة إبراهيم اليازجي وسليمان البستاني اللبنانيين». «وهكذا ولدت الحركة العربية القومية، وتتلخص قصة طفولتها في الأحداث التي وقعت خلال السنين الأربعين التالية، وكانت فيها ضعيفة عاجزة، ولكنها ظلت حية نامية، تحملها في أناة إلى غايتها أجنحة الأدب الذي بعثت فيه الحياة»[٢].

أما زين نور الدين زين في كتابه «نشوء القومية العربية» فقد انتقد أقوال ألبرت حوراني وأنطونيوس، أو الذين يؤيدون أفكارهما من المؤرخين فيقول: «لم يكن هدف محمد علي باشا الذي كان هو ذاته من أصل تركي، إنشاء إمبراطورية عربية تحل محل السلطنة العثمانية، وذلك بالرغم مما كان يدعيه، ولأسباب محض شخصية من ميول عربية، ومن رغبة في مساندة العرب. ذلك أن قيام حركة عربية عرقية في مصر وسوريا قبل مئة سنة كان أمراً يتنافى مع التيار الفكري الشرقي في تلك الأيام... فقد كان جميع المؤمنين يشعرون بأنهم أعضاء في أخوة دينية كبرى، يحسّ كل فرد

(١) أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، بيروت ص١١٤.
(٢) أنطونيوس، مماثل، ص١٢٦.

فيها انه يقف على قدم المساواة مع أخيه المؤمن».

٣ - العلاقات التركية - العربية

يرى زين نور الدين أن «سنة ١٩٠٩ تعدّ من السنين الحاسمة في تقرير مصير الإمبراطورية العثمانية»، لأنها السنة التي أدت إلى الانشقاق بين العرب والأتراك. مع العلم أن أول هزة تلقاها العرب على يد الأتراك كانت في ظل الدستور الجديد الذي أعاده السلطان عبد الحميد في السنة ١٩٠٨. فقد أجريت الانتخابات لأول مجلس للنواب، إلاّ أن «جماعة الاتحاد والترقي» كانت تدير الانتخابات في شكل يضمن معها فوز الأكثرية من جماعتها، مع العلم أن العرب كانوا أكثر عدداً من الأتراك بنسبة ٣ إلى ٢.

ومع ذلك فقد كان عدد أعضاء مجلس المبعوثان ٢٤٥ عضواً من بينهم ١٥٠ من الترك و٦٠ من العرب. وفي مجلس الأعيان (الشيوخ) الذي كان عدد أعضائه أربعين عضواً كان بينهم ٣ من النواب العرب فقط. وكانت هذه حلقة واحدة من سلسلة التدابير التي كشفت عن الخرق الذي أخذ يتسع مع الزمن، بين ما كان يقوله الأتراك عن مبدأ المساواة العنصرية وبين ما كانوا يفعلونه في الواقع(١). وبالفعل فقد تزايد التباعد بين العرب والأتراك عندما خلع عبد الحميد من منصبه واستولت جماعة «الاتحاد والترقي» على الحكم. فقد حلّوا الجمعيات التي أسستها الجماعات التي لا تنتمي إلى الجنس التركي، ومن بينها جمعية الإنماء العربي العثماني(٢).

قبل أن تندلع الحرب العالمية الأولى، انفجرت الروح القومية التركية وراحت تعبر علناً عن عدائها الشديد والعنيف لما هو «عربي» و«إسلامي». وقد ظهر هذا العداء في الجريدة التركية الشهيرة «أقدام» في مقال عنيف ضد العرب ونقد لاذع لهم. وقد أثار هذا المقال ضجة كبرى وغضبة في نفوس العرب في الولايات العربية، وقامت

(١) أنطونيوس، م س، ص١٧٩.
(٢) أنطونيوس، مماثل، ص١٨٠.

الصحف السورية والعراقية ترد عليه مدافعة عن العرب بعنف واستياء شديدين. كان الأتراك يظهرون عداءهم علناً للعرب... «فعندما أردت مواجهة أنور باشا، أدخلت إلى غرفة فيها عشرة أشخاص، فلما رأوني على الباب، ظهر لي أنهم استثقلوا الجبة والعمامة»(١).

تسرّبت الروح الطورانية إلى صفوف الجيش التركي فنشأت عداوة شديدة بين الضباط العرب والأتراك، وعند مستهل ١٩١٤، أشار لودفيك دي كونتوسون في كتاباته إلى ظهور ما سماه: «قضية عربية» وإلى يقظة في الضمير العربي إذ يقول «... لا نلوم المسلمين العرب في الإمبراطورية العثمانية لتمسكهم بمبدأ القومية...».

٤ - الإصلاح وحلم العرب بإعادة الخلافة إليهم

تطلّع العرب عشية الحرب العالمية الأولى فوجدوا أن ليس لهم من السلطنة العثمانية إلاّ التبعية، فأخذوا يتطلّعون إلى الانفصال عن الأتراك وإلى إنشاء دولة عربية يستعيدون بها أمجادهم الخالدة. وقد قال الملك عبد الله بن الحسين في مذكراته: «وما العرب إلاّ بالإسلام. وكان من الحق عليهم أن يسعوا إلى استعادة مجدهم وحقهم بالخلافة. فالثورة العربية الأخيرة التي قام بها المنقذ الأعظم رضي الله عنه ومن معه من عظماء الحجاز... وبإفتاء علمائهم وانضمام عظماء الشام والعراق إليهم، ثورة حق للدفاع عن الإسلام. ثم لتبوء العرب المقام الذي خصهم الله به حيث قال: كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر...»(٢). لقد كان العرب يعملون على استعادة الخلافة من أيدي الترك وجعلها خلافة عربية. وكانوا يطالبون دائماً وبإلحاح بإجراء الإصلاح، حتى أن لفظة «إصلاح» أصبحت (١٩١٣) في الولايات العربية شعاراً يردده الناس في كل مكان.

(١) مذكرات الملك عبدالله بن الحسين، بإشراف مصطفى خرسا، بيروت أول آب ١٩٦٥، ٣١ شارع الحوت، ص٨٦.
(٢) مماثل، ص٣١.

٥ – الطورانية وحركة التتريك

في المقابل شرع الوطنيون الأتراك في إحياء حركة يمكن أن تسمى «حركة جاهلية» أي سابقة للإسلام، فقد أحاط الأتراك الفاتحين الطورانيين الوثنيين أمثال جنكيزخان وهولاكو بهالة من التقديس والعبادة. وكان على كل عضو من أعضاء الجمعية المعروفة بجمعية «ترك قوجي» أي التركي الشجاع أن يتخذ له اسماً طورانياً عوضاً عن اسمه الإسلامي مثلاً أوغوز عوضاً عن محمد. وباختصار كان الأتراك يؤمنون بأن الأمة الإسلامية التي ظلت إلى أمد طويل سداً منيعاً يحول دون التقدم بوجه عام ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه خاص هي في طريقها الآن إلى التفكك فالزوال.

لقد اتبعت «تركيا الفتاة» برنامجاً للتتريك وحاولت تحقيقه، وهذا الشيء كان حافزاً قوياً لزعماء العرب للتشديد على القومية العربية في مطالبتهم بالاستقلال التام للبلاد العربية وعاملاً على توحيد قواهم. ورغم كل شيء كانت النتيجة حتى ١٩١٣ - ١٩١٤، أن الأمة العربية لا تريد الانفصال عن السلطنة التركية إلاّ ضمن اللامركزية[١].

٦ – إتصال العرب بالخارج

في شهر شباط ١٩١٣، تأسست في جنيف - سويسرا، جمعية اسمها «التقدم الإسلامي»، هدفها الأول تقوية الروابط بين مختلف الشعوب الإسلامية والقول بأن على كل مسلم الآن أن يزود عن حياض «بلاد الخلافة تركيا» آخر حمى الإسلام. غير أن قادة العرب المسلمين كانوا يبدون شكاً في إخلاص جمعية «الاتحاد والترقي» لأسباب عدة[٢].

في آب ١٩١٣ ظهرت بوادر صداقة حميمة وأخوة صالحة بين المبعوثين العرب وموظفي الحكومة التركية في إسطنبول، بدءاً بالسلطان ونزولاً إلى سائر الموظفين. وهذا الشهر العسل لم يدم طويلاً، إذ ظهرت دعوة جديدة للثورة على الوزارة التركية ودعوة العرب وأفراد الجيش للثورة، هذه الدعوة

(١) موسى، م س، ص٥٦-٥٧.

(٢) مماثل، ص٦١.

ظهرت في العراق من قبل الجمعية البصراوية، ولها مطالب منها أن :

- لغة البلاد في الولايات العربية، اللغة العربية.

- وأن يكون الوالي مواطناً عراقياً... الخ.

وفي حزيران ١٩١٣، كتب السير إدوارد غراي البريطاني بأن السفير الألماني أخبره «بأن العرب على شيء من الاضطراب والقلق وبأن زعيماً من نجد قد اتصل بهم لبحث هذه الأمور على أساس أن الإمبراطورية العثمانية هي في طور النزاع والزوال. وقد كان رد الحكومة الألمانية سلبياً بالنسبة لمثل هذه المباحثات... وقد قال غراي للسفير الألماني بأن بريطانيا لم تشجع هي أيضاً مثل هذه المباحثات مع زعماء عرب من الخليج والعراق»(١).

والجدير ذكره أن بريطانيا استطاعت، حتى عشية انفجار الحرب العالمية الأولى، أن ترفض الاشتراك مع سائر الدول الأخرى في تقسيم الممتلكات العثمانية في آسيا.

في أيار ١٩١٤ عقد مجلس النواب التركي بحضور السلطان، وكان من بين أعضائه وعددهم ٢٤٥، ٦٩ نائباً عربياً و١٤٢ نائباً تركيا أما الباقون فكانوا من «الأرمن والأروام واليهود».

٧ - مرحلة الحذر بين العرب والأتراك

٧١ - معارضة الشريف حسين أمير مكة للحرب:

لم يجرؤ أحد من زعماء الأقطار العثمانية على معارضة دخول الدولة العلية في الحرب سوى الشريف حسين أمير مكة، الذي بعث برسالة إلى السلطان محمد رشاد يتوسل فيها إليه ألا يدخل الحرب إلى جانب ألمانيا في حربها ضد روسيا وبريطانيا وفرنسا. وقد كان رد الدولة حرفياً: «بأنها فكّرت بكل شيء وأنها تشكر سيادته السامية على نصائحه...»(٢). ذاك إنه جاء الوالي وهيب

(١) زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية - دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٩، ص١١٢ (مرجع أول).

(٢) موسى، م س، ص٩٥-٩٦.

- الملك عبد الله، مذكراتي، ص٩٩-١٠٠.

بك إلى الشريف يقول له إن وزيري الداخلية والحربية يرغبان في استطلاع رأي الشريف في إشهار الحرب ضد روسيا وبريطانيا. لقد كان جواب الشريف للوالي «إني لست بالخائن حتى أشير على الدولة بأن تدخل هذه الحرب التي لا ناقة لها فيها ولا جمل»، وكان جواب الوالي: هي ورقة زرقاء نريد أن نقذف بها على «ميز الميسر» (أي مائدة القمار). وهنا هتف الشريف بعبارة ذات معنى كبير: «عجيب! أبالأمة نقامرون؟»(١)

٧٢ - بداية سوء التفاهم بين الدولة والشريف حسين:

وقعت الحرب الأولى (١٩١٤)، ودخلت تركيا في غمارها في ٥ تشرين الثاني من ذلك العام، ثم جاء طلب إعلان الجهاد المقدس في أقطار الإسلام باسم الخليفة، فلم يوافق عليه الشريف حسين. وقد كتب الملك عبد الله في مذكراته «لم يوافق الشريف حسين إلاّ ضمن شروط حددها للخليفة وإنه بدون هذه الشروط لا يستطيع التقدم بالأمة العربية في حرب نصح بأن لا تثار أو أن لا تشهر، وإنه سيكتفي بوظيفة الدعاء للدولة بالنصر والظفر...» وقد أتى الرد من الصدر الأعظم قاسياً: «... وإن ما بينتموه لا تكون نتيجته بحقكم مسرة...» كما هددوه بإبقاء ولده فيصل محتجزاً عندهم ما لم «يرسل المجاهدين إلى الجبهة مع جمال باشا...» ولكن سويت الأوضاع ما بين الاثنين وعاد فيصل، على أمل أن يقود المجاهدين، ولكنها كانت خدعة... إذ لم ينفذ الشريف أي شيء من هذا.

رأى العرب أنهم يخوضون حرباً ليس لهم فيها أي ربح أو مأرب، ورغم كل ذلك فإن غالبيتهم الساحقة ظلت على ولائها للسلطان العثماني. «وأما بعض الزعماء فقد شعروا بأنه يتحتم عليهم أن يغادروا السفينة المشرفة على الغرق وأن يسعوا لنيل استقلال أوطانهم...» ومنهم الشريف حسين أمير مكة الذي كان غير راضٍ عن حكمهم. وفي الواقع أنه قبل نشوء الحرب بسبعة أشهر جرى اتصال مع بريطانيا في شأن تقديم العون للعرب. وكان الأمير عبد الله بن الشريف هو الذي قام

(١) موسى، م س، ص٩٥-٩٦.

بهذه الاتصالات مع اللورد Kitcherner والسير رونالد Stors (١٩١٤) في شهر نيسان والذي كانت نتيجته أن إنكلترا ستحافظ على الإمبراطورية العثمانية. ولكن عندما انضمت تركيا إلى ألمانيا راحت بريطانيا تستميل السكان الناقمين في الإمبراطورية التركية، ونعني العرب... فقد كانت الطريق ممهدة والتربة مهيأة، خاصة وإن الولايات العربية كانت على غاية من الأهمية الحربية، وذلك للموقع الجغرافي الاستراتيجي الخطير الذي تحتله بالنسبة إلى الخطط الحربية المقبلة.

ورغم كل شيء بقي الشريف حسين حتى ١٩١٥ ضمناً يؤمن نوعاً ما بالوطن المشترك وبالاستقلال الداخلي فقط، من دون الانفصال نهائياً عن الدولة، ولكن ما العمل؟ يقول موسى سليمان إنه في ١٩١٥ «كنا نرى الأمير سعيد الجزائري يحض الشريف على ضرورة تأييد الدولة ... وأنت تعلم أن الصليب يحارب الهلال اليوم. وأنت ابن رسول الله... فيجب أن تكون على وفاق مع الخليفة العثماني...».

انتهت المفاوضة بأن فوّض الشريف حسين الأمير سعيد لأن يعمل على تحسين العلاقات بينه وبين جمال باشا. يقول علي فؤاد في مذكراته:[1]

«لما خاض الترك غمار الحرب الأولى كان موقف الحجاز كما يأتي: لم تكن الصلات بين أمير مكة وبين والي الحجاز وقائدها وهيب بك على حال يرغب في مثلها، وبينه وبين الحكومة المركزية، هذا الخلاف الذي يعود إلى ١٩١١ عندما اتهمه واليها سليمان باشا بأن شريف مكة لم يرم في تجريدته إلى إعلاء كلمة الدولة بل اغتنام الفرصة السانحة لتوسيع إمارته... الخ. كما أن وهيب بك انتدبته الدولة والياً على الحجاز وقائداً عليها، حيث أخذ يزين للدولة توجيه حملة إليه لمعاقبة الشريف. وقد أجابته الدولة إلى طلبه، ولكنها عدلت عندما تدخل محمود باشا الشركصولي... غير أن هذه الفكرة وحدها كانت كافية لإثارة أمير مكة وإذكاء نار غضبه...».

(١) رئيس أركان الجيش العثماني الرابع في بلاد الشام.

يقول الملك عبد الله: «دخلت الدولة الحرب وتبعت ذلك برقيات من الشريف حسين يلح فيها على إرسال النقود الكافية لليمن وعسير والحجاز، فلم ينل أي رد... ثم يقول إن الإنكليز دخلوا العراق واحتلوا البصرة، وجمال باشا فشل في مصر، والعرب في حيرة من أمرهم» ورغم كل ذلك بقي العرب على ولائهم للدولة والدليل إلى ذلك أن الجنرال علي فؤاد يقول في مذكراته (كيف غزونا مصر) «... ولقينا في حلب وحماه وحمص وبعلبك من الحفاوة والإكرام أوقع مما تقدم. فكان الشعراء يتلون قصائدهم الحماسية... أما دمشق فقد أعدت أفخم المواكب وأزهاها، وتراكض الألوف من الناس إلى موقف القطار وفيهم رجال الدولة وقادة جندها وسادة البلاد وعلماؤها... وذبحت الأضاحي وألقيت القصائد...».

أما بالنسبة إلى العثمانيين فقد عبر الجنرال علي فؤاد عن وجهة نظره بالنسبة إلى العلاقات العربية التركية إذ قال: «إني رأيت إنه مهما كانت النيات والرغائب التي تعزى إلى أمير مكة علينا أن نتناساها ونتناسى معها كل خلاف، وأن يشد بعضنا إزر بعض، بعد أن أعلنت الحرب وأعلن معها الجهاد المقدس... يرجى أن تكون رغبة أمير مكة بمشاركة الحملة على مصر ناشئة عن نية حسنة، وأن تعفى آثار البرودة القديمة بما يعامل به من الحرمة والثقة...».

يقول جمال باشا العام ١٩١٥ في إحدى خطاباته «... إن الشعبين العربي والتركي يجب عليهما الابتعاد عن النزاع والخلاف فيما بينهما باعتبار أنهما يشكلان عمودين للإسلام وخلافهما سوف يؤدي إلى سقوطهما...» وقد أحدث خطابه ارتياحاً تاماً وقابله الإصلاحيون بالارتياح التام أيضاً. ثم جاءه أعيان دمشق جماعات وأقسموا بالقرآن أن يكونوا على ولاء تام للحكومة.

ولكن في المقابل، حاولت تركيا إغراء ابن الرشيد (١٩١٤) في نجد لمحاربة عبد العزيز بن سعود، ولكن في ١٥-٥-١٩١٤ تم عقد المعاهدة الإنكليزية السعودية.

وفعلاً أصبحت معظم المناطق المأهولة في الجزيرة العربية مرتبطة، في نهاية ١٩١٥، بمواثيق حماية مع حكومة الهند (بريطانيا)، ولم يبق خارج تلك المواثيق سوى الحجاز واليمن وإمارة ابن الرشيد.

٨ – مرحلة الإنفصال عن الدولة التركية

٨١ - جمال باشا ينكل بالزعماء العرب:

يؤكد الملك عبد الله أن وهيب بك ذهب إلى الحجاز وفي نية الدولة تغيير الشريف حسين. وكان يريد تطبيق قانون إدارة الولايات في الحجاز... وعلى العموم لقد ابتدأت الشكوك تفعل فعلها بين الشريف والدولة.

وقبل أن يتم أي عمل أو قرار مع الإنكليز طلب الشريف، بواسطة ابنه فيصل، من جمال باشا أن لا «تكون البلاد العربية مضغوطاً عليها...» ولكن جمال باشا بعد فشله في غزوة مصر ورجوعه خائباً منها... وكيف أن المجاهدين العرب لم يشتركوا في الحملة... عاد في شباط ١٩١٥ إلى سوريا، وراح ينكّل بالزعماء العرب والإصلاحيين وألغى امتيازات متصرفية جبل لبنان وأخضع سكانها للسيادة التركية المباشرة وأخذ يعمل للقضاء على الفكرة العربية، وكان لهذا الشيء رجة عظيمة في بلاد الشام.

ومهما تكن مرامي جمال باشا السياسية فإن النتائج التي أسفرت عنها زادت في شقة الخلاف ما بين العرب والأتراك، ودفعت بالأول للتصلب تجاه كفاحهم من أجل الاستقلال... وقضت على كل تردد ودفعت بهم إلى اتخاذ قرار بالانفصال التام عن تركيا.

في السنة ١٩١٥ وصل فيصل إلى دمشق في طريقه إلى عاصمة السلطنة العثمانية ليعرض شكاوي أبيه من تصرفات وهيب بك، وهناك اتصل ببعض الزعماء القوميين الذين حرضوه على الثورة ضد الأتراك، وقد قال في خطابه السنة ١٩١٩ في دمشق: «قام والدي بالحركة بعد أن أتيت سوريا وقابلت بعض الرجال فيها...».

٩ – الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين

٩١ - توطئة:

بقيت الأمور تتفاعل حتى منتصف السنة ١٩١٦، وظل جمال باشا ينكّل بزعماء العرب. وبعد السادس من أيار، يوم

علّق على أعواد المشانق عدداً من قادتهم، ازداد شعور العرب القومي حماوة وتحفزاً، وأصبح الاستقلال السياسي والسيادة القومية العربية أمراً حيوياً بالنسبة إلى العرب إذ قرروا في ١٩١٦/٦/١٠، وبتشجيع من إنكلترا والحلفاء، القيام بثورة ضد الأتراك سميت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين شريف مكة، وصدر البيان الشريفي يقول: «ابتدأت الأمة العربية تتحمل مسؤولياتها بنفسها وتسعى لإنقاذ حريتها واستقلالها بسلاحها وجهاد بنيها...».

٩٢ - فصل العالم العربي عن تركيا:

أ - مراسلات الحسين - مكماهون:

كان العرب يقاومون سياسة التتريك التي طبقها الاتحاديون، وكان الشريف حسين شريف مكة على خلاف مع الأتراك منذ مدة، وقد أثار غضبهم بامتناعه عن تأييد الدعوة إلى الجهاد المقدس ضد الحلفاء، فشرعوا يستعدون لعزله من منصبه، ووجهوا الأوامر إلى والي الحجاز التركي «وهيب بك» ليمهد السبيل سراً لاعتقال الشريف. لكن هذا الأخير كان قد احتاط للأمر، فلم يتمكنوا منه. وهكذا التقت مصالح زعماء العرب وبعض الفئات العربية مع مصالح بريطانيا، وحدث التقارب ما بين الحسين واللورد كيتشنر (Ketchener) مندوب بريطانيا في مصر. وقد جرى اللقاء الأول ما بين الأمير عبد الله بن الحسين والمندوب الإنكليزي في ربيع ١٩١٢، ولكن هذا اللقاء لم يكن له أي طابع سياسي.

في الخامس من شباط ١٩١٤ قام الأمير عبد الله هذا بزيارة لكتشنر وبحث معه الوضع في الولايات العربية عامة والحجاز خاصة، لكن المندوب الإنكليزي لم يتخذ موقفاً واضحاً من قضية الحسين ومن عدائه للأتراك، ولم يلزم بلاده بشيء تجاهه، مفضلاً التريث وأن يتتبع تطور الموقف في عاصمة السلطنة العثمانية. وعندما ظهر جلياً ميل الاتحاديين إلى الدول الوسطى، قررت بريطانيا في بداية تشرين الأول ١٩١٤، أن تعمد إلى رونلد ستيورت، السكرتير في دار الاعتماد في القاهرة للاتصال بالشريف

حسين والاتفاق معه. لذلك تمّ إرسال موفد بريطاني إلى الأمير عبد الله، مزوداً بكتاب يطلعه فيه على عزم الأتراك دخول الحرب إلى جانب ألمانيا، ويعده بتقديم المساعدة لحركة الحسين التحررية في حال اندلاع الثورة في الحجاز وغيره.

دخلت تركيا الحرب السنة ١٩١٤ وأعلنت الجهاد ضد الحلفاء، فازداد التقارب ما بين بريطانيا والشريف حسين، وتبادل الفريقان المراسلات الخطية والمفاوضات. وكان السير مكماهون قد خلف كتشنر في المفوضية في مصر، فاتصل بعدد من الزعماء العرب في بيروت ودمشق وبغداد، وأخذ يشجعهم على الثورة ويعدهم بالمساعدات. كما أن الحكومة البريطانية في الهند قد عقدت مع أمير عسير الإدريسي، اتفاقاً في نيسان ١٩١٥، تعهد بموجبه الإدريسي مقاتلة الأتراك. وكذلك ابن سعود، أمير نجد الذي تعهد أيضاً بدوره بحفظ الأمن في بلاده وبعدم عرقلة المواصلات البريطانية في الخليج، مقابل مبلغ من المال تدفعه بريطانيا له سنوياً.

ب - حدود الدولة العربية المرتقبة:

في مطلع شباط ١٩١٥ هاجم جمال باشا، قائد الجيش الرابع التركي، قناة السويس، لكنه صد عنها وعاد بحشد القوات في سوريا ولبنان والجزيرة العربية استعداداً لهجوم ثانٍ(١). وقبل القيام به نكّل بالزعماء العرب الإصلاحيين، وخاصة في لبنان وسوريا، ليقضي على فكرة القومية العربية. كما أنه ألغى امتيازات متصرفية جبل لبنان وأخضعها لحكم تركيا المباشر.

كان القوميون العرب في سوريا ولبنان وفلسطين، لاسيما أعضاء الجمعيات السرية، على اتصال بالشريف حسين، وقد طلبوا منه أن يتزعم حركتهم، خصوصاً أن أنباء الخلاف بينه وبين الاتحاديين، جعلت مسألة تعاونه مع القوميين العرب أمراً متوقّعاً(٢).

---

(١) مذكرات الجنرال التركي علي فؤاد، نقله إلى العربية الدكتور نجيب الأرمنازي - كيف غزونا مصر - منشورات دار الكتاب الجديد ١٩٦٢، بيروت، ص١٤٧ إلى ١٥٤.

(٢) موسى م. س.، ص١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣.

وقد قَبِلَ القوميون فكرة التحالف مع بريطانيا ضمن شروط وضمانات نجدها في ميثاق دمشق الذي وضعته جمعيتا «العهد» و«العربية الفتاة». وقد سلمت نسخة منه إلى الأمير فيصل ابن الحسين في أيار ١٩١٥، وقد عين هذا الميثاق حدود الدولة التي يطالب العرب باستقلالها، وكانت تضم شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين.

كانت أولى خطوات مكماهون لاستمالة العرب إليه أنه نشر بلاغاً ألقته الطائرات البريطانية في مطلع حزيران السنة ١٩١٥ فوق بعض المدن العربية في سوريا وفلسطين ومصر والحجاز، يعلن فيه إن بريطانيا ترحب بفكرة قيام خلافة عربية، وإنها تؤيد استقلال شبه الجزيرة العربية استقلالاً تاماً.

بعد هذا البيان تبودلت المذكرات بين الحسين ومكماهون، وأهمها الرسالة التي بعثها المعتمد البريطاني إلى الشريف حسين في ٢٤ تشرين الأول العام ١٩١٥ التي أوضح فيها مكماهون مسألة حدود الدولة العربية وتحفظات بريطانيا تجاه تلك الحدود، خاصة في ما يخص قضية مارسين والإسكندرية وأجزاء من بلاد الشام الواقعة إلى الغرب من أقضية دمشق وحمص وحماه وحلب لأنها محض عربية وينبغي أن تستثنى من الحدود المطلوبة من قبل العرب(١). ويقول مكماهون: «... مع هذا التعديل ومن دون التعارض مع المعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض الزعماء العرب، فإننا نقبل بتلك الحدود... أما في ما يتعلق بالمناطق المتعلقة ضمن تلك الحدود، والتي لبريطانيا العظمى فيها حرية التصرف من دون المساس بمصالح حليفتها فرنسا، فإني مفوض باسم الحكومة البريطانية أن أقدم لكم التعهدات التالية: ... إن بريطانيا العظمى، مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه، مستعدة لأن تعترف باستقلال العرب، وبأن تؤيد هذا الاستقلال في المناطق الواقعة ضمن الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة»(٢).

---

(١) موسى، م س، ص٢٢٠ إلى ٢٢٦.

(٢) مماثل، ص٢٢٣.

وتضمنت المذكرة أربعة مواثيق أخرى، تعهدت بريطانيا في الميثاق الأول بحماية الأماكن المقدسة، وأعربت في الثاني عن استعدادها لمساعدة العرب على إيجاد هيئات حاكمة تلائم وضع الأقاليم المختلفة التي ستستقل، واشترطت في الثالث أن يكون المستشارون الأوروبيون الذين سيحتاج إليهم العرب من البريطانيين. ثم أبدى بعض التحفظات في شأن ولايتي البصرة وبغداد حيث لبريطانيا مصالح تستلزم اتخاذ تدابير إدارية خاصة(١).

بعد تردد الحسين أمام تحفظات بريطانيا عاد وكتب إلى مكماهون في أول كانون الثاني ١٩١٦ موافقاً على إرجاء البحث في مصير المنطقة الساحلية إلى ما بعد الحرب. وقد رأت بريطانيا في موقف الحسين هذا دليلاً إلى تراجعه وقبوله بتسوية القضية. فقد أجاب مكماهون في ٣٠ كانون الثاني من السنة ذاتها على رسالة الحسين مكرراً ما ورد في مذكراته السابقة وشاكراً الحسين لما أبداه من رغبة في تجنب كل ما يعكر صفوة العلاقات بين بريطانيا وحليفتها فرنسا(٢).

١٠ – الإتفاقات السرية بين الحلفاء

بلغ الصراع بين الدول الكبرى حول مصير الإمبراطورية العثمانية ذروته في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ولما كانت مصالح تلك الدول متضاربة، لم تستطع أن تتفق على اقتسام تركة الرجل المريض، لذا كانت كل منها تسعى بما لديها من وسائل التغلغل اقتصادياً داخل الإمبراطورية العثمانية وزيادة امتيازاتها. وكانت ألمانيا خلال تلك الحقبة تظهر اهتماماً كبيراً بتركيا وتحاول بدورها السيطرة على قسم من المكاسب الاقتصادية، فكانت ترضى بفكرة اقتسام تركيا شرط أن تعطى قسماً منها. لقد كتب غليوم الثاني السنة ١٩١٣ في تقرير سري يقول:

---

(١) موسى، عاثل، ص٢٢١.

(٢) موسى، م. س.، ص٢٤٩-٢٥٠-٢٥١.

«.. إن بـريـطـانـيـا وفـرنـسـا تـتـصـارعـان للاستيلاء على فلسطين، علينا أن نتيقظ كي لا يحصل تقسيم الإمبراطورية العثمانية من دونـنـا. إنـنـا سـنـسـتـولي عـلـى الـعـراق والاسكندرون وعلى مرسين في تركيا، أما الأتراك فلقد فهموا الوضع وهم ينتظرون مصيرهم بصبر وقناعة...».

كـان الإمبراطـور الألماني يـفـكـر في ذلك الوقت ببناء أسطول متوسطي يتمركز في اسكندرون غير أن أعظم مشروع سعت ألمانيا إلى تحقيقه في تلك الأونة هو إنشاء الخط الحديد ما بين بغداد وبرلين (BBB)، وكان أول امتياز قد أعطي للألمان السنة ١٨٨٨. وصل هذا الخط إلى قونيا (تركيا) في مطلع السنة ١٩١٤.

إن ازديـــاد الـــنـــفـــوذ الألماني داخـــل الإمبراطـوريـة الـعـثـمـانـيـة ضـاعـف مخاوف فرنسا وبريطانيا وروسيا، فراحت تلك الدول تتناسى خلافاتها وتحل مشكلاتها لتواجه الخطـر الألماني الجديـد، وقـد عـقـدت في ما بـيـنـهـا اتـفـاقـات عدة بهذا الشأن «اتفاقية ١٩٠٤ بين فرنسا وإنكلترا ثم اتفاقية ١٩٠٧ بين بريطانيا وروسيا، إلى آخره...».

وعلى الرغم من تلك الاحتياطات رأت تلك الدول أنه من مصلحتها التفاهم مع ألمانيا عـلـى اقـتـسـام الـدولـة التركـيـة. ففي السنة ١٩١١ أعـلـنـت روسـيـا أنـهـا لـن تـعـارض في المسـتـقـبـل إنشـاء الخط الحديـد الألماني، وحذت حذوها السنة ١٩١٤ كل من بريطانيا وفرنسا. مقابل هذا تعهدت ألمانيا باحترام امتياز روسيا بإنشاء خط حديد شمالي إيران، كما قبلت باعتبار سوريا وفلسطين وشمالي الأناضول مناطق نفوذ فرنسي، يحق لفرنسا أن تنشئ خطوط حديد فيها. أما بريطانيا فـتـوسـمـت أن تحمـل ألمانيـا عـلـى الاعتراف بحقوقها المطلقة في شركة النفط الإيرانية التي تأسست السنة ١٩٠٩، كما أنها وقعت مع ألمانيا في حزيران ١٩١٤ اتفاقاً آخر سحبت بموجبه معارضتها إنشاء خط سكة الحديد الألماني، شرط أن يتوقف في مدينة البصرة ولا يتعداها إلى الخليج.

عـنـدمـا دخـلـت تركيا الحرب في تشرين الـثـاني ١٩١٤، كـان الأوروبـيـون يسـيـطـرون على اقتصادها سيطرة تامة. كانوا يملكـون مئة وتسعـــين مؤسسة صناعية من أصل ٢٤٤ مـنـتـشـرة داخـل الـسـلـطـنـة، وحـوالـى

٣٩٠٠ كلم من الخطوط الحديدية من أصل ٥٤٠٠ كلم.

وعلى الرغم من أن بريطانيا حاولت أن تقنع الأتراك بالبقاء على الحياد خلال الحرب فإن هؤلاء فضلوا أن يلعبوا الورقة الألمانية لأنهم كانوا يخافون من مطامع روسيا حليفة بريطانيا. وقد حاول الأتراك أن يضايقوا بريطانيا بإعلان الجهاد، وكانوا يأملون بأن يثور مسلمو الهند ومصر على بريطانيا، فكانت النتيجة أن الدول الحليفة قررت نهائياً تجزئة السلطنة العثمانية إذا ما كتب لها الغلبة في نهاية الحرب. وقد بدأت المفاوضات في هذا الصدد بينها منذ السنة ١٩١٤، وعقدت اتفاقات عدة كلها سرية، وتبودلت العشرات من المذكرات.

أول تلك الاتفاقات كان اتفاق القسطنطينية الذي عقد في آذار السنة ١٩١٥.

أولاً - اتفاق القسطنطينية(١)

بعد دخول تركيا الحرب مباشرة أثار سفير روسيا في لندن قضية المضائق في القسطنطينية أمام الملك جورج الخامس ملك بريطانيا، فكان جواب الملك أن القسطنطينية يجب أن تكون من نصيب روسيا، ثم أن القيصر نقولا الثاني، صرح أمام سفير فرنسا في بتروغراد، بأنه لن يقبل بأن يفرض على شعبه التضحيات الجسيمة التي تتطلبها الحرب من دون أن يسمح له في المقابل بأن يحقق حلمه التاريخي. ثم استطرد قائلاً:

«... يا حضرة السفير، لقد قررت أن أجد حلاً جذرياً لقضية القسطنطينية والمضائق،... سأضم إلى إمبراطوريتي مدينة القسطنطينية وجنوب مقاطعة تراقيا (تركيا)... إنك تعلم أن بريطانيا قد وافقت على ذلك، وأن الملك جورج قد قال لسفيري... إن القسطنطينية يجب أن تكون من نصيب روسيا...».

نقل سفير فرنسا جواب حكومته إلى وزير خارجية روسيا في ١٤ آذار العام ١٩١٥، قال فيه إن فرنسا توافق على مطالب روسيا

(١) أوراق خاصة، من منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٨١.

بشرط أن تعترف روسيا بحق فرنسا في الاستيلاء على سوريا ولبنان وخليج الاسكندرونة وكيليكيا وفلسطين. أما البريطانيون فقد نقل سفيرهم في ١٢ آذار إلى وزير خارجية روسيا، موقف حكومته الذي يتلخص بما يلي:

- توافق بريطانيا على مطالب روسيا شرط أن تصبح القسطنطينية ميناءً حراً مفتوحاً أمام كل السفن التجارية، وأن تؤمن حرية الملاحة في المضائق.

- تُقتطع الأراضي المقدسة الإسلامية من الدولة العثمانية وتوضع، بعد إضافة بلاد العرب إليها، تحت حكم إسلامي مستقل.

- توافق روسيا على إدخال المنطقة المحايدة في إيران (وقد ورد ذلك في الاتفاق الروسي - الإنكليزي المعقود السنة ١٩٠٧) ضمن منطقة النفوذ البريطاني.

قبلت روسيا بشروط بريطانيا، كما إنها اعترفت ... «بحقوق بريطانيا العظمى وفرنسا في الممتلكات العثمانية الأسيوية ...».

ثانياً - معاهدة لندن (1):

قبل دخول إيطاليا الحرب في آب ١٩١٥، وقبل أن تبدي موافقتها على اتفاق القسطنطينية، طلبت من الحلفاء أن يحددوا لها حصتها، فعقد الحلفاء في لندن في ١٦ آذار ١٩١٥ معاهدة سرية وقعت عليها الدول الأربعة وقد وعد الحلفاء إيطاليا بالامتيازات التالية:

- الإعتراف بسيادة إيطاليا التامة على جزر الديدوكانيز الواقعة بالقرب من الساحل التركي. وكانت إيطاليا قد استولت عليها السنة ١٩١٢.

- نُقلت إلى ايطاليا كل الحقوق والامتيازات التي كانت للسلطان في ليبيا، والتي كان العثمانيون قد تخلوا عنها في معاهدة Ouchy، في سويسرا بالقرب من لوزان، العام ١٩١٢.

- اعترف الحلفاء بأن لإيطاليا مصالح في الحوض الشرقي من المتوسط، وبأنها ستحصل، في حال تقسيم تركيا، على المناطق المتاخمة لولاية أضاليا جنوبي تركيا،

(١) أوراق خاصة من منشورات الجامعة اللبنانية - القسم الثاني ١٩٨١.

وأقرّت الدول المذكورة بأنه يجب أن تؤخذ مصالح إيطاليا في الاعتبار إذا ما احتفظ بوحدة الإمبراطورية العثمانية أو إذا ما أدخل أي تغيير على خريطة اقتسام تركيا بين الدول الحليفة. وقد تذرعت إيطاليا في ما بعد بهذه الفقرة واعتبرتها مبرراً قانونياً لها لرفض معاهدات الصلح المتعلقة بالشرق الأوسط.

- تتعهد الدول الحليفة بأنها، إذا ما وضعت يدها على المستعمرات الألمانية في أفريقيا، ستعيد النظر في الحدود القائمة بين المستعمرات الإيطالية في إيريتريا والصومال وليبيا والمستعمرات البريطانية والفرنسية المتاخمة لها. وبعد أن حصلت إيطاليا على هذه الضمانات أعلنت الحرب على تركيا في العشرين من آب ١٩١٥.

ثالثاً - اتفاق سايكس بيكو السنة ١٩١٦

عندما دخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب في ١٥ تشرين الثاني ١٩١٤ إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء، كانت سياسة بريطانيا تقوم على اعتبار أن الولايات الأسيوية التابعة للإمبراطورية، تقع في منطقة ذات أهمية استراتيجية خطيرة للأعمال الحربية المرتقبة، فكان من الضروري جداً، إحراز نصر سريع ضد العثمانيين. وبالإضافة إلى هذا كله، كانت لإنكلترا مصلحة رئيسية بالقضاء على الدولة العثمانية عبّر عنها لويد جورج بقوله: «كانت إزالة تركيا من صفوف أعدائنا وإسقاطها كقوة محاربة، عاملاً يوفر لنا الوصول إلى روسيا ورومانيا(١) ... إن الإمبراطورية العثمانية تقع جغرافياً عبر قطعة من الأرض أو جسم من المياه بيننا وبين ممتلكاتنا الكبيرة في الشرق...»(٢).

لقد راودت فكرة تجزئة الإمبراطورية العثمانية اللورد كتشنر KATCHENER (٣) قبل الحرب الأولى، أي خلال ١٩١٢ و١٩١٣، فقال: «من سورية الجنوبية فما فوق، إلى حيفا وعكا، ونزولاً إلى خليج العقبة، بناء على اعتبارات سياسية

(١) Le Conte de Contaud-Biron, R, Comment la France s'est installée en Syrie (1918-1919), Paris 1923, p9.
(٢) زين، كتاب أول، المرجع السابق، ص٥٧.
(٣) وزير الحربية البريطانية سنة ١٩١٤.

واستراتيجية، تشكل منطقة ذات مغنم لا يستغنى عنه بالنسبة للإمبراطورية البريطانية»(١). لذلك، عندما دخلت تركيا الحرب، بدأت رغبات الدول الحليفة تظهر في بشكل أوضح وأعم. وكلما تقدمت الحرب أصبح الحلفاء أكثر حرصاً على تفكيك أوصال الدولة العثمانية والتي كانت، حتى ذلك الوقت قد احتفظت بالوحدة الأساسية لأراضيها نتيجة الحسد السائد بين تلك الدول، وإن تقلصت مساحتها بالنسبة إلى ما كانت عليه سابقاً(٢).

لقد أرغم السلطان العثماني بين السنة ١٨٧٤ وبداية حرب ١٩١٤ (الحرب الأولى) «على أن يتنازل لروسيا عن مقاطعات عدة غنية في آسية الصغرى، وعن قبرص ومصر لبريطانيا العظمى، وعن تونس لفرنسا، وعن ليبيا لإيطاليا، وعن البوسنة والهرسك للنمسا»(٣).

لقد بدأت رغبات الحلفاء تأخذ طريقها إلى حيّز الوجود، وراح هؤلاء يجاهرون بمصالحهم، فتجسد هدف روسيا بالسيطرة على إسطنبول والمضائق، وفرنسا على سوريا. أما إنكلترا فكان هدفها الأول، إيجاد طريق إلى الشرق كي تفرض هيمنتها وتحد من سلطة روسيا وفرنسا معاً. يضاف إلى ذلك موقف إيطاليا وأطماعها في آسيا الصغرى. نتيجة لما ورد بدأت المفاوضات بين تلك الدول لتجزئة الإمبراطورية العثمانية فعلياً في ما بينها، فعقدت سلسلة من المعاهدات السرية، وقد وجدت بريطانيا نفسها في هذه المرحلة، مدفوعة إلى نقض تعهداتها ووعودها التي كانت قد أعطتها إلى العرب خلال المحادثات التي أجراها هنري مكماهون Mac Mahon في السنة ١٩١٥ مع الشريف حسين، شريف مكة. وأحياناً أخرى كانت تؤيد تلك العهود وتؤكدها. وأول دليل إلى هذا هو اتفاق سايكس - بيكو الذي عقد بين بريطانيا وفرنسا في ١٦ أيار ١٩١٦.

الواقع أن البريطانيين كانوا قد أخفوا عن الفرنسيين شروط الاتفاق الذي تم بينهم

(١) زين، المرجع السابق، ص٢٠٦.

(٢) أنطونيوس، المرجع السابق، ص١٤٧.

(٣) أنطونيوس، المرجع السابق، ص١٤٨.

وبين الشريف حسين، بل ربما أخفوا قيام مثل هكذا اتفاق، الأمر الذي ترك ردة فعل سلبية في ما بعد عند الفرنسيين. نص هذا الاتفاق على تقسيم سوريا وبلاد ما بين النهرين إلى خمس مناطق هي التالية:

زرقاء - حمراء - أ - ب - سمراء. مفصلة كما يلي:[1]

أ - المنطقة الزرقاء:

تمتد من مدينة صور على طول الشاطئ المتوسطي، شاملة لبنان وكيليكيا، ثم بمحاذاة فلسطين على خط يمتد من صور حتى بحيرة طبريا، ويمر شرقاً على خط قمم جبل حرمون والسلسلة الشرقية للبنان حتى الحدود الجنوبية لبحيرة حمص. أما في الشمال الشرقي فتشمل مجرى نهر الفرات الأعلى حتى الحدود الإيرانية، بما فيها جزيرة ابن عمر، وقسماً كبيراً من كردستان وأرمينيا مع ديار بكر وخربوط ثم كيليكيا جنوباً حتى جبل طوروس.

يحقّ لفرنسا في هذه المنطقة إقامة إدارة مباشرة أو غير مباشرة أو رقابة وفق رغبتها ووفق ما يتوافق وسياستها بعد الاتفاق مع الدولة العربية أو الاتحاد الكونفدرالي العربي المراد إنشاؤه في المنطقتين أ و ب من هذا الإتفاق.

ب - المنطقة الحمراء:

تشمل بقعة العراق الساحلية حتى مدينة بغداد. ولبريطانيا فيها ذات الحقوق التي لفرنسا في المنطقة الزرقاء.

ج - المنطقة -أ-:

تتألف من داخلية سوريا وولاية الموصل، من بلاد ما بين النهرين.

---

(١) الحكيم، أنطوان - كلود بيطار ، الجزء السادس، السلطنة العثمانية العرب والدول الكبرى ١٩١٤-١٩٢٠ - الدار اللبنانية للنشر الجامعي، جونية، لبنان، ص٣٤ حتى ٦١.
Le comte de Gontaut Bironj, p24-25.
Du Hays, Annexe 1, p183.
زين، المرجع السابق، ص٧٠.
خريطة رقم ٥ و٦.

د - المنطقة - ب -:

تمتد هذه المنطقة من شاطئ البحر المتوسط بين فلسطين والحدود المصرية، ثم تمر في شبه الجزيرة العربية حتى تصل إلى عمق خليج العقبة، ومن هناك تمتد مساحتها في جنوب المنطقة -أ- ثم في محاذاة المنطقة الحمراء غرباً وجنوباً حتى الحدود الإيرانية.

إن المنطقتين أ و ب هما أرض الدولة العربية أو الاتحاد الكونفدرالي العربي المراد إنشاؤه لاحقاً.

تدور المنطقة - أ - في فلك النفوذ الفرنسي والمنطقة - ب - في فلك النفوذ البريطاني.

هـ - المنطقة السمراء:

تشمل فلسطين وتخضع لإدارة دولية يحدد شكلها في ما بعد، وذلك بعد التشاور مع روسيا وباقي الحلفاء وممثلي الشريف حسين.

و- بنود أخرى:

- تحصل بريطانيا في فلسطين على ميناءي حيفا وعكا، وتعتبر الاسكندرونة ميناءً حراً.

- لا يمكن في المنطقة - أ - بناء خط حديد بغداد باتجاه الجنوب بعد الموصل، وفي المنطقة - ب - باتجاه الشمال بعد سمراء، ما لم ينته العمل في الخط الحديدي الذي يصل بغداد بمدينة حلب فقط، وذلك بعد موافقة الحكومتين.

- يحق لبريطانيا العظمى أن تبني خطاً حديدياً تمتلكه وتديره بمفردها، يجمع حيفا بالمنطقة - ب - ولها الحق الدائم بنقل جندها في مختلف الظروف والأحوال عبر هذا الخط. ومن المتفق عليه بين الحكومتين أن هذا الخط الحديدي يجب أن يسهل ربط بغداد بمدينة حيفا على المتوسط.

- في كانون الأول ١٩١٨ حصل اتفاق في لندن بين لويد جورج وكليمنصو من أبرز ما جاء فيه: موافقة فرنسا على إدخال منطقة الموصل في دائرة النفوذ البريطاني، آخذة في عين الاعتبار أن معظم القتال الذي دار في الشرق الأوسط، قام به البريطانيون وحدهم. وتعهدت بريطانيا، مقابل ذلك، بالحفاظ على حصة فرنسا من الثروات النفطية في العراق بمعدل ٢٥٪ من نفط الموصل(١).

---

(١) الخريطة رقم

المشرق واتفاقية سايكس - بيكو ١٩١٦

الفصل السابع

الثورة العربيّة الكبرى (١٩١٦ - ١٩١٨)

١ - الخطوات التمهيدية

كان الشريف حسين، حتى شهر نيسان ١٩١٦، يعتقد بأنه كان في إمكان العرب القيام بثورة في الحجاز وبلاد الشام في وقت واحد. وكان أيضاً قد فقد الأمل، منذ خريف ١٩١٥، بقيام العسكريين العرب في الجيش العثماني بحركة تمرد تنقذ البلاد العربية، إلاّ أن الأمل بقي لديه في احتمال قيام رجال القبائل أو أهل البلاد من سكان القرى والأرياف بثورة مدمرة تعيد الحقوق إلى أصحابها الشرعيين. ولتنفيذ هذه الفكرة بقي الأمير فيصل بن الحسين في دمشق لمدة طويلة يعمل خلالها لتحقيق هذا الهدف. وكان الشريف على استعداد لأن يرسل المتطوعين الـ /١٥٠٠/ من المدينة إلى سوريا تحت غطاء الاشتراك في الحملة الثانية ضد الإنكليز في مصر، في الوقت الذي يبلّغه الأمير فيصل أن السوريين مستعدون للانضمام إلى المتطوعين ورفع راية الثورة[١] بقيادة الأمير نفسه. وكان الشريف يأمل أيضاً في أن يقوم بإنزال قوات على الساحل السوري، مما يستدعي حشد قوات كبيرة عثمانية لمجابهة هذه الحملة، الأمر الذي يفسح في المجال للثوار في سوريا لتنفيذ مآربهم.

---

(١) موسى، م س، ص٢٦١.

- حكيم أنطوان - بيطار كلود ماري - سلسلة التاريخ بالوثائق - الجزء السادس - السلطنة العثمانية العرب والدول الكبرى ١٩١٤-١٩٢٠ - الدار اللبنانية للنشر الجامعي، البوليصية - جونية، ١٩٨١، ص١٨.

في ٢٤ شباط ١٩١٦ غادر الأمير علي، النجل الأكبر للشريف، مكة على رأس المتطوعين، قاصداً المدينة لبدء الحركات فيها(١)، وفي حال تأخر السوريون عن إعلان الثورة، فسيعلنها الأمير علي أولاً، وعندما تسمح الظروف يبدأها الأمير فيصل بعده في سوريا. ولكن الشريف كان يخشى أن يحشد الأتراك قوات عسكرية كبيرة ضد الثائرين فتقضي عليهم، لذلك قال لمكماهون في إحدى رسائله المؤرخة في ٦ آذار: «لا بد من اشتراككم بالتعرض عل أحد سواحل سوريا لتشجيع أهلها والقضاء على القوة التي فيها ...». وكي يثير الأهالي في الحجاز واعتماد الثورة، طلب من الإنكليز فرض الحصار على شواطئها ومنع ورود الحبوب إليها. ثم طلب أن توضع كميات من الأسلحة والعتاد واللوازم في بور سودان لتكون جاهزة تحت الطلب.

لقد تمكّن جمال باشا، قائد الجيش العثماني الرابع، من منع زعماء بلاد الشام عن التفكير في الثورة ضد السلطنة، وذلك بإلقاء القبض على الزعماء الوطنيين وزجهم في السجون أو إرسالهم إلى المنفى، مما دفع الشريف الحسين إلى قطع الأمل بقدرة السوريين عل الثورة. وقد رأى أن الواجب الآن ملقى على عاتق الحجازيين للبدء بالثورة والعصيان، ثم الزحف في اتجاه الشمال نحو دمشق، على أمل أن الإنكليز سيقومون بإنزال حملة عسكرية من قواتهم في الساحل السوري ونسف الخط الحديدي الذي يصل سوريا بالأناضول لتسهل الحركة على الأمير فيصل في سوريا للقيام بمن معه من «أهل البلاد والمملكة الذين ينتظرون الفرج من مثاقب الإبر مما يقاسونه من أنواع التعديات المعلومة». وقد قرر الشريف قطع خطة السكة بين بلاد الشام والحجاز حتى يواجه تفوق «قوات الترك النظامية»(٢).

لم يكن في نية المسؤولين البريطانيين إشعال الثورة في سوريا نظراً إلى رد الفعل المحتمل بالنسبة للفرنسيين. فهذه المنطقة

(١) موسى، م س، ص ٢٦٢.
- حكيم، بيطار، م س، ص٢١.
(٢) موسى، م س، ٢٦٢.

تركت في صورة قاطعة لفرنسا، وفق الاتفاقات السرية التي حصلت بين الدولتين لتقسيم البلدان التي كانت داخل الإمبراطورية العثمانية(١). وفي حال قيام الثورة ستعتبر فرنسا أن العمليات العربية موجهة ضدها وليس ضد الأتراك. وقد أبدى كلايتون الإنكليزي شكوكه في قدرة الحجازيين على القيام بعمل حربي فعال في سوريا، بعدما تبين للشريف حسين أن السوريين أنفسهم لن يثوروا. وقد قرر الإنكليز أن ينصحوا الشريف بأن يكتفي في الوقت الراهن بالاستيلاء على خط سكة الحديد وطرد الأتراك من الحجاز. وبالرغم من أن الحكومة البريطانية في مراسلاتها مع الشريف حسين جعلته يشعر بأنها تتعامل معه على أساس أنه يمثل كل العرب، الأمر الذي رسخ في ذهنه هذا الوهم المضلل الذي ظل يدغدغ أمانيه(٢). مع العلم أن البريطانيين نسجوا اتفاقات ومعاهدات مع حكام عرب آخرين في الجزيرة العربية إلى جانب الشريف حسين، مثل الشيخ مبارك، حاكم الكويت، والسيد الادريسي في عسير، وابن سعود في نجد(٣). ومن المؤكد أيضاً أن الإنكليز كانوا لا يرغبون مطلقاً «بخلق مملكة عربية متحدة وقوية تحت رئاسة الشريف أو أي شخص آخر غيره، حتى لو كان ذلك ممكنا»(٤). وهكذا نجد المسؤولين البريطانيين يعملون جاهدين لإقناع الشريف بأن ينسق خططه لكي تتفق مع خططهم السياسية، من دون أن يطلعوه على الأسباب الحقيقية عملاً بالمبدأ القائل «الغاية تبرر الوسيلة». كان المطلوب أولاً أن يعلن الشريف الثورة على العثمانيين (دولة الخلافة)، مما يخدم أغراض بريطانيا

---

(١) اتفاقية سايكس – بيكو.

– زين نور الدين زين، الفرع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان – دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٧، ص٦٧ (مرجع ثاني).

(٢) زين، م س ثاني، ص٦٩.

(٣) زين، مماثل، ص٢٠٩ رقم (٣١).

(٤) موسى م س، ص٢٦٣.

السياسية[1] وثورته هذه ستكون ضربة قاضية وخطيرة ضد هيبة الأتراك في العالم الإسلامي[2].

في ٢٢ أيار ١٩١٦ بعث مكماهون برسالة إلى الشريف حسين يقنعه فيها أكثر بالسير على خطط تلائم خطط بريطانيا السياسية والعسكرية. وفعلاً اتخذ الشريف الترتيبات اللازمة للاستيلاء على خط سكة حديد الحجاز لأن الثورة ستقوم في الحجاز فقط. وبالرغم من ذلك فإن الشريف ظل متمسكاً بنظريته القائلة إن بريطانيا تعهدت بإنزال حملة في الساحل السوري وإنها في ما بعد أخفقت في الالتزام بذلك التعهد وتنفيذه.

كان الشريف حسين يخطط لبدء ثورته في شهر تموز أو آب، حتى يتاح للقبائل أن تتزود بالمؤن بعد موسم الحصاد الذي يصادف في شهر أيار، وهكذا يمكن للقبائل الاشتراك في الثورة بعد تأمين المؤونة السنوية كالمعتاد. ولكن عاملاً جديداً طرأ على الوضع اضطر الحسين لأن يبدأ قبل الموعد المحدد: فقد قدمت حملة تركية قوامها ٣٥٠٠ جندي من خيرة الجنود الأتراك بقيادة خيري بك، وكانت وجهتهم اليمن، لكن الشريف ساورته المخاوف، إذ تبادر إلى ذهنه أن هدف الحملة هو مكة وليس اليمن، من أجل تصفية الحسابات القديمة والحديثة معه والفتك به. لذلك أخذ يعد العدة للإسراع بإعلان الثورة. وقد طلب من جمال باشا أن يعود ابنه الأمير فيصل إلى الحجاز كي يترأس المتطوعين الـ ١٥٠٠ من مكة إلى المدينة كي يسافرا إلى دمشق بالقطارات التي ستنقل جنود الحملة[3].

وكان جمال باشا أنبأ الشريف أنه سيتولى قيادة الجيش الرابع في ظل علم الخلافة المقدس للهجوم مرة ثانية على الإنكليز في مصر، وأن قوات ألمانية ونمسوية سوف تشترك في الجهاد الأمر الذي لم يعجب الشريف.

(١) موسى، مماثل، ص٢٦٤.

(٢) رسالة كلايتون بتاريخ ١٧ أيار ١٩١٦ إلى مدير الاستخبارات العسكرية في وزارة الحربية.

(٣) موسى، م س، ص٢٦٥-٢٦٦.

وقد اتضح في ما بعد أن حملة خيري بك كانت وجهتها اليمن لتعزيز القوات الموجودة فيها بغية الهجوم على ميناء عدن بقصد الاستيلاء عليه.

خلال شهري نيسان وأيار ١٩١٦، أظهر الشريف للأتراك تعاونه الكامل، إذ أرسل قسماً من المتطوعين إلى المدينة بإمرة ولده الأكبر الأمير علي، الذي راح يتصرف هناك كأنه الآمر والناهي في المدينة، مما أزعج بصري بك المحافظ، فاختلفا وشكاه المحافظ إلى جمال باشا الذي طلب من الشريف استدعاء الأمير علي إلى مكة[1] فرد الشريف قائلاً إنه سوف يستدعي علي ولكن المجاهدين يصرون على قدوم فيصل إلى المدينة كي يتولى قيادتهم. وهكذا توافرت الفرصة الملائمة التي أتاحت لفيصل العودة إلى الحجاز.

كان إعدام القافلة الثانية من الشهداء في ٦ أيار ١٩١٦، دافعاً مهماً لإقناع الحسين بالتعجيل بالثورة وإقناع فيصل بأن السوريين لم يعد في استطاعتهم الإشتراك فيها. لم يتمكن فيصل من إقناع جمال باشا بالعفو عن أصدقائه، وعندما بلغه نبأ إعدام أولئك الرجال من زعماء سوريا ومثقفيها خلع كوفيته وعقاله وألقى بهما أرضاً بعنف وصاح بعبارته المشهورة «طاب الموت يا عرب»[2].

٢ - إعلان الثورة الكبرى

بدأت هذه الثورة في العاشر من شهر حزيران ١٩١٦، بقيادة الشريف حسين وبمعاونة بريطانيا العظمى عسكرياً ومالياً. ويحسن بنا أن نذكر أن الحكومة الفرنسية أيضاً قدمت مساعدات، وإن لم تكن على نطاق واسع، إذ ساعدت إلى حد كبير في إنجاح العمليات العسكرية المشتركة التي اشترك فيها الفرنسيون ببسالة وبصورة بارزة. أما من الجانب العربي فقد كان أبرز المشتركين في الثورة أبناء الشريف حسين الأربعة: الأمراء علي - عبد الله - فيصل

(١) موسى، تماثل، ص٢٦٧.

(٢) موسى، م س، ص٢٦٧-٢٦٨.

وزيد، وعدد كبير من الضباط العرب الذين نظموا القبائل العربية وقادوها، وقوات حجازية انضمت إلى الثورة مناصرة للشريف حسين. وكان معظم ضباط العرب من العراقيين الذين خدموا في الجيش العثماني. وقد كان أولئك الضباط إما من بين الأسرى الذين أسرهم الإنكليز أو من الذين هربوا من الجيش التركي والتحقوا بقوات الحسين[1]، أمثال نوري السعيد وجعفر العسكري وعلي جودت الأيوبي وجميل المدفعي ومولود مخلص وشاكر عبد الوهاب الشيخلي وحامد الشالجي وعبد اللطيف نوري البغدادي وإبراهيم الراوي ومحمد شريف الفاروقي الذي عينه الشريف حسين ممثلاً له في القاهرة[2].

انتخب الأمير فيصل ليقود القوات العربية الزاحفة من مكة شمالاً إلى العقبة، وكان عمره آنذاك ٣٥ سنة فقط. وفي أثناء هذه الثورة برزت شخصية شاب بريطاني عالم بالآثار اسمه توماس إدوارد لورنس.

عند بدء الحرب العالمية الأولى كان لورنس يعمل كضابط في دائرة الاستخبارات في القاهرة تحت إمرة السير كلايتون وقد التحق بجيش القبائل تحت إمرة الأمير فيصل حيث اكتسب شهرة عالمية وأصبح يعرف بـ «لورنس العرب»[3].

أما من جانب الحلفاء فعينوا السير وينجيت (Wingate)، القائد العام في الحجاز، المسؤول عن الستراتيجية الحربية وعن الأعمال العسكرية وعن اللوجستية في الجيش، وعن الدبلوماسية الصعبة المعقدة التي كانت تنطوي عليها الثورة منذ اللحظة الأولى التي برز فيها الشريف حسين على مسرحها.

ان إعلان الثورة على خليفة المسلمين، السلطان العثماني، نزل كالصاعقة على كثيرين من المسلمين السنيّين في مختلف أنحاء العالم، ولا سيما بين مسلمي الهند. والواقع أن الثورة العربية فاجأت الأتراك على حين غرة. فأصابهم الذهول والارتباك

(١) زين، مرجع ثاني، ص٧١-٢١١.
(٢) زين، مرجع ثاني، ص٢١٢.
(٣) زين، مماثل، ص٧١.

لأول وهلة، وتبين أنهم لم يكونوا يتوقعون قيامها، مما يدل إلى ضعف أجهزة مخابراتهم وقلة كفايتها وقدرتها(١).

لقد أفاد الشريف حسين من إعلان الثورة في حزيران، إذ أن الجانب الأكبر من القوات التركية كان قد غادر مكة وجوها الحار إلى بلدة الطائف، وهي مصيف الحجاز على بعد حوالى مئة كيلومتر إلى الشرق. ورافق هذه القوات الوالي والقائد العام الفريق غالب باشا وأركان حربه ولم تبق في مكة سوى قوة صغيرة نسبياً، وأفاد الشريف من طبيعة الأرض الوعرة في الحجاز وعدم وجود وسائل نقل آلية لدى القوات التركية، فتمكن رجال البدو من قطع خطوط المواصلات ما بين الحاميات الرئيسية المرابطة في مكة والطائف وجدة والمدينة. وقد تمكّن الثوار المسلحون بالبنادق الفردية وبعض الرشاشات القديمة العهد من مواجهة تفوق جيش نظامي تركي لديه المدافع والأسلحة الحديثة(٢).

٣ - القوات التركية عند إعلان الثورة(٣)

حينما بدأت الثورة نهار السبت ١٠ حزيران ١٩١٦ (٩ شعبان ١٣٢٤) كانت الفرقة ٢٢ العثمانية ترابط في الحجاز، وتتألف من الكتائب ١٢٨ و١٢٩ و١٣٠، بالإضافة إلى كتيبتين من فرقة عسير (الفرقة ٢١) إحداهما في القنفذة والثانية في الليث. وكان مجموع عديد الجيش التركي يقارب الاثني عشر ألف رجل مسلحين بالمدافع والبنادق الحديثة، ويتولى قيادتهم ضباط مدربون تدريباً جيداً على أساليب الحرب.

في المدينة كان لدى الأتراك قوة عسكرية تتجاوز الأربعة آلاف جندي وضابط بقيادة فخري باشا، وهو ضابط قوي الشكيمة شديد المراس. أما في الطائف فكان الشريف غالب باشا يصطاف مع أركان حربه، ومعه قوة تزيد على ٣٥٠٠ ضابط وجندي مع عشرة مدافع.

---

(١) موسى، م س، ص٢٦٩.
(١) موسى، م س، ص٢٧٣.
(٣) موسى، مماثل، ص٢٧٤.

وفي مكة كان عدد القوات التركية يتجاوز الـ ١٢٠٠ ضابط وجندي بقيادة درويش باشا. ولديها ٢٠ مدفعاً، بينما كانت قوة جدة تتألف من ٢٦٠٠ جندي وضابط ولديها ٢٠ مدفعاً و١٥ رشاشاً. هذا بالإضافة إلى حاميات ينبع والوجه ومحطات سكة الحديد وبعض المواقع العسكرية الأخرى.

٤ – بداية انتصارات الثورة

«ابتدأت الأمة العربية تتحمل مسؤولياتها بنفسها وتسعى إلى إنقاذ حريتها واستقلالها بسلاحها وجهاد بنيها»(١). لقد بدأ القتال في الفجر الباكر من يوم ١٠ حزيران، عندما أطل الشريف حسين من إحدى نوافذ قصره وأطلق رصاصة من بندقيته، فكانت الإعلان الرسمي لبدء الثورة المتفق عليه بينه وبين رجاله الذين كانوا قد احتشدوا أثناء الليل حول المواقع التركية الأربعة: دار الحكومة (الحميدية) ومركز (باش قرقول) وقلعة أجياد وثكنة جرول. قطع رجال الشريف أسلاك الهاتف مع جدة والطائف وباشروا بالهجوم، وكان يتولى قيادتهم الأمير زيد والشريف شرف عبد المحسن البركاتي. وبقي الجيش العثماني محاصراً في ثكنة جرول وقلعة أجياد التي تقع على تلة مرتفعة. وراح الأتراك يقصفون القوات الشريفية بالمدافع، وقد أصابت إحدى القذائف البيت الشريفي من فوق الحجر الأسود وأشعلت النار في الستار المبارك وأطفئت في الحال. وأصابت قذيفة أخرى أحد عقود الأروقة، ومن غريب الصدف إنها وقعت على اسم عثمان بن عفان فأزالته «وكانت هذه الإصابة من الدولة على زوال دولة آل عثمان»(٢).

استمرّ القتال طوال اليوم، وفي اليوم التالي استسلم مركز باش قرقول، وفي اليوم الثالث أرغمت دار الحكومة، وفيها وكيل الوالي، على الاستسلام. وظل القتال محتدماً بين العرب من جهة وبين قلعة

(١) الملك عبد الله بن الحسين، مذكرات، مرجع س، ص١٠٧.
(٢) الملك عبد الله بن الحسين، مماثل، ص١٠٨.

أجياد وثكنة جرول والعرب لا يملكون مدافع تواجه مدافع العثمانيين، إلى أن وصل محمد شريف الفاروقي قادماً من جدة ومعه مدفعان من المدافع التي غنمها العرب هناك، وستة من السدنة الأسرى للعرب الذين أقنعهم بمرافقته إلى مكة، حيث نصبهما في مواجهة القلعة وأخذ يطلق قذائفه عليها[1].

سقطت جدة في اليوم الثالث للثورة، وسقطت قلعة جرول في اليوم التاسع وأسر فيها ألف ومائتا جندي وضابط. أما قلعة أجياد فقد هوجمت وأخذت عنوة بعد جرأة قائدها اليوزباشي كامل أفندي وضربه البيت الحرام. وفي جدة كان الأسطول البريطاني يساعد من البحر على قصف الثكنات العسكرية. وأما الطائف ففيه كانت الفرقة العثمانية التي يقودها الوالي والفريق غالب باشا، وكان يقود القوات العربية الأمير علي بن الحسين[2].

كانت السفن البريطانية الثلاث التي ساندت قوات الشريف في يوم ٢٩ حزيران، تحمل بطاريتي مدفعية (٦ مدافع مكسيم و٦ مدافع جيلية ١٠ أرطال) من المدفعية المصرية بقيادة الأميرالاي سيد علي وكميات من الأعتدة والمؤن و٣ آلاف بندقية. وقد فتحت مدفعية الأسطول ثغرة في جدار القلعة، تسلل منها رجال الشريف وأرغموا حاميتها على الاستسلام يوم ٤ تموز. وبعد يومين وصلت المدافع الأخرى إلى مكة فوجهت قذائفها إلى ثكنة جرول حتى اضطرت إلى الاستسلام يوم ٩ تموز.

هاجم الأمير عبد الله الطائف التي وصلها في أول حزيران وليس معه سوى ٧٠ هجاناً. وقد تمكّن من حشد رجال القبائل حوله بحجة رغبته في قيادة حملة لتأديب إحدى القبائل العاصية، قبيلة البقوم. وقد ساهم الشريف شرف بن راجح أمير الطائف مساهمة كبيرة في مساعدة الأمير علي على

(١) موسى، م س، ص٢٧٥.
- الملك عبد الله، مذكرات، م س، ص١٠٨.
(٢) موسى، تماثل، ص٢٧٦.
- الملك عبد الله، مذكرات، ص١٠٨.

هذا الحشد[1]. وظلّ الأمير علي طوال ثمانية أيام يزور الوالي يومياً مبالغة في طمأنته. ويبدو أن الأتراك شعروا بأن الاستعدادات التي يقوم بها الأمير هي أضخم مما يحتاج إليه تأديب قبيلة صغيرة مثل قبيلة «البقوم»، فطلب قائد الفرقة إلى الوالي أن يصدر أمراً باعتقال الأمير على سبيل الاحتياط، لكن الوالي لم يوافق لأنه لم يكن يملك أي إثباتات ضده. ففي ٨ حزيران أزمع الأمير عبد الله الخروج فيه بدعوى غزوة قبيلة البقوم، فاستدعاه الوالي وقال له بأن لا يذهب في الغزوة خشية أن يلقى القبض عليه. وعند وصول الأمير إلى منزل الوالي قرر أن يقتله في مكتبه في حال قرر إلقاء القبض عليه. ولكن الأمور لم تكن هكذا إذ حذره الوالي من أن الوقت ليس مناسباً وعليه تأخير خروجه للغزوة هذه، خاصة «وفي البلاد شائعات، أن الناس يقولون أن ثورة ستقع، وأهل الطائف يرحلون بأمتعتهم وأطفالهم». وبعد خروجه من لدن الوالي تحرك الأمير عبد الله إلى المركز الهاشمي للحركة، وهو عند سفح جبل سواقه على يسار الطريق إلى مكة عن ناحية العرفية[2].

في ٩ حزيران ١٩١٦ طلب الأمير عبد الله من رجاله قطع أسلاك البرق والهاتف بين الطائف ومكة. وفي ١٢ منه ليلاً هاجم مواقع الأتراك، وكان الهجوم عنيفاً، وطال الاشتباك الذي كان على دائرة واسعة حول بلدة الطائف المسوّرة. وقد بدأ الهجوم من الجبهة الشمالية، وكان الأتراك قد حكموا أسوار المدينة، «وحفروا خندقاً من بستان الرياض متجهاً من الشرق إلى الغرب إلى مكان يسمى معشي، ثم ينحرف إلى الجنوب إلى هضبة أم السكارى وفيها أحد مراكزهم القوية ومدفعان، ثم ينحرف شرقاً بمحاذاة

---

(١) الملك عبد الله، مذكرات، مماثل، ص١٠٩.
- كانت القبائل التي آزرت الأمير علي هي: عتيبة، حليمة السعدية، البطنين، السرات، ثقيف آل ساعد وآل منصور، النمور، الرقعة، عتيبة، وقدان وثمالة، ابن الحارث، وسبيع.
(٢) الملك عبد الله الحسين، مذكرات، م س، ص١١٠-١١١-١١٢.
- موسى، م س ، ص٢٧٧.

برج غلفة، ثم إلى الشمال يخالط وادي وج، ومنها إلى دقاق اللوز»(١).

لم تكن مع رجال الأمير كميات كبيرة من عتاد البنادق الحديثة، لذلك أخذ يستعين بالبنادق ذات الفتيل، ولجأ إلى إشعال النيران في الليل على رؤوس الجبال، مما أوقع الرعب في قلوب الأتراك. ولو كان على رأس القوات التركية قائد حازم شجاع «لما رضي أن يتخذ موقف الدفاع أمام جماعات من البدو غير النظاميين»(٢).

ويقول الأمير عبد الله في اليوم الثاني من الهجوم «ولو خرج الوالي والقائد بقواته لكان وصل إلى مكة بسلام لنفاذ عتادنا الحربي كلياً»(٢).

يوم الهجوم، عند بزوغ الشمس، ابتدأت المدفعية التركية كأشد ما يكون، ترمي بقذائفها المهاجمين، فلم يتمكن بنو سعد من الوصول إلى أهدافهم، فاضطروا إلى التراجع إلى نواحي شبرا، ثم انصرفوا إلى بلادهم.

وقد تمكن الأتراك من إحراق قصور الإمارة السبعة. وعند الظهر اشتد الظمأ على أفراد القوات الشريفية ورغم كل ذلك فقد هاجم الشريف فهد بن شاكر من الناحية الغربية والجنوبية بعشائر النمور وهذيل وبني سفيان(٣). وفي الليل هاجموا هضبة أم السكارى وقضوا على الحامية واستولوا على مدفعين للأتراك، وقد كان الهجوم بالخناجر والحراب وجهاً لوجه، بعدها تراجع الأتراك عن هضبة أم الشيخ واستولى الشريفيون على شرقرق عنوة وعلى جبل أبي صحفة.

كانت خطة الأمير منع الأتراك عن مغادرة الطائف لأن قواته لا تستطيع مهاجمة المواقع الدفاعية المحصنة للجنود العثمانيين. بعد بضعة أيام استولى العرب على موقع أمامي للأتراك وغنموا فيه مدفعين وأسروا حوالى ٢٠٠ من عناصره مما أجبر العثمانيين على التراجع عن كل مواقعهم الأمامية وانتهاج

---

(١) عبد الله بن الحسين، مذكرات، م س، ص١١٢-١١٣.
(٢) موسى، م س، ص٢٧٧-٢٧٨.
- عبد الله بن الحسين، مذكرات، م س، ص١١٦.
(٣) عبد الله، مماثل، ص١١٤.

سياسة المدافعة حتى وصول الإمدادات البشرية واللوجستية من سوريا.

في منتصف تموز، وصلت إلى الطائف سرية من المدفعية (٤ مدافع جبلية)، آتية من مكة بعدما أصبحت في أيدي العرب، وراحت تقصف بشدة المواقع التركية. وبعد حوالى الثلاثة أشهر من القصف والعمليات العسكرية وعدم تعزيز الحامية من الخارج لفك الحصار عنها، قلّت كمية المؤن والذخائر مما اضطر رجال الحامية في الطائف إلى الاستسلام في ٢٢ أيلول ١٩١٦، وأصبح معظم الحجاز في أيدي القوات الشريفية[1].

٤١ - عملية استسلام حامية الطائف:

في العاشر من ذي القعدة، تلقى الأمير عبد الله في الطائف كتاباً من القائد العام الوالي التركي هذا نصه[2]:

«إلى الشريف عبد الله بك نجل الشريف حسين باشا: لكي نثبت للغرب مزايا الشرق، أقترح عليك أن تسمح للقوى المحصورة بالطائف بالسفر إلى المدينة المنورة بجميع أسلحتها وبمن فيها من عائلات الضباط ومن يرغب السفر بينهم من الجالية التركية. فإذا وافقتهم على ذلك وهو المعلوم، ننتظر الجواب كي نشعركم بوسائط النقل اللازمة وعدد الجمال».

بعد تلقّي هذا التحرير أعلاه، بعث الأمير عبد الله برده قائلاً: «إن هذا ليس بيدي، وإن الحالة الراهنة لا تكفل سلامة وصول هذه القوى المتراجعة إلى المدينة، وإن من خيركم أن تستسلموا جميعاً ثم ترحلوا إلى المكان المناسب». فلم يرد أي جواب من العثمانيين على هذا الاقتراح.

وكان في هذه الأثناء، أن قوات فخري باشا التركي قد تمكنت من التضييق على قوات الأميرين علي وفيصل، فدفعت الأول إلى رابغ، والثاني إلى ينبع البحر. ولما كانت الأوامر ترد إلى الأمير عبد الله مشددة على لزوم وجوب إسقاط الطائف والسيطرة التامة

(١) موسى، م س، ص٢٧٨.

(٢) الملك عبد الله، مذكرات، م س، ص١١٦-١١٧-١١٨.

عليه وذلك بقصفه بالمدفعية بلا هوادة، وخاصة مركز القيادة فيه، وهكذا حصل، إذ ما لبث القائد العام الوالي أن بعث إلى الأمير عبد الله بهذا الكتاب وقد ورد بعد هزيع من الليل:

«إلى قائد الجيوش العربية الشرقية الشريف عبد الله بن الحسين. إنه بالرغم من كثرة العتاد والذخيرة رأيت لزوم حقن الدماء، ولذلك نرجو قبول هيئة منا لتتذاكر في معاملة التسليم والتسلم وفق حقوق الحرب الدولية، أو تتكرموا بإرسال هيئة منكم إلينا». وقد وقعت هذه الرسالة كما يلي: كومندان القوة العثمانية المحصورة فريق غالب باشا.

وافق الأمير عبد الله على مضمون هذه الرسالة، وخاصة على الهيئة التي كان يريدها الوالي التركي. فبعث إليه القائد المذكور سليمان بك ومعه رئيس أركان الحرب العثماني ناظم بك، والأميرالاي حيدر بك قائد ومتصرف عسير سابقاً، وحضر الجميع إلى قصر الشريف فتن بن محسن بالميساء. وكانت البعثة العربية برئاسة سعيد المدفعي والرئيس فؤاد والملازم أحمد حلمي. وتقرّر التسليم على الشكل التالي:

أ - يخرج الوالي والقائد والرؤساء العسكريون حتى رتبة مقدم (بكباشي) في هذه الليلة إلى قصر شبرا.

ب - تترك الوحدات العسكرية تحت إمرة الرؤساء المباشرين من رتبة نقيب وما دون.

ج - تتراجع الوحدات العسكرية هذه في منتصف الليل إلى الثكنة الكبرى وتترك على المداخل بعض الخفراء والحجاب، وفي تلك الساعة تتقدم القوات الراكبة العربية، بقيادة الشرفاء فهد بن شاكر وسلطان بن راجح وحسين الجودي، لتحتل المداخل وتؤمن السلامة والأمن العام.

د - مع الفجر يتقدم القائد سعيد بك ومعه الهيئة ليضعوا أيديهم على الأسلحة والمدافع والذخائر الموجودة، فتوضع في مخازنها وتمهر بالشمع الأحمر.

هـ - تتولى القيادة العربية تأمين الإعاشة والتموين اللوجستي.

و- تصرف للهيئة المستسلمة رواتب ثلاثة أشهر.

ز - تنتظر الأوامر بالتوجّه حالاً إلى الجهة المقتضية.

وقد تمّ كل هذا بهدوء تام وسلام، ومن ثم رخص لكثير من العشائر بالعودة إلى ديارهم لمدة من الزمن. وفي اليوم الثاني أنزل العلم العثماني عن القلعة ورفع مكانه العلم العربي. واستناداً إلى الشروط الدولية رُحّل القائد والوالي والجنود إلى مكة المكرمة، بعدما صرفت لهم رواتب ثلاثة أشهر. وبعد وصول القائد التركي الفريق غالب باشا إلى مكة، بعث بسيفه إلى الأمير عبد الله، لئلا يأخذه أي ضابط أجنبي(١).

في هذه الأثناء كان العرب قد استولوا على عدد من المواقع التركية على الساحل بمساعدة السفن الحربية البريطانية وهي الليث (٢٣ حزيران) والقنفذة (٨ تموز) وينبع (٢٧ تموز) وأملج (لآب).

ولكن النجاح الذي أحرزه العرب في جدة ومكة والطائف لم يكن حليفاً لهم في المدينة المنورة. والسبب الأول هو ارتباط المدينة مع دمشق بواسطة خط سكة الحديد. فقد بادر الأميران علي وفيصل يوم ٥ حزيران إلى العمل بمن احتشد حولهما من رجال القبائل، فاتجه فيصل شمالاً لقطع خط السكة وتمكن من نزع كميات من القضبان على مسافة ٢٠ كلم، بينما حاول علي أن يفرض الحصار على المدينة ويمنع وصول المياه إليها(٢). وفي ٨ حزيران هاجم الأميران محطة المحيط، لكنهما أخفقا في الاستيلاء عليها. وفي اليوم التالي وقعت معركة بين الأتراك بقيادة فخري باشا والعرب، استمرت من الصباح حتى الظهر وانتهت بتراجع قوات الشريف إلى موقع بير الماشي على بعد ٣٠ كلم من المدينة. وفي أثناء ذلك قام العثمانيون بإصلاح خط سكة الحديد، وقامت قوة منهم بقيادة فخري بك في منتصف حزيران، فاحتلت العوالي وبلغت بير الماشي فاحتلتها وحصنتها. بعدها افترق الأمير فيصل عن شقيقه الأمير علي، فاتجه الأول بقواته إلى الشمال الغربي باتجاه ينبع،

---

(١) الملك عبد الله، مذكرات، م س، ص١١٩.

(٢) موسى، م س، ص ١٧٨-٢٧٩.

واتجه الثاني بقواته إلى الجنوب الغربي من المدينة باتجاه رابغ، ثم تمركزا في سلسلة التلال الوعرة التي تفصل المدينة عن الساحل(١).
وقد التحق نوري باشا السعيد وسائر الضباط بمعسكر رابغ والبعض الأخر بمعسكر ينبع(٢).

في ١٣ آب تابع الأتراك بقيادة فخري بك عملياتهم العسكرية، فاشتبكوا مع قوات الأمير علي، ولكن وعورة الأرض ساعدت الشريفيين على الصمود فارتد الأتراك بعد أن أصيبوا بخسائر فادحة. وأعاد العثمانيون الكرة يوم ١٩ آب ضد قوات فيصل فدارت معركة دامية أيضاً بين الخصمين انتهت بتراجع الأتراك بعدما أسر العرب عدداً كبيراً منهم(٣).

ومن أهم العقبات التي واجهها الأميران علي وفيصل خيانة حسين بن مبيريك شيخ رابغ. فقد أنزلت السفن الإنكليزية كمية كبيرة من المؤن والسلاح (بنادق) والعتاد على أساس أن يؤمن إيصالها للقوات الشريفية (علي وفيصل) وأن يشترك معهما في القتال، فمنع إرسالها إلى الداخل وحال في نهاية حزيران ١٩١٦ دون نزول سرية المدافع المصرية التي كانت ستستعمل ضد مدفعية الأتراك. وبعدما سقطت مكة بيد الشريف حسين، أرسل قوات من عنده بقيادة الأمير زيد إلى رابغ فاستولت عليها، وفر ابن مبيريك إلى التلال وظل طريداً حتى نهاية الحرب(٤).

كان الأمير فيصل يشكو كثيراً تأثير الطائرات الألمانية في رجال القبائل، وكان من المفروض أن تساند الطائرات الحليفة القوات العربية وإلاّ «فلا يبقى من العربان

---

(١) موسى، م س، ص٢٧٩.
(٢) الملك عبد الله، مذكرات، م س، ص١١٩.
(٣) موسى، ص٢٧٩-٢٨٠.
- الملك عبد الله، مذكرات، ص١٢٠.
(٤) موسى، ص٢٧٩.
- الملك عبد الله، مذكرات، ص١٢٧.

أحد في ناحيتنا وتحت أيدينا». وكان القلق ظاهراً في برقياته وتقاريره[1].

تكوّنت في رابغ قوة عسكرية نظامية لا بأس بها من الضباط والجنود العرب الذين كانوا في الجيش العثماني وحاربوا معه ضمن قطعه ووحداته، لكنهم أسروا، فنقلوا إلى المعسكرات الإنكليزية وطلبوا الالتحاق بالثورة العربية. وكانت هذه القوة النظامية تضم: المشاة والمدفعية والأسلحة الرشاشات والهندسة، ولم يكن ينقصها إلاّ الخيالة النظامية، وقد عوض العرب عن الخيالة هذه بالخيالة الشريفية الملتحقة بالشريف حسين، فإنها كانت تنفذ المهمات الملقاة على عاتقها بدقة وشجاعة. وراوح عديد هذه القوة النظامية ما بين الثلاثة آلاف والخمسمائة والأربعة آلاف. ولا يمكن للأتراك مهاجمة مكة إلاّ إذا أرسلوا قسماً من قواتهم لحصار ينبع ورابغ، «وفي هذا من الصعاب ما لا يجهله أحد»[2].

٥ – مبايعة الشريف حسين «ملكاً على البلاد العربية»

بادر جمال باشا قائد الجيش العثماني الرابع إلى إرسال تعزيزات من رجال وأسلحة إلى المدينة، على الرغم من انهماكه في الاستعداد للحملة الثانية على قناة السويس والتي نفذت في أوائل شهر آب ١٩١٦، وكانت نتيجتها الإخفاق التام كمثيلتها الحملة الأولى. بعد وصول هذه التعزيزات، ارتفع عديد القوات التركية العاملة تحت إمرة فخري بك في شهر أيلول إلى ١٤ ألف رجل، (الفرقة ٥٨ وبقايا فرقة الحجاز رقم ٢٢ وقوة خيري بك) مزودة بمدفعية قوية وأربع طائرات[3].

في الأول من تموز ١٩١٦ صدر فرمان سلطاني عثماني بعزل الشريف حسين وتعيين الشريف علي حيدر أميراً مكانه. وقد وصل علي حيدر إلى المدينة في أول آب،

(١) الملك عبد الله، مذكرات، ص١٢٠.
(٢) الملك عبد الله، مذكرات، ص١٢٠.
(٣) موسى، م س، ص٢٨٠-٢٨١.

ولكنه لم يبق فيها سوى ستة أشهر، إذ عاد في كانون الثاني ١٩١٧ إلى لبنان وبقي هناك سنة ونصف السنة ثم عاد إلى عاصمة السلطنة إسطنبول قبيل نهاية الحرب الأولى[١].

بعد سقوط الطائف ونجاح موسم الحج ثبتت الثورة أقدامها كما يجب، عندها قبل الشريف حسين على قرار اتخذه علماء الحجاز وزعماؤه والزعماء السوريون والعراقيون الموجودون في الحجاز يوم ٢٩ تشرين الأول ١٩١٦ (٢ محرم ١٣٣٥)، بإنشاء دولة عربية رسمياً والمناداة بالشريف حسين ملكاً على تلك الدولة باسم «ملك البلاد العربية». وقد قام الأمير عبد الله، بصفته وزير خارجية الحكومة الجديدة، بإبلاغ ممثلي الدول الحليفة في جده بالخطوة الجديدة، وطلب منهم الاعتراف رسمياً بالوضع.

وكانت الحكومة هذه مؤلفة من بعض الأعضاء مثل:

- الأمير علي رئيساً للوزراء.
- الأمير فيصل وزيراً للداخلية.
- عزيز علي المصري وزيراً للحربية ورئيساً لأركان الحرب.
- الشيخ عبد الله سراج قاضي القضاة ونائب رئيس الوزراء.
- الشيخ يوسف قطان وزير النافعة.
- حافظ محمد أمين أفندي ناظر الأوقاف.
- وغيرهم.

ولكن لم يمارس أحد من هؤلاء مهام وظيفته ممارسة فعلية بسبب انهماكهم في العمليات العسكرية ضد العثمانيين لطردهم من الدول العربية نهائياً بمساعدة بريطانيا العظمى[٢].

بعد مباحثات ما بين الحكومتين الفرنسية والإنكليزية اتفقتا على الاعتراف بالشريف

---

(١) موسى، م س، ص٢٨١

- الملك عبد الله، مذكرات، ص١٢٤-١٢٥.

George Stitt, A prince of Arabia, George Allen and union Ltd, p47.

(٢) موسى، م س، ص٢٨١.

- الملك عبد الله، مذكرات، م س، ص١٢٥.

حسين ملكاً على الحجاز فقط ومخاطبته بلقب «صاحب السيادة» وليس بلقب «صاحب الجلالة». ولكن المراسلات التي كان الشريف يتلقاها من المندوب السامي والمعتمد البريطاني في جدة باللغة العربية كانت جميعها تخاطبه بلقب «صاحب الجلالة». والنموذج التالي يدل إلى ما نقول: «حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الحسين بن علي ملك الحجاز وشريف مكة المعظم» وقد كرر فيها مخاطبة الحسين بكلمة «جلالتكم» سبع مرات على الرغم من أنها لم تتعدَّ الثمانية أسطر.

في ١٠ كانون الأول ١٩١٦ أرسل ولسون وبريمون[١] جواب حكومتيهما على هذا الأساس. وقد جاء في رسالة الحكومة البريطانية ما يلي:

«إن الحكومة البريطانية وحكومتي فرنسا وروسيا، مع أنها تعتبر وستظل تعتبر، سموكم الرأس الأسمى للشعوب العربية في ثورتها ضد الحكم التركي الظالم، ويسرها علاوة على هذا أن تعترف بسموكم اعترافاً واقعياً الحاكم الشرعي المستقل للحجاز - ولكنها في الوقت الحاضر لا ترى أن الفرصة مناسبة لاتخاذ لقب بمعنى الملك قد يكون سبباً لتفريق كلمة العرب وتفكيك عرى جامعة الاتحاد بينهم في مثل هذه الظروف، ومن ثم قد يؤثر تأثيراً سيئاً في تأسيس جزيرة العرب سياسياً ونهائياً على أساس متين ثابت الأركان»[٢].

وجاء في الرسالة أن التسوية النهائية يجب أن تتم بموافقة الحكام العرب الآخرين، وهي الموافقة التي لا دليل عليها حالياً والتي يجب أن تتبع، لا أن تسبق، النصر العسكري على العدو. وامتدحت الرسالة خطة الحسين بترك مسألة الخلافة إلى العالم الإسلامي ليقرّر في الوقت المناسب من يحتل هذا المنصب الخطير[٣]. استاء الشريف من هذا الموقف، وقد ظلت مسألة

(١) الكولونيل بريمون كان قائداً للتجريدة الفرنسية التي أرسلتها فرنسا إلى الحجاز لمساندة الشريف حسين في ثورته، وسيأتي الكلام عليها في سياق هذا الكتاب.

(٢) موسى، ص٢٨٢.

(٣) مماثل، ص٢٨٣.

لقب الشريف حسين مدار مباحثات بينه وبين البريطانيين سنين عدة.

ومن الخطوات المهمة التي اتخذها الشريف بعد إعلان الثورة ووقوع عدد كبير من أسرى الأتراك في يده، أنه طلب من رئيس الولايات المتحدة الأميركية، التي كانت لا تزال على الحياد - أن ينذر زعماء الحزب الاتحادي العثماني طلعت وأنور وجمال، بأنهم إذا لم يكفوا عن اضطهاد العرب فإنه سيعامل الأسرى الأتراك معاملة مماثلة(١). وقد كان لهذا الإنذار أثر حاسم، فصدرت الأوامر المشددة من القيادة العثمانية السياسية إلى جمال باشا بأن يكف عن سياسة التعسف والاضطهاد، فتوقفت عمليات الإعدام السياسي تقريباً، وأخذ الأتراك يتقربون من زعماء العرب في بلاد الشام (سوريا والعراق ولبنان) في محاولة لوقف انتشار التجنيد لفكرة الثورة العربية، وصدرت أوامر بإعادة معظم المنفيين إلى ديارهم. وبالرغم من كل ذلك أصدر جمال باشا فتوى بتكفير الشريف حسين وقعها مفتو ولايات سوريا وحلب وبيروت وسنجق القدس(٢).

٦ - الخوف على الثورة

بعد بدء الثورة العربية عمل المسؤولون البريطانيون في مصر والسودان على تنسيق العمل مع الشريف حسين، فبعثوا الكولونيل ولسن، حاكم مقاطعة البحر الأحمر في السودان، إلى جدة في ٢٤ حزيران ليدرس حاجات العرب وإمكانات تقديم المساعدة المجدية. وفي ٢٣ حزيران ١٩١٦ بعث الإنكليز برقية إلى الشريف قالوا فيها: «لنا الشرف أن نهنئ سموكم بحرارة وإخلاص على السياسة الاستراتيجية والشجاعة التي استطعتم بها سموكم والأمة العربية النبيلة أن تحرزوا الانتصار الحاسم

(١) الأعظمي عزت أحمد، القضية العربية، بغداد ١٩٣٢، الجزء السادس، ص١١٣-١١٤.
(٢) موسى، ص٢٨٥.
- حماده، صبري، (رئيس سابق لمجلس النواب اللبناني) - مذكرات في مجلة الأسبوع العربي، العدد ٣٤٥، تاريخ ٩ تشرين الأول ١٩٦٧.

الأول. إن نتائج هذا الانتصار إذا تابعتموها بمثابرة، سوف تنقذكم من الظلم الذي عانيتم طويلاً منه». وبعد أن أبلغوه رفع الحصار عن جدة قالوا له «إننا من جانبنا نبحث عن أفضل الوسائل لتحويل أنظار وانتباه العدو العثماني في أماكن أخرى»(١).

وبعد أن تعثرت العمليات الحربية حول المدينة وتحول فخري بك من الدفاع إلى الهجوم واستطاع أن يقصي العرب عن خط سكة الحديد وأن يدفعهم غرباً إلى سلسلة التلال المشرفة على الشاطئ، في هذه الآونة التي استمرت أربعة أشهر (أيلول - كانون الأول ١٩١٦)، بلغ الخطر على الثورة حداً عظيماً، إذ ساد الاعتقاد بأن فخري بك سيتجاوز التلال إلى الشاطئ قرب رابغ، ثم يزحف جنوباً نحو مكة للاستيلاء عليهما والقضاء على الثورة في المهد. لذلك ألحّ الحسين على الإنكليز بفتح جبهة جديدة في سوريا وقطع خط سكة الحديد بصورة فعالة بين سوريا والأناضول.

في ٣٠ آب ١٩١٦ أبرق ولسن إلى المندوب السامي يقول إن الأتراك يستطيعون الزحف بحوالي ١٢ ألف جندي، عدا المدفعية الثقيلة والرشاشات، وأنهم إذا عمدوا إلى الهجوم فسيكون بمقدورهم اختراق مواقع العرب. وزاد الموقف سوءاً أن الإنكليز أرسلوا ست طائرات إلى رابغ في تشرين الأول ١٩١٦ لمواجهة طائرات الألمان التي كانت تبث الرعب والذعر في نفوس العشائر. ولكنهم عمدوا إلى سحبها بعد بضعة أيام بحجة أن الحماية الكافية غير متوافرة لها. وبعد إلحاح الشريف حسين، أعيدت الطائرات في تشرين الثاني إلى رابغ ثم نقلت إلى ينبع(٢).

٧ - الهجوم على المدينة المنورة

بعد استسلام الحامية العثمانية في الطائف في أيلول ١٩١٦ قرر القادة العرب الهجوم على المدينة من الجهتين الغربية

---

(١) موسى، مماثل، ص٢٨٦.
(٢) موسى، ص٢٨٩.

والشرقية. وكانت هذه الخطة تقضي بأن يزحف الأمير عبد الله بقواته من الطريق الشرقية، ولكن عدم وجود المياه على تلك الطريق اضطره إلى تأخير الزحف حتى شهر تشرين الثاني موعد هطول الأمطار. وهذا السبب ذاته الذي كان يضطر الأتراك إلى محاولة الهجوم على مكة عن طريق الساحل حيث تتوافر المياه(١).

وفي هذه الأثناء كان العمل على إنشاء قوة نظامية يسير سيراً حسناً، فقد أرسل الإنكليز أربعة مدافع هاوتزر ثقيلة جداً يعود صنعها إلى السنة ١٧٩٢، ولم يستطع العرب الإفادة منها لعدم وجود وسائل نقل لجرها في أراضي الحجاز الوعرة، لذلك بعث لورنس(٢) برسالة إلى قيادته طالباً مدافع حديثة نوعاً ما، سهلة الاستعمال. بعثت الحكومة الإنكليزية إلى رابغ ٢٣ مدفعاً، أكثرها بطل استعماله وهي من أربعة عشر نوعاً(٣). وبعد هذا تتابع وصول الجنود والضباط من مصر والهند، فتألفت منهم نواة الجيش العربي النظامي(٣).

وعلى الرغم من تفوق القوات العثمانية في المدينة، إلاّ أن فخري باشا لم يستطع اختراق سلسلة التلال المشرفة على الشاطئ بسبب عجزه عن تأمين خط مواصلاته. وقد اندفع في إحدى هجماته حتى الشرق فوصل إلى ينبع ولكن رجال العشائر والبدو هاجموا خطوطه الخلفية وعرقلوا مواصلاته وأخذوا ينهبون قوافله. «وبعد مرور حوالى الشهرين، اضطرت القوات التركية إلى الانسحاب من موضعها بصورة تدريجية، وذلك ليأسها من التغلب على العشائر وتأمين مواصلاتها»(٤). كما أن عجز العثمانيين عن تأمين المياه الكافية لقواتهم

---

(١) موسى، م س، ص٢٩٠٢.

(٢) ضابط بريطاني أرسلته المخابرات الإنكليزية لمساعدة العرب في ثورتهم وسيأتي الكلام عنه في سياق هذا الكتاب.

(٣) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ص٥٥.

– موسى، م س، ص٢٩١.

(٤) نوري السعيد: محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسوريا، بغداد، ١٩٤٧، ص٢٢.

ودوابهم كان سبباً من الأسباب التي أجبرتهم على التراجع، بل السبب الوحيد على حد قول فخري بك.

في أوائل تشرين الثاني السنة ١٩١٦، بينما كان الخطر على أشده بالنسبة إلى احتمال زحف فخري باشا إلى رابغ، قام الأمير عبد الله على رأس قوة تقدر بأربعة آلاف مقاتل بالزحف من مكة إلى المدينة على الطريق الشرقية. وقد قام الأمير بحركة التفاف إلى الشرق من المدينة واصطدم بقوة تركية يقودها أشرف بك فأسر رجالها وغنم ما معها من مال وسلاح. ثم هاجم مواقع العثمانيين شرقي المدينة وبث الذعر والفوضى في المسالك المؤدية إليها وأجرى تخريبات في خط سكة الحديد. وهذا كله بعث الارتباك في نفس فخري بك وأدرك إنه أصبح واقعاً بين ثلاثة جيوش عربية، فاضطر إلى التراجع من التلال المؤدية إلى رابغ وينبع لتقصير خطوط مواصلاته وتضييق دائرة عملياته. وهذا كله أدى إلى انفراج الموقف الحربي بالنسبة إلى العرب وأزال خطر العثمانيين بالزحف على مكة. وفي شهر كانون الثاني ١٩١٧، وصل الأمير عبد الله إلى وادي العيص إلى الشمال الغربي من المدينة واتخذه قاعدة للعمليات ضد خط سكة الحديد[١]. فتحررت قوة الأمير فيصل واتجهت عن طريق الساحل إلى الوجه، وقد كان بيد الأتراك وفيه هجانه من عقيل أهل نجد وعديدها ٨٠٠ هجان عدا عن المدفعية الساحلية وسرية جبل وطابور عدد أفرادها حوالى ١٢٠٠ جندي غير «الجندرمة». ومن وادي العيص كتب الأمير إلى العشائر العربية ينصحهم بالانضمام إلى الثورة العربية، قبل أن ينالهم التنكيل، فوردت أجوبتهم بالموافقة. وبعد أن تسلموا رواتبهم من الأتراك، تركوا الأسلحة حيث هي وخرجوا، ثم التحقوا بالثورة كأفراد، وإن هذه المزية «أيضاً يشكرون عليها»[٢].

وتقدم الأمير فيصل من الساحل واستولى على أملج. ثم ضرب الأسطول البريطاني الوجه. وعند وصول طلائع قوات فيصل تراجع القائمقام والأميرالاي العثماني

---

(١) الملك عبد الله، مذكرات، ص١٢٩-١٣٠.

(٢) مماثل، ص١٣٠.

بقواتهما إلى العلا، ودخلت قوات فيصل الوجه بدون مقاومة تذكر. ثم كتب فيصل إلى عشائر عنزة، وعلى رأسها الشيخ فرحان الأيدي والشيخ شهاب الفقير، أما ابن رفادة، شيخ الوجه وأحد رؤساء بلي، فقد هرب والتحق بأحمد جمال باشا في الشمال(١).

والكتاب الموجه إلى هؤلاء، كان يطلب منهم الالتحاق بالثورة العربية في مهلة لا تزيد عن عشرة أيام «مقدمين الطاعة مع البرهان بأن تهاجموا خط السكة وتأتوا بأسرى وغنائم».(١)

خلال المدة المحددة أتى الشيخ فرحان الأيدي «سامعاً مطيعا» بعد أن هجم على محطة من محطات سكة الحديد تسمى «البغلة» وظفر بمن فيها، وجاء ومعه مدفعان جبليان اغتنمهما من الحامية... وباختصار كلي، لقد لبى النداء كل رؤوساء العشائر تقريباً.(١)

وهكذا نرى الموقف العربي في الحجاز في أول السنة ١٩١٧، قد تحول إلى وجود العثمانيين ضمن دائرة حصار واسعة تتركز حول المدينة وخط سكة الحديد، بينما كان الجيش العربي يتألف من ثلاث مفارز:

- مفرزة الشمال بقيادة الأمير فيصل ومركزها ينبع.
- مفرزة الشرق بقيادة الأمير عبد الله ومركزها في وادي العيص.
- مفرزة الجنوب بقيادة الأمير علي ومركزها رابغ.

وقد أوكلت إلى هذا الجيش، المؤلف من أربعة آلاف جندي نظامي ومن ٤٠ إلى ٥٠ ألف بدوي، مهمة إرهاق القوات العثمانية وتعطيل أنظمة تموينها ومواصلاتها(٢).

عمل الإنكليز على تنسيق مساعداتهم للعرب فأرسلوا عدداً كبيراً من ضباط جيشهم ليساعدوا الكولونيل «ولسن» في تقديم المشورة لقادة الثورة، ومن بين هؤلاء النقيب جارلند الذي كان أول من نسف قطاراً على خط السكة، وقد قام بتدريب عدد من الجنود العرب على عمليات

(١) الملك عبد الله، م س، ص١٣١.

(٢) لورنس، م س، ص١٥٢.

Revue Historique de l armée Française, ministre des Armées, Paris VII, année 1967, No. 4, p112.

النسف واستعمال المتفجرات، ثم العقيد «نيوكمب» والرائد «جويس» والعقيد «دافنبورت» والرائد «هورنبي». ولكن الرائد لورنس المشهور عربياً، الذي وصل إلى الحجاز في شهر تشرين الأول ١٩١٦، هو الذي فاز بالشهرة العريضة من دون زملائه ورؤوسائه ممن ساهموا في عمليات الثورة العربية أو كانت لهم علاقة بها. وكان لورنس واحداً من ضباط الاستخبارات الذين كانوا يعملون في مصر لإلمامه باللغة العربية ومعرفته السابقة ببلاد العرب، وكان من جملة العاملين في المكتب العربي. لم يكن لورنس ضابطاً محترفاً، إنما كان ذا نظرة ثاقبة في قتال «العصابات- الغرية (Guerilla). أتى إلى الحجاز واجتمع بالأمير عبد الله ثم مضى إلى رابغ وينبع واجتمع بالأميرين علي وفيصل وتعرف على الوضع العام السائد في الحجاز، من الناحية العسكرية وعاد يقدم التقارير إلى رؤسائه ويفيدهم بأن الحاجة لا تدعو إلى نزول قوات بريطانية في الحجاز، وإن العرب يستطيعون الوقوف في وجه الأتراك إذا تمّ تزويدهم بالمدفعية والأسلحة وأجهزة اتصالات ميدانية، وإذا حصلوا على خبرة عدد من الضباط الفنيين. ونتيجة لتلك التقارير صدر الأمر بعودة لورنس إلى جيش فيصل كضابط ارتباط[1].

أ - احتلال الوجه:

بعد تمركز مفرزة الأمير عبد الله في وادي العيص وأصبح يهدد الجناح الأيمن لفخري بك ومؤخرته تهديداً مباشراً. وبعد الهجمات المعاكسة التي ظل جيشا الأميرين علي وفيصل يشنانها ضد قواته المتقدمة وعلى خطوط مواصلاته - قرّر فيصل أن يغادر ينبع ويتجه إلى الشمال للاستيلاء على «الوجه» وكافة الثغور الساحلية، لكنه بقي منهمكاً في الدفاع عن ينبع حتى انفرجت الأزمة في أوائل كانون الثاني ١٩١٧.

كان الهدف الرئيسي من احتلال «الوجه» الحصول على قاعدة تموين على الساحل الشمالي لكي يتمكن العرب من

(١) موسى، م س، ص٢٩٧-٢٩٨.
لورنس، م س، ص١٧-٢٠-٢١-٢٣.

مهاجمة خط السكة في الداخل. وكان الإنكليز يزودون القوات العربية بالمؤن، وكانت جده ورابغ مركزي التموين الرئيسيين في الحجاز. وهكذا زخف فيصل بقواته شمالاً وحملت السفن الحربية البريطانيين /٥٠٠/ بدوي، لم تلبث أن أنزلتهم مع مفرزة من جنود البحرية الإنكليزية في مكان غير بعيد عن «الوجه». قصفت السفن مواقع الأتراك بالمدفعية الثقيلة وتقدمت المفرزة العربية لاحتلال البلدة ولم تلبث حاميتها أن استسلمت بعد معركة قصيرة يوم ٢٤ كانون الثاني ١٩١٧[١].

ب - الجيش العربي يحتل العديد من المراكز التركية:

بعد احتلال الوجه اتخذ فيصل موقع «جيد» مركزاً لقواته في منتصف المسافة بين الشاطئ وخط سكة الحديد. وأخذ هو والأمير عبد الله يشنان الهجمات على خط السكة بمساعدة الضباط الفنيين من الإنكليز، فاستولوا على محطة «أبو النعم» في آذار ١٩١٧ وعلى «قلعة المعظم» ومحطة «دار الحمراء» في آذار ومحطة «زمرد» في تموز[٢].

إن استراتيجية العرب الجديدة أقنعت الأتراك بأنه لن يكون في مقدورهم الزحف على مكة، ولكنهم قرروا الاحتفاظ بالمدينة المنورة رغم معارضة الألمان، وقد كلفهم ذلك إبقاء ٢٥ ألف جندي في ميدان جانبي، منهم ١٤ ألفاً في المدينة باسم حملة الحجاز تحت قيادة فخري بك، وقوة مختلطة وقوامها ٥ آلاف جندي بقيادة بصري باشا وقوة مختلطة أخرى قوامها ٦ آلاف جندي بقيادة جمال باشا الثالث ومركزها معان. وقد أوكلت لكل قوة منها حماية جزء معين من الخط الممتد ما بين المدينة ومعان. (طول الخط من المدينة إلى دمشق ٨٠٠ ميل).

بعد سقوط «الوجه» استولى العرب على «ضبا» و«المويلح» إلى الشمال منها، فأصبح

---

(١) موسى، م س، ص٢٩٧-٢٩٨.
- لورنس، م س، ص٩٢-٩٩.
(٢) موسى، م س، ص٢٩٩.

شاطئ الحجاز كله خالياً من القواعد العثمانية. لقد استطاع العرب بثورتهم هذه، أن يضعوا ثلاث فرق عسكرية تركية على الأقل، خارج الميدان الأساسي للحرب العالمية.

٨ - احتلال ميناء العقبة (آب ١٩١٧)

كان ميناء العقبة هو الهدف التالي بالنسبة إلى مخطط القوات العربية الشريفية، ذاك لأن الشريف حسين كان يعتبر العمليات العسكرية في الحجاز مقدمة أولية لتحرير بلاد الشام وخاصة سوريا منها.

في ٥ نيسان ١٩١٧ استقبل فيصل في «الوجه» عدداً من شيوخ قبائل الشمال - الرولة وعنزه والحويطات وبني صخر - وكان شيخ الحويطات «عودة أبو تايه» أشهر فرسان البدو في تلك الفترة. وقد أقام حوالى الشهر في معسكر فيصل يستعد للقيام بغزوات عسكرية ضد الأتراك في منطقة «معان» حيث كان يتمركز حوالى ٢٥ ألفاً من العثمانيين مع معداتهم ومدافعهم القوية[١]، يهددون الجيش العربي في منطقة بئر السبع. وقد اختار فيصل، الشريف ناصر، لقيادة الحملة وممثلاً له لدى قبائل الشمال. ورافق الحملة اثنان من السوريين المعروفين، هما نسيب البكري وهو مدني والقائد زكي الدروبي لكي يتصلا بالمدنيين والعسكريين العرب في سوريا. ورافق الحملة أيضاً الرائد لورنس باعتباره خبيراً في زرع المتفجرات. وفي ٩ أيار غادر هؤلاء الرجال «الوجه» ومعهم ٣٥ من متطوعي البدو شبه النظاميين وكمية من البنادق والمتفجرات و٢٠ ألف ليرة ذهبية وقاموا بالزحف، مروراً بآبار باير والجفر، وعبروا سكة الحديد إلى الجنوب من «معان». واشتبكوا في ٢ تموز في معركة عنيفة مع كتيبة تركية في موقع أبو اللسن غربي معان. ولأول مرة في تاريخ الثورة قام البدو بمهاجمة مواقع قوة نظامية جيدة التسليح هجوماً مباشراً في وضح النهار، وسرعان ما أسفرت المعركة عن مقتل ٣٠٠ من العثمانيين ووقوع ١٦٠ أسيراً في أيدي

(١) لورنس، م س، ص١٠٤.

العرب. ويعود الفضل إلى بسالة وشجاعة الشيخ «عودة أبو تايه»(١).

بعد هذه المعركة اتجهت المفرزة نحو الغرب، وخلال ثلاثة أيام التالية استولت على ثلاثة مواقع تركية وأسرت جنود حاميتها. وفي ٦ تموز، كان ثغر العقبة في أيدي العرب بالإضافة إلى ٧٨٠ أسيراً، بينهم ٣٥ ضابطاً تركياً، وقد قتلوا حوالى ٦٠٠ رجل.

لقد اعتبر الماريشال اللنبي، قائد قوات الحلفاء، سقوط العقبة في أيدي العرب حلفاء بريطانيا فألاً حسناً، وتبادر إلى ذهنه أن انتشار الثورة العربية في سوريا الشرقية، سيكون عاملاً عظيم النفع للزحف البريطاني نحو سوريا من الجنوب(٢).

قرّر المسؤولون البريطانيون في مصر أن يجعلوا عمليات العرب في العقبة ومنطقة معان، ضمن مسؤولية جيش الماريشال اللنبي لتنسيق الخطط العسكرية في الميدان السوري. وقرر هؤلاء المسؤولون الاتصال بالشريف حسين للحصول على موافقته من أجل نقل جيش فيصل إلى العقبة وإخراج ذلك الجيش من نطاق عمليات الحجاز التي يشرف عليها الحسين إلى نطاق ميدان المارشال اللنبي(٣).

٩ - القوات الشريفية تزحف نحو بلاد الشام (١٩١٧-١٩١٨)

راحت وحدات المفرزة الشمالية تنتقل براً وبحراً إلى العقبة ابتداء من أوائل آب ١٩١٧، وهي تشمل حوالى ١٥٠٠ رجل نظامي بقيادة جعفر العسكري(٤) وتضم

---

(١) موسى، م س، ص٣٠١-٣٠٢.
- لورنس، م س،ص١٠٩-١١٠.

(٢) موسى، م س، ص٣٠٣.
- لورنس، م س، ص١٣٢-١٤٨.

(٣) موسى، م س، ص٣٠٣-٣٠٤.

(٤) عراقي تخرج من المدرسة الحربية في إسطنبول ثم أوفد في بعثة تدريبية إلى ألمانيا. وفي سنة ١٩١٥، قاد قوات السنوسي في برقة في عدة معارك ضد القوات الإنكليزية حتى وقع في الأسر. تطوع في حزيران ١٩١٧ للخدمة في القوات العربية فعينه فيصل قائداً لقواته النظامية.

المفرزة الفرنسية (سنتكلم عنها في ما بعد). وفي ٢٣ آب وصل فيصل إلى العقبة، وانتشرت القوات العربية في التلال الواقعة بين معان والعقبة.

فوجئ الأتراك بسقوط العقبة في أيدي العرب، فأسرعوا إلى حشد قواتهم في معان تساندهم بضع طائرات، ثم زحفوا باتجاه العقبة في منتصف آب. لكن رجال القبائل، وعلى رأسهم عودة أبو تايه، صدّوهم وأوقفوا تقدمهم. بعد وصول قوات فيصل إلى العقبة، أرسل مفارز منها إلى وادي موسى (البتراء) و«غرندل» وإلى التلال المشرفة على العقبة. وفي أيلول راحت طائرات الإنكليز تغير على معان رداً على الطائرات التركية التي كانت تقصف العقبة. أنشأ الإنكليز قاعدة تموين وإمداد في ميناء العقبة، ورابطت سفينة حربية في الميناء لحمايتها، في حال نجح الأتراك في هجومهم المعاكس وتمكنوا من اجتياز التلال المشرفة عليها في الشرق. في ١٩ أيلول نسف العرب في جنوبي محطة «المدورة» قاطرتين وعبّارة عدوة وأسروا وقتلوا حوالى ١٧٠ رجلاً[1].

وفي ٦ تشرين الأول تمكن العرب من نسف خط سكة الحديد حول تبوك في الكيلومتر ٥٠٠ جنوبي معان كما نسفوا قاطرة فيه، ونزعوا عدداً كبيراً من قضبان الحديد وألحقوا بالعدو خسارة ٢٥٠ رجلاً بين قتيل وأسير.

دارت معارك عدة بين الأتراك والمفرزة الشمالية في خريف ١٩١٧. ففي أيلول شنت كتيبة تركية هجوماً على مواقع العرب في «دلاغة» لكنها ردت على أعقابها بعد معركة عنيفة. وفي أواخر الشهر ذاته استولى العرب على «الشوبك» «ونزعوا جانباً من خط السكة الفرعي (الذي كان الأتراك ينقلون عليه خشب الأشجار التي يقطعونها من غابة الشوبك ليستعملوه وقوداً للقطارات»، ولكن الأتراك قاموا بهجوم معاكس فردوهم إلى وادي موسى. وفي ٢١ تشرين الأول، قاد جمال باشا الثالث حملة قوية على العرب في وادي موسى تعززها الطائرات والمدفعية الثقيلة. وبعد معركة

---

(١) موسى، م س، ص٣٠٥.

حامية استمرت يوماً كاملاً، اضطر الأتراك للانسحاب بعد أن خسروا ٤٠٠ رجل بين قتيل وأسير وجريح(١).

في ٢ تشرين الثاني وصل الأمير زيد إلى العقبة على رأس ١٥٠٠ نظامي، وفي أواخر الشهر هذا اشتبك العرب والأتراك في معركة حامية قرب «القويرة» انتهت بانكفاء الأتراك إلى الوراء. واستأنف العرب القتال فأجلوا الأتراك عن «وهيدة» واحتفظوا بها رغم المهاجمات المعاكسة العدوة(٢).

لقد حمل العرب في بلادهم قسطاً في بلادهم كبيراً من عبء القتال في الحرب ضد تركيا، وقد اعترف الإنكليز بأن العرب استطاعوا أن يحجزوا بين معان والمدينة حوالى العشرين ألفاً من المقاتلين الأتراك وبحوزتهم ٩٠ رشاشاً ومئة من المدافع عدا حاميات عسير واليمن(٣).

وعندما استولى الإنكليز على غزة وبئر السبع طلبوا من فيصل أن يرسل أحد الأشراف لبث الدعاية لهم بين عرب فلسطين، فأرسل لهم الشريف عبد الله بن حمزة.

بينما كان الماريشال اللنبي يستعد لمواصلة الزحف نحو القدس، طلب من لورنس أن ينسف أحد الجسور الرئيسة إلى الغرب من درعا بين ٥ و٨ تشرين الثاني بقصد تعطيل مواصلات الأتراك الخلفية أثناء قيام اللنبي بهجومه الرئيسي. فشلت الحملة، ولكن لورنس، أثناء عودته نسف قطاراً وعطل السكة وعاد الجميع إلى «الأزرق» حيث أنشأ علي الحارثي قاعدة لتأمين الاتصال ما بين جيش الثورة وسوريا(٤).

ومن الجدير القول إن الجيش العربي قرر الزحف شمالاً لفتح سوريا واحتلال دمشق، «فانتقل الأمير فيصل وقواته من جبهة حربية محددة، ضيقة المجال حيث كانوا يحاربون لأجل تحرير الحجاز، إلى جبهة أوسع مجالاً، واشد تعقيداً في حرب عالمية وسياسة

(١) موسى، م س، ص٣٠٥-٣٠٦.
(٢) موسى، مماثل، ص٣٠٧.
(٣) رسالة الإنكليزي «ونجت» إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٩١٧/١٠/٢.
(٤) موسى، م س، ص٣١٠.

دولية»(١). وفي ما يختص باحتلال العقبة من قبل العرب كتب «ليدل هارت» يقول: «جاء احتلال العقبة كتبديد مفاجئ في سحابة قاتمة خيّمت فوق الجبهة المصرية في ربيع السنة ١٩١٧ وصيفها... فمن جهة استراتيجية قضى احتلال هذا الميناء على كل خطر قد ينشأ من جانب الجيش العثماني إذا ما حاول غزو سيناء والهجوم على قناة السويس، أو قطع مواصلات الجيش البريطاني العامل في فلسطين، كما إنه فتح جبهة حربية جديدة يستطيع فيها العرب أن يؤدوا معونة إيجابية للجيش البريطاني حينما يستأنف زحفه باتجاه الشمال» لاحتلال سوريا ومنها احتلال عاصمة السلطنة العثمانية والقضاء على الإمبراطورية التي حكمت بلاد العرب بالحديد والنار مدة أربعماية سنة ونيف.

على الرغم من صعوبات القيام بعمليات في فصل الشتاء، فقد عمد فيصل إلى إعداد حملة نحو الشمال عين أخاه زيداً قائداً لها. وفي أواخر كانون الأول زحفت ثلاثة أرتال على شكل كماشة. كان اثنان منها يستهدفان «الصفيلة» والثالث هدفه «الشوبك». وقد حققت هذه الحملة أهدافها واستولت القوات الشريفية على الهدف الأول في ١٤ كانون الثاني ١٩١٨، بعد أن استولى أحد الأرتال بقيادة نوري السعيد على محطة «جرف الدراويش». وكانت خسائر العثمانيين حوالى ٤٥٠ رجلاً بين قتيل وأسير. وفي ٣ كانون الثاني استولت قوات فيصل على موقع «أبي اللسن» على بعد ١٥ ميلاً إلى الجنوب الغربي من معان. لقد بدأ جيش فيصل يتحرر الآن من سلبيته العربية، وبات له دوره في المساهمة في تحرير سوريا في ظل قيادة النبي الموحدة(٢).

بعد سقوط «الصفيلة»، صممت القيادة التركية على استردادها بسرعة، لذلك،

---

(١) زين، م س، ص٧٦.

(٢) لورنس، م س، ص١٦٧.

- لورنس، عمائل، ص٢٣٧-٢٣٨.

أنشأت قوة تعادل فوجاً من المشاة مزوداً بمدفعين، على رأسه الأميرالاي «حامد فخري بك». ووجهته نحو هذه البلدة. وبعد أن اجتازت القوة وادي «الحسا» واقتربت من «الصفيلة» اشتبكت معها القوة العربية بقيادة الأمير زيد في ٢٥ كانون الثاني ١٩١٨ في معركة استمرت يوماً كاملاً، وأسفرت عن هزيمة ساحقة للفوج التركي الذي قتل قائده وحوالى ٤٠٠ من رجاله، ووقع في الأسر حوالى ٢٥٠ رجلاً وغنم العرب المدفعين والرشاشات وأكثر أسلحة العدو ودوابه وأعتدته. ويعود الفضل في هذا الانتصار إلى أهل «الصفيلة» والقرى المحيطة بها وإلى فرسان البدو الذين ساندوا قوة الأمير زيد النظامية الصغيرة في مصادمة الحملة التركية المتفوقة في التنظيم والأسلحة(١).

خلال شهر شباط ١٩١٨ حشد العثمانيون قوة هجومية كبيرة، تدعمها عناصر ألمانية وطائرات، بقصد استعادة المواقع التي خسروها. وزحفت هذه القوة في رتلين اثنين بدءاً من خط سكة الحديد باتجاه الصفيلة. وبعد اشتباكات استمرت خمسة أيام استعاد الأتراك هذه البلدة في ٧ آذار وانسحب الأمير زيد من الشوبك. لكن ضغط الجيش البريطاني الذي استولى على أريحا في ٢١ شباط ١٩١٨، على مواقع الأتراك قرب نهر الأردن في أوائل آذار، اضطرهم إلى التراجع عن الصفيلة في ١٨ آذار، فعاد العرب إليها. بعدها استولى البريطانيون على عمان والسلط، لكنهم أرغموا على الانسحاب منها تحت الضغط التركي(٢).

في شهر نيسان ١٩١٨ قام الجيش الشمالي بهجوم شامل على معان بقصد الاستيلاء عليها وقطع المواصلات بين دمشق والمدينة بصورة نهائية. في ١١ نيسان تقدم رتل من هذا الجيش بقيادة نوري السعيد تسانده قوة من رجال قبيلة «الحويطات» ومفرزة المدفعية الفرنسية بالهجوم على محطة «غدير الحاج» جنوبي

(١) موسى، م س، ص ٣١٠.
(٢) موسى، م س، ٣١١.

معان فاستولى عليها. وفي ١٢ نيسان قام جعفر العسكري على رأس رتل ثان تدعمه مفرزة من المدفعية العربية بالهجوم على محطة «الجردون» شمال معان فاستولى عليها أيضاً. بعدها راح العرب يدمرون خط السكة وهم يتقدمون نحو البلدة.

في ١٣ نيسان قامت قوة من البدو بهجوم مفاجئ على مواقع العثمانيين الدفاعية في «تلول السمنات» جنوبي غربي معان، فاستولت عليها، لكن قائدها أصيب بجروح خطيرة أثناء المعركة وهو «مولود مخلص». وفي اليوم التالي تم اتصال الوحدات العربية الثلاث بعضها مع بعض وتولى جعفر العسكري القيادة العامة[1]. قرر فيصل الهجوم على معان، وبعد رماية تمهيدية بالمدفعية، زحف المشاة يوم ١٥ نيسان من تلول المسنات فأحرزوا تقدماً طيباً واستمر الهجوم في اليوم التالي. وفي ١٧ نيسان وصل العرب إلى محطة سكة الحديد بعد قتال عنيف، ولكنهم اضطروا إلى التراجع نتيجة نفاد ذخيرة المدفعية.

وقد مني العرب بخسائر فادحة بالأرواح، (٣٠٠ بين قتيل وجريح) ثم أعطى فيصل الأمر بالتراجع إلى تلول السمنات، وقد وقع في أيدي العرب خلال هذا الأسبوع حوالى ٤٠٠ أسير تركي. وفي ١٩ نيسان استأنفت القوة العربية، بمساعدة البعثة البريطانية العسكرية، الهجوم على خط السكة جنوبي معان، وخلال بضعة أيام تمّ الاستيلاء على سبع محطات وتخريب مسافات من خط السكة يبلغ طولها مئة كيلومتر. وهكذا قطع الاتصال بين معان والمدينة المنورة.

في هذه الأثناء استولى الإنكليز على السلط في الشرق من وادي الأردن وبلغت قواتهم ضواحي عمان، لكنها اضطرت للانسحاب يوم ٣ أيار تحت ضغط هجمات الأتراك المعاكسة.

استطاع الأتراك إصلاح خط سكة الحديد وأعادوا الاتصال مع معان، وخلال أشهر أيار وحزيران وتموز خاض العرب معارك عنيفة مع الأتراك في تلك المنطقة، من

---

(١) موسى، م س، ص٣١٢-٣١٣.

دون أن يتمكن أحد الفريقين من إحراز نصر حاسم[1].

لقد لخص لورنس وضع القوات العربية والقوات التركية التي تواجهها فقال إن حامية معان قوامها ٤٠٠٠ رجل وجيش فيصل النظامي ٣٥٠٠ رجل. وبما أن أي قوة مهاجمة يجب أن تكون ضعفي أو ثلاثة أضعاف القوة المعادية والمتمركزة في خنادقها، فإن قوة فيصل الصغيرة لا تستطيع الاستيلاء على معان. ولما كانت قوات الأتراك في معان لا تقل عن ٨٠٠٠ رجل فمن المتوقع أن يبذلوا جهداً كبيراً لتعمير خط سكة الحديد بين عمان ومعان وفك حصار العرب عنها. ولذلك فإن قوة فيصل الصغيرة بحاجة إلى تعزيزات عاجلة بنظاميين عرب من مجموعتي الأميرين عبد الله وعلي كي تتمكن من صد هجوم الأتراك المعاكس، حتى يضطر الأتراك في معان إلى الإستسلام أو إلى تعزيز الحامية بصورة تستنزف قواهم مثل حامية المدينة المنورة التي تضم ١٤ ألف رجل لا أمل لهم في الخلاص[2].

١٠ - تجريدة الحجاز الفرنسية (١٩١٦-١٩١٨)[3]

في ٢٢ حزيران ١٩١٦، أذيع في لندن عن قيام ثورة الحجاز. وفي ٢٧ منه (٢٥ شعبان ١٣٣٤)، أعلن الشريف حسين شريف مكة وقائد الثورة، الأسباب التي دفعته لمحاربة العثمانيين. تجاه هذا الحدث، رأت فرنسا أن مصلحتها تقضي بمساندة الثورة لسببين:[4]

- تأمين استمرارية انتقال الحجاج من أفريقيا الشمالية الخاضعة لها إلى مدينة مكة في الحجاز.
- إضعاف الإمبراطورية العثمانية التي هي في حال حرب ضدها.

(١) ماثل، ص٣١٣.
(٢) موسى، م س، ص٣١٤.
(٣) Les Armées Françaises dans la grande guerre, mission militaire française en Egypte MMFE, château de Vincennes, Paris 1979, p181.
- فغالي، جورج، عميد ركن، جيش المشرق في لبنان - تنظيم وعمليات عسكرية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٣، ص ٢٢٢.
(٤) MMFE OP, cit, p182.

وهكذا أرسلت فرنسا بعثتين: الأولى، دبلوماسية برئاسة سي قدور بن غبري (SI KADDOUR BEN GHABRI)، تهتم بالحجاج وتمثل الحكومة الفرنسية لدى شريف مكة. والثانية، عسكرية، وهي التجريدة العسكرية الفرنسية في مصر ثم الحجاز، بقيادة الكولونيل بريمون (BREMOND) ومن ثم النقيب بيزاني (Pizani)، على أن تنسق البعثتان معاً(1).

في أول أيلول ١٩١٦، وصلت تجريدة بريمون إلى الإسكندرية في مصر وبعدها انتقلت إلى مدينة جدة في الحجاز(2).

أخذت البعثة على عاتقها «مؤازرة العرب في تنظيم قواتهم ومدهم بعدد من الاختصاصيين في شؤون المتفجرات والتفجير، وكانت مؤلفة من ضباط ورتباء للتعليم وللتدريب... فاشتركت في كافة الأعمال الحربية التي قامت بها القوات الشريفية»(3).

تألفت التجريدة هذه من القوى التالية:

- مجموعة مشاة من فصيلتين، مزودة ببنادق رشاشة ف م.
- فصيلتا مدفعية عيار ٦٥ ملم.
- فصيلة هندسة.
- احتياط عام مؤلف من: سرية رشاشات وسرية الهندسة ١٩/٦أ، المتمركزين في قاعدة السويس في مصر، واللتين ضمتا في نيسان ١٩١٧ إلى مفرزة فلسطين الفرنسية(4).

---

(١) خدم الكولونيل إدوار بريمون، الذي دخل إلى مدرسة سان سير عام ١٨٨٨، في الجزائر وفي مصلحة الاستعلام في المغرب من العام ١٩٠٧ إلى ١٩١٤. لقد كان مميزاً على رأس كردوسي المشاة ٣١٩ و٦٤، قبل أن يصبح نائب رئيس أركان الفيلق ٣٣. توفي عام ١٩٤٨ وكان برتبة لواء.

(٢) MMFE OP, cit, p185.

(٣) الجنرال هو نتزيجر، الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ١٩١٨-١٩٣٤، ترجمة إدوار البستاني، بيروت ١٩٣٨، ص٢١-٢٣.

(٤) General, du Hays, les Armées Françaises au Levant, 1914-1919, Château de Vincennes, Paris, Tome I, p73.

قدّر عدد التجريدة بحوالي ١٤٠ مقاتلاً بقيادة الكولونيل بريمون ثم النقيب بيزاني (Pizani)، يعاونه الملازم «المباشر». لقد جهزت التجريدة بألفي قذيفة من عيار ٦٥ ملم و٣٠ ألف خرطوشة للبنادق الرشاشة.

إلى جانب قائد التجريدة بريمون أو بيزاني ضمت البعثة العسكرية هذه، ضباطاً جزائريين ورتباءًا وأفراداً منهم أيضاً أمثال: العقيد الجزائري القاضي (CADI) والنقيبين الجزائريين راهو وسعد (Capitaines RAHO et SAAD) والملازم الأول المغربي لاهلو (Lieutenant LAHLOW). ومما لا شك فيه أن بيزاني اضطلع بدور فاعل جداً لدى الجيش العربي[(١)].

في شكل عام يمكننا أن نقول استناداً إلى الوثائق التي بين يدينا، إن الجيش الفرنسي شمخ برأسه عالياً بروح الانضباط والشجاعة والإقدام التي تحلت بها وحداته. فالتجريدة هذه اشتركت في كل العمليات التي نفذها الجيش العربي، والفرنسيون كانوا حاضرين في كل مكان. الكولونيل بريموند، المتمركز في جدة، وضع اختصاصيين بتصرف الأمراء الذين عملوا على تدمير السكك الحديدية ونفذوا عمليات الإغارة، ولا سيما الهجوم ضد «العقبة». النقيب بيزاني، على رأس مئة وأربعين فرنسياً، احتل معان بمساندة الأمراء[(٢)]. وكان قد اشترك أيضاً في الحملة التي قادها الأمير فيصل إلى دمشق والتي أبى خلالها إلاّ أن يشعل بنفسه المتفجرات التي دمرت سكة حديد درعا[(٣)]. علاوة على ذلك، ساهمت مدفعيته التي ذاع صيتها عند العرب آنذاك بفاعلية في حصار

(١) كان النقيب روزاريو بيزاني cap. Rosario PISANI، من كونسطنطينوا، يخدم كمدفعي في البعثة العسكرية الفرنسية في المغرب منذ ١٩٠٧. رقي لرتبة ملازم العام ١٩١٢ خلال اضطرابات فاس. حاز على وسام جوقة الشرف من رتبة فارس لمعرفته اللغة العربية وسطوته على القوة المغربية بشكل استثنائي العام ١٩١٣. كان يأمر بطارية المدفعية ومفرزة الهندسة الموضوعتين بتصرف الأمير فيصل الذي أقر بقدرته ومزاياه بعد حملة الحجاز، عُين في سوريا وكيليكية قبل أن يعود إلى المغرب العام ١٩٢٥. توفي العام ١٩٥٢.

(٢) De Gontaut Biron, op, cit, p42-45.

(٣) Revue historique des armées, 1967, 23ème année, No. 4, article "Les compagnons français de Lawrence", p.118.

- DE GONTAUT BIRON, idem, p45.

«معان» وفتح طريق دمشق أمام قوات الأمير فيصل. لقد تميّز الفرنسيون فعلاً في كل تلك المعارك والحملات.

وهكذا تكون بعثة الحجاز الفرنسية، قد اضطلعت بدور فاعل جداً في معركة الجيش العربي ضد الأتراك، على الرغم من جهود لورنس الآيلة لإقصاء هذه التجريدة. وقد كتب يقول:

«كان الكولونيل بريموند يسعى لإبقاء الجيش العربي في الحجاز ومنعه عن التقدم نحو دمشق مخافة أن يصبح جيشاً قويا»(١).

في نهاية الحملة ألحقت تجريدة الحجاز بعد أن تقلص عديدها بمفرزة فلسطين - سوريا الفرنسية، واستقرت في جدة كمركز نفوذ فرنسي في المنطقة. بعدها ركزت في دمشق وكلفت بمهمات جديدة كالآتي:

- إنشاء مركز استعلام لمتابعة الموقف السياسي وتصرفات الشريفيين والمصريين والهنود في الجزيرة العربية.

- السهر على حقوق الفرنسيين ومصالحهم والمحافظة على النفوذ الفرنسي.

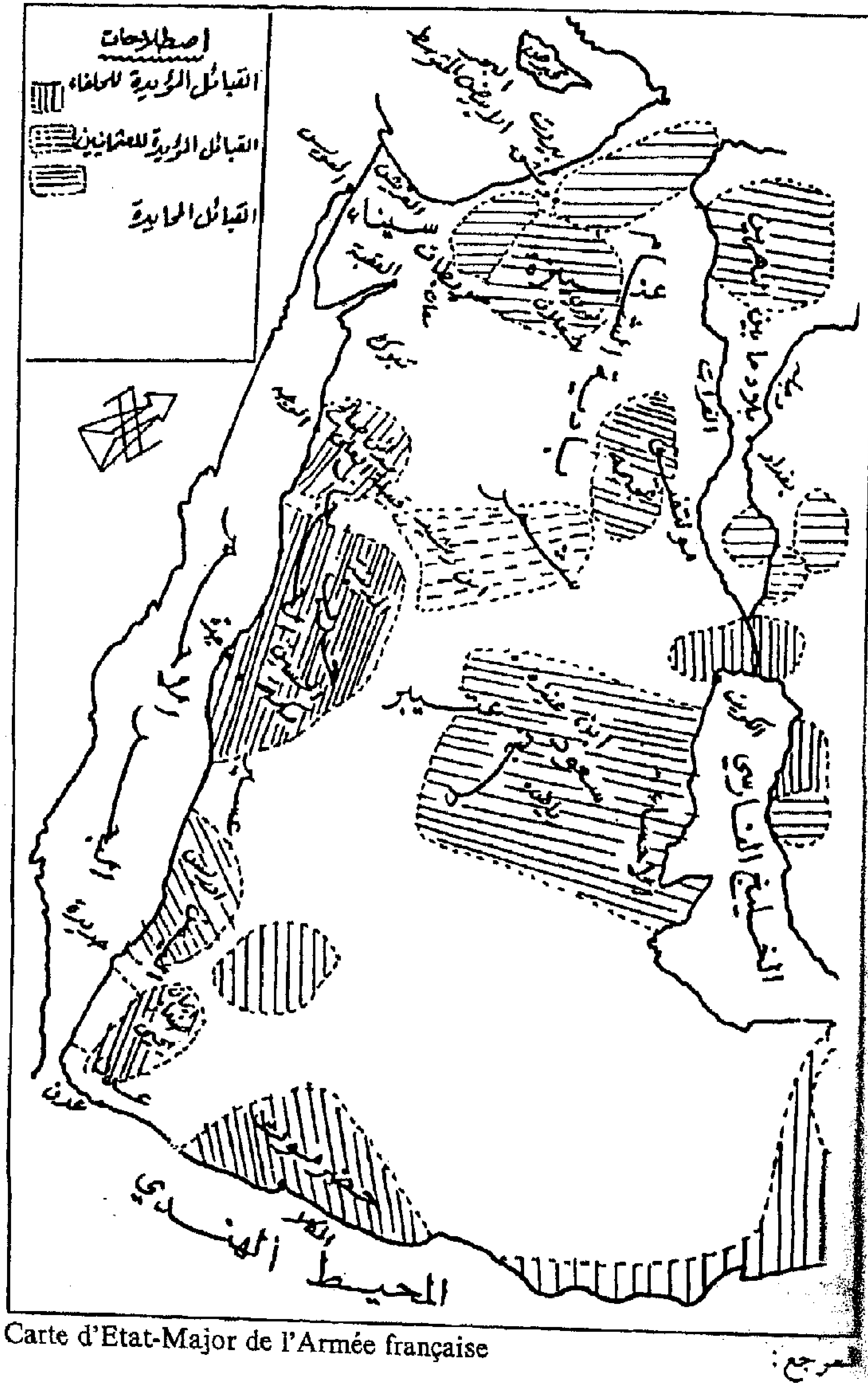
- إعداد وتوجيه بعثات الحج للمسلمين الخاضعين للجمهورية الفرنسية.

وخلال العام ١٩١٩ والنصف الأول من ١٩٢٠، ارتبطت التجريدة عسكرياً بقوات المشرق الفرنسية وإدارياً بالإدارة المركزية لوزارة الحربية. وفي الأول من شهر آب ١٩٢٠، حلّت وألحق رجالها نهائياً بقوات جيش المشرق(٢). ويحسن بنا أن نذكر أن الحكومة الفرنسية قدمت مساعدات، وإن لم تكن على نطاق واسع، وصفها السيد وينجت (Wingate) بقوله إنها «ساعدت إلى حد كبير في إنجاح العمليات العسكرية المشتركة التي اشترك فيها الفرنسيون ببسالة وبصورة بارزة»(٣). وكان قائد التجريدة يحمل معه مبلغاً من المال قدره مليون ومئتا ألف فرنك ذهبي معونة إلى الشريف حسين(٤).

---

(١) لورنس، م س، ص٩٦-٩٨.
(٢) Du Hays, Tome I, op. cit, p87.
(٣) أنظر الخريطة ربطاً.
(٤) زين، م س، ص٢١١ (٤٢).

القبائل المؤيّدة والمعارضة للحلفاء – منطقة عمل بعثة بريمون – بيزاني



Carte d'Etat-Major de l'Armée française المرجع :

١١ - الجيش العربي في خضم الهجوم الكبير على الأتراك (١٩١٨)

خلال أشهر صيف ١٩١٨، كان الماريشال اللنبي يستعد للقيام بهجوم كبير على الجيوش التركية ويضع في حساباته قيام الجيش العربي الشمالي بدور فعال في هذا الهجوم. وقد حدثت في أواخر شهر آب أزمة كادت أن تؤدي إلى عواقب وخيمة، ومفادها أن جعفر باشا اتخذ لنفسه لقب «القائد العام للجيش العربي»، وقد ذهب إلى مركز قيادة اللنبي وتسلم منه وساماً، الأمر الذي زرع الشكوك في ذهن الشريف حسين، فأصدر بياناً جاء فيه أن الحكومة العربية لم تمنح ألقاباً أو رتباً عسكرية لجعفر باشا والضباط الآخرين، وإن إطلاق لقب «القائد العام» على جعفر باشا لا يتفق والحقيقة[١]. أمام هذا الواقع حدث تذمر شديد بين الضباط واعتبروا أن كرامتهم قد أهينت، فقدم جعفر باشا استقالته من الخدمة العسكرية. وفي ٢٩ آب استعفى الأمير فيصل هو أيضاً منها بموجب رسالة بعثها إلى والده الشريف حسين، وقد عين شقيقه الأمير زيد الذي أفاد والده بخطورة الموقف. ولم يطل الوقت حتى سويت هذه القضية بعدما تدخل الماريشال اللنبي والمندوب السامي البريطاني في الأمر وبعدما أوضح الشريف إلى الأمير فيصل إنه لم يقصد الإساءة لجعفر باشا وللضباط الآخرين وإن رتبهم سيعترف بها في الوقت المناسب[٢].

وبهذا انتهت الأزمة واستأنف الجيش العربي استعداداته للاشتراك في الهجوم الكبير.

أ - الاستعدادات العسكرية:

بعد وصول النجدات من الهند والعراق أصبح الماريشال اللنبي قادراً على وضع خطة الهجوم، طالما أن قوات الحلفاء وقوات الأتراك تكاد تكون متساوية. فإن النصر سيكون مرهوناً بلباقة الحلفاء في خداع أعدائهم[٣].

(١) جريدة القبلة العدد ٢٠٧ الصادر بتاريخ ١٩ آب ١٩١٨.
(٢) موسى، م س، ص٢١٦.
(٣) لورنس، م س، ص٢٥٩.

ويقول لورنس «كان يتوجب علينا إقناع الأتراك بأن كل الخطر بالنسبة لهم يكمن في ما وراء الأردن. كان يمكننا الإسهام في ذلك ببقائنا ساكنين مدة ستة أسابيع وبالتظاهر بالضعف الذي سيحمل الأتراك على مهاجمتنا، وعندئذ يتزعم العرب قيادة الحركة في المرحلة الحرجة بقطعهم الاتصال عن طريق الخط الحديد بفلسطين»(١).

كان المارشال اللنبي يعتبر الجيش العربي بمثابة جناح أيمن لجيشه، الذي كانت خطوطه في آب ١٩١٨ تمتد من يافا على شاطئ البحر إلى أريحا عند البحر الميت. وقد عمل اللنبي على تعزيز الجيش العربي الذي ارتفع عدد النظاميين فيه إلى ٤٠٠٠ (عدا البدو) فشكل في قيادته هيأة أركان من الضباط لكي تتولى تنظيم ما يسمى «عمليات الحجاز» برئاسة الكولونيل «داوني». ووضع بتصرف الجيش العربي خمس سيارات مدرعة وسرباً من الطائرات ومدفعين محمولين ومفرزة من ٢٠ هندياً مسلحين بالرشاشات الثقيلة، وفصيلة من الهجانة المصريين، بقيادة النقيب «بيك» وسرية من فيلق الهجانة للنقليات، بالإضافة إلى التجريدة الفرنسية بقيادة بيزاني ومعها ٤ مدافع جبليــة وأكثر عناصرها من الجزائريين، ووضع على رأس هذه التعزيزات الكولونيل جويس. ورغم كل ذلك فقد عانى الجيش العربي نقصاً في الطعام والذخيرة(٢).

كان الجند النظامي في الجيش العربي العمود الفقري «وقد برهنوا في معان والجردونة أنهم يقاتلون حتى الموت» وإن الانضباط العسكري والمناقبية هما مصدر قوتهم في القتال.

لكن الجيش العربي كان يعاني أيضاً نقصاً في دواب النقل، لأن كل المؤن والمعدات اللوجستية كانت تنقل من العقبة إلى جبهات القتال على ظهور الدواب. وقد زوده اللنبي بألفي جمل حتى يتمكن من القيام بدوره في الهجوم الكبير.

---

(١) لورنس، م س، ص٢٥٩.

(٢) موسى، م س، ص٣١٦-٣١٧.

- تقرير الكولونيل «داوني» عن هجوم العرب على معان في أول أيار ١٩١٨.

قبل الهجوم قام اللنبي بجولة على وحدات جيشه المتجمعة سراً بانتظار إشارة البدء في التحرك. وكانت خطته تقضي بحشد قوات الخيالة والقسم الأكبر من قوات المشاة بين بساتين الليمون والزيتون في «الرملة» في فلسطين. وكان يأمل في أن يتمكن في الوقت نفسه، بواسطة سلسلة من التحركات المموهة في وادي الأردن، من حمل العثمانيين على الاعتقاد بأنه يحشد جيوشه في تلك المنطقة[1].

ب - عمليات الجيش العربي في درعا:

أناط اللنبي بالجيش العربي مهمة خطيرة، مؤداها أن تقوم منه حملة سريعة الحركة، بهجوم خاطف من الوراء على درعا، ملتقى الخطوط الحديدية بين دمشق وفلسطين وشرقي الأردن، مهمتها قطع خطوط مواصلات الجيوش التركية قبل قيام قوات الحلفاء بالهجوم العام. وكان على الجيش العربي أن يبدأ بتنفيذ هذه المهمة حول درعا في منتصف شهر أيلول ١٩١٨، أي ثلاثة أيام قبل بدء يوم الهجوم - (اليوم ي). بين ٣٠ آب و٢٠ أيلول غادرت أبا اللسن قافلتان من الجمال تحملان المؤن والذخائر في طريقهما إلى الأزرق التي تقرر أن تكون قاعدة أمامية للحملة.

في ١٢ أيلول ١٩١٨، اكتمل عديد الحملة وهي تتألف من ٦٠٠ من الجنود النظاميين إلى جانب التجريدة الفرنسية وسرية الهندسة وتضم المصريين والهنود وثلاث سيارات مصفحة وطائرتين، وكانت تضم ثلاثة ضباط عرب هم: نوري السعيد وعلي جودت وجميل المدفعي وعدداً من ضباط الإنكليز[2] جويس ولورنس ولورد ونترتون ويونج وبيك وكركبرايد.

وانضم إلى الحملة حوالى ٥٠٠ من فرسان البدو بقيادة نوري الشعلان وعودة أبو تايه. وكان مجموع أفرادها حوالى ١٣٠٠ رجل.

في صباح ١٤ أيلول انطلقت الحملة لتنفيذ مهمتها، وقد استطاعت خلال ٤ أيام نسف

---

(١) لورنس، م س، ص٢٦٠.

(٢) لورنس، مماثل، ص٢٦٣-٢٦٤-٢٦٥-٢٦٦.
- موسى، م س، ص

ثلاثة من جسور خط سكة الحديد بين درعا وعمان، فقطعت الخط الأول في المفرق (الجنوب) والثاني في عرار (الشمال) والثالث في مزيريب (الغرب)، رغم قصف الطيران المعادي على المنفذين وأثناء تراجعهم(١). وقد استطاعت الحملة نزع مسافة واسعة من قضبان الخط بين درعا ودمشق وبين درعا وفلسطين / وخاضت اشتباكات عدة مع القوات العثمانية خاصة مع مفارز الاحتياط التي أرسلها القائد العام للجيوش التركية الألماني فون ساندرس «لرد هذه الهجمات العربية عن درعا. بعد تنفيذ المهمة ابتعدت الحملة مسافة إلى الشرق في انتظار بدء الهجوم العام(٢).

ج - *الهجوم الكبير (١٩ أيلول ١٩١٨)*:

(١) - الإستيلاء على دمشق (١/١٠/١٩١٨):

قبل بدء هجومه بعث اللنبي برسالة إلى فيصل يحذره فيها من توسيع نطاق عملياته والتوغل بعيداً داخل المناطق التي كانت القوات العثمانية ما تزال مسيطرة عليها، خوفاً من أن لا يتمكن اللنبي من تقديم المساندة له إذا ما اصطدم بقوات عدوة كبيرة.

بدأ اللنبي هجومه الكبير المنتظر في الصباح الباكر من يوم ١٩ أيلول ١٩١٨، وسرعان ما اخترقت وحداته خطوط الجيشين السابع والثامن العثمانيين وأخذت تتقدم شمالاً وبسرعة. وأثناء الهجوم واصلت الحملة العربية نشاطها فشنت هجمات ليلية عدة على خط السكة بين درعا وعمان ونجحت في منع إصلاحه، بينما كانت الطائرات المعادية تقصف مواقعها أثناء النهار. وتدمير خط السكة هذا عرقل تراجع الجيش التركي الرابع من السلط وعمان، مما اضطر رجاله إلى أن يسيروا على أقدامهم ويتركوا وراءهم أسلحتهم ومعداتهم. إنها الفوضى الكبرى التي كانت تنبئ بالاستسلام التام.

(١) لورنس، م س، ص٢٦٣-٢٦٤.
(٢) موسى، م س، ص٣١٨.
- لورنس، مماثل، ص٢٦٤.

في معان حاول الأتراك القيام بهجوم على القوات العربية التي كانت تهاجم خطوط المواصلات حوالى درعا واحتلال «الطفيلة» ومرتفعات «تلول المسنات»، لكنهم فوجئوا يوم ٢٢ أيلول بصدور الأمر إليهم بالانسحاب السريع فبدأوا بالتراجع من معان شمالاً سيراً على الأقدام تحت حماية بطاريات مدافعهم، بعدما ألقوا سلاحهم على جوانب الطرق وفي البراري المجاورة. فهاجمهم رجال البدو وحاصروهم ومنعوهم من الوصول إلى عمان في الوقت المناسب لتأمين انسحابهم مع بقية الوحدات التركية المتراجعة فهاجمتهم كتيبة إنكليزية خرجت من عمان فاستسلموا لها من دون مقاومة(١).

وفي ٢٥ أيلول عادت الحملة العربية إلى الزحف ثانية فهاجمت خط السكة بين درعا ودمشق، وخربت الخطر الذي كان الأتراك قد فرغوا من إصلاحه قبل يوم واحد فقط، فلم يتسن لهم استعمال خط سكة الحديد في انسحابهم نحو دمشق. وكانت الحملة قد زاد عديدها بمن انضم إليها من رجال حوران والبدو والدروز. في ٢٧ أيلول استولت القوات العربية على درعا ورفعت العلم العربي عليها، ثم تابعت هجومها على القوات التركية - الألمانية المتراجعة على طول المحور من درعا إلى دمشق خلال ٢٨ - ٣٠ أيلول. وكانت القوات العربية تسير على ميمنة القوات البريطانية وتتعاون معها. وبلغ العرب ضواحي دمشق مساء يوم ٣٠ أيلول ١٩١٨، فبادر البدو والدروز إلى دخول المدينة في الليل. أما الشريف ناصر فقد دخلها على رأس القوات النظامية في الساعة السادسة من صباح الأول من تشرين الأول، في الوقت الذي كانت طلائع القوات البريطانية تدخل المدينة من جهة أخرى.

قبل الوصول إلى دمشق بعث الأمير فيصل إلى الأمير سعيد الجزائري رسالة يطلب منه تسلم المدينة حال انسحاب الأتراك باسم «الحكومة العربية»، على أن ترفع الأعلام العربية على كل المباني الأميرية وداخل المدينة، وأن يعلن الحكومة المؤقتة باسم جلالة ملك العرب الشريف

(١) موسى، م س، ص٣١٩.
- لورنس، م س، ص ٢٨٠.

حسين. ثم طلبوا منه استقبال جيوش الحلفاء الداخلين إليها وفي أيديهم الأعلام العربية، لكن فائز الغصين الذي كان يحمل الرسالة لم يستطع الوصول إلى دمشق في الوقت المناسب لتسليم الرسالة إلى الأمير الجزائري(١).

في الأول من تشرين الأول ١٩١٨ بعث المارشال اللنبي إلى الملك حسين برقية يقول فيها:

«يسرني أن أبلغ جلالتكم أن جنودنا المشتركة قد دخلوا مدينة دمشق الساعة السادسة من صباح اليوم ...».

كما أبرق في اليوم ذاته إلى وزارة الحربية البريطانية:

«بأن فرقة الخيالة الأسترالية دخلت ضواحي دمشق من الشمال الغربي الليلة الماضية. وفي الساعة السادسة من صباح اليوم تم احتلال المدينة دمشق من قبل فيلق خيالة الصحراء والجيش العربي ...»(٢).

لقد كانت دمشق هدفاً ظل العرب يتطلعون للوصول إليه منذ إعلان الثورة الكبرى في حزيران ١٩١٦. وكانت دمشق تمثل أمل العرب بالحرية والوحدة والاستقلال، فهي كانت عاصمة الدولة الأموية التي امتد ملكها من حدود الصين إلى جبال البيرينه. في ٣ تشرين الأول ١٩١٨، دخل الأمير فيصل دمشق دخول الظافر ممتطياً جواداً عربياً أبيضاً على رأس قوة عسكرية قوامها ١٥٠٠ فارس عربي وسط أهازيج الحماسة والابتهاج. ولم تكن معركة دمشق إلاّ ذروة المعارك التي خاض العرب غمارها خلال سنتين ونصف السنة، وكان الدخول إليها يمثل خاتمة عهد طويل مظلم من الحكم العثماني الأجنبي وبداية عهد جديد مشرق يصبح العرب فيه سادة أنفسهم ويتوافر لهم إمكان المشاركة في الحضارة العالمية(٣).

---

(١) موسى، م س، ص٣٢٠-٣٢١.

(٢) موسى، م س، ص٣٢٣.

- لورنس، م س، ص٢٩٥-٢٩٦.

(٣) الاستيلاء على حمص وحماه وحلب والمسلمية - الهدنة (٣١ تشرين الأول ١٩١٨).

(٢) - الاستيلاء على المدن الكبرى في سوريا - الهدنة:

لم يكن الاستيلاء على دمشق نهاية الحرب والعمليات العسكرية، إذ لم تلبث القوات البريطانية والعربية أن أخذت تواصل زحفها شمالاً، فاستولت على حمص وحماه، ثم حلب يوم ٢٤ تشرين الأول بعد معركة أبدى فيها الجيش العربي النظامي بسالة وشجاعة فائقتين وأسهم فيها آلاف من أبناء القبائل السورية، فدخل العرب حلب قبل البريطانيين بيوم وفي ٢٨ تشرين الأول استولى الحلفاء على المسلمية ملتقى خطوط سكة حديد الشام والعراق. وفي ٣٠ منه وقّع الحلفاء الهدنة مع تركيا في جزيرة مدروس على أن يبدأ العمل بها رسمياً ظهر يوم ٣١ تشرين الأول ١٩١٨. ونصت المادة ١٦ من شروطها على «استسلام كل الحاميات في الحجاز وعسير واليمن وسوريا والعراق إلى أقرب قائد من قادة الحلفاء... ».

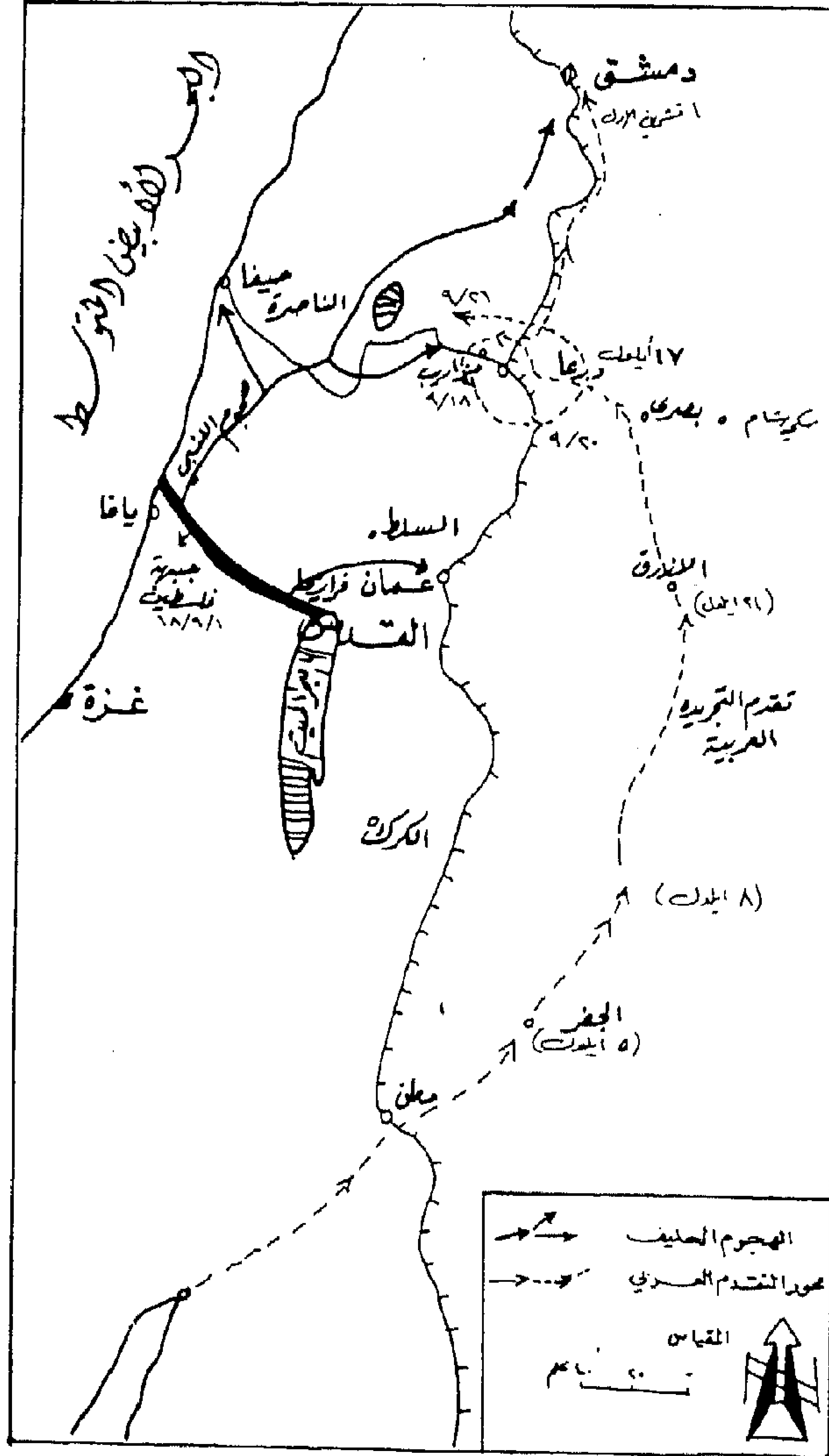
وبناء على إحصاءات العرب فإن قوات الشريف حسين منذ قيام الثورة حتى آخر شهر آب ١٩١٨، أسرت وجرحت وقتلت أكثر من ١٤ ألف عثماني واستولت على ٥٠ مدفعاً و٥٩ رشاشاً والآلاف من البنادق ودمرت ١٥ آلة قطار و٢٠٧ جسراً وعبارة و٢٨٦٩٢ قضيباً من قضبان سكة الحديد. ويقول الجنرال الإنكليزي ونجيت Wingate إن العرب أرسلوا ٥٩٤٠ أسيراً إلى مصر خلال هذه المرحلة. وفي حملة دمشق قتل العرب حوالى خمسة آلاف تركي، وأسروا حوالى ثمانية آلاف، واستولوا على ١٥٠ رشاشاً و٥٠ مدفعاً، أما عند استسلام المدينة فقد وقع في الأسر حوالى ١٠٨٣٠ جندياً وضابطاً واستولى العرب على ٦٣ مدفعاً من أنواع مختلفة[1].

---

(١) تقرير لورنس في النشرة العربية العدد الصادر في ٢٢ تشرين الأول ١٩١٨.
- موسى، مربس، ٣٣٢-٣٣٣-٣٣٤.

الخريطة رقم ٨

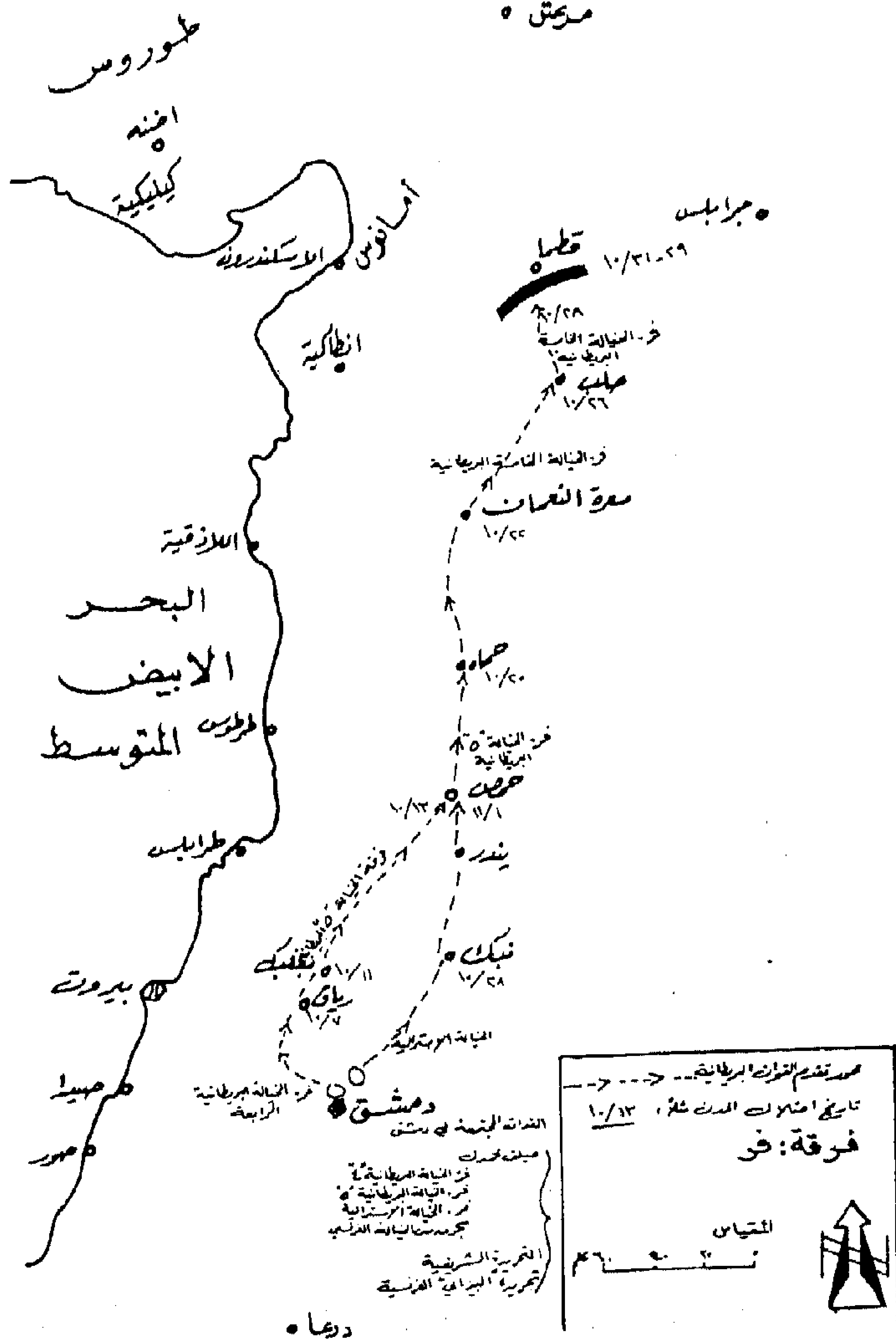
حماية الجناح الشرقي من قبل تجريدة الشريف حسين - (الجيش العربي) (١٩١٨)



المرجع: ريحانا، سامي، عميد ركن د.، تاريخ الجيش اللبناني المعاصر، نوبليس، جزء ١، ص ١٦٤.

الخريطة رقم ٩

احتلال شمال سوريا (١٩١٨)



المرجع: ريحانا، مرجع سابق، جزء ١، ص ١٦١.

الصورة رقم ١



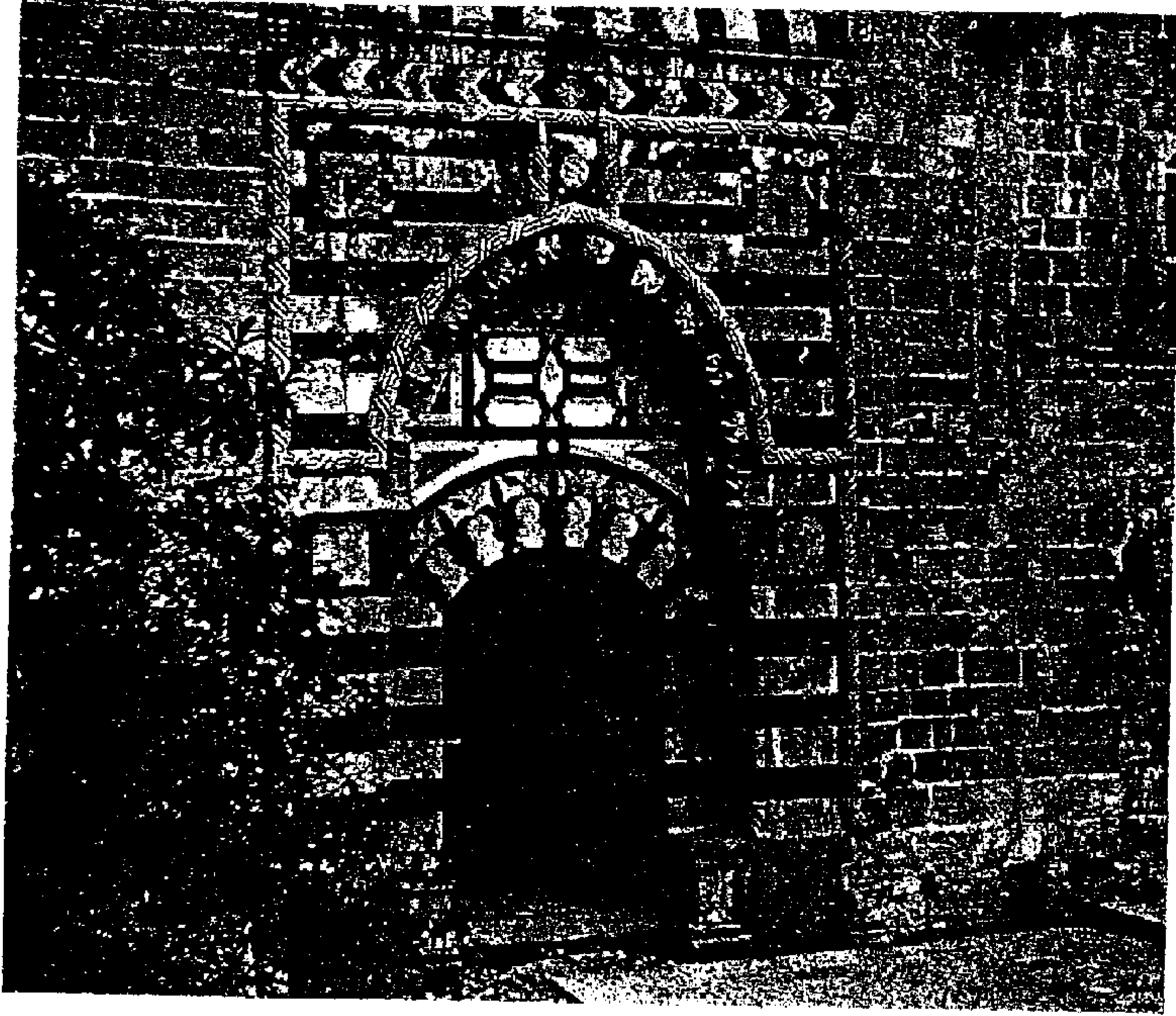
الأمير بشير شهاب الثالث (أبو طحين)

الصورة رقم ٢



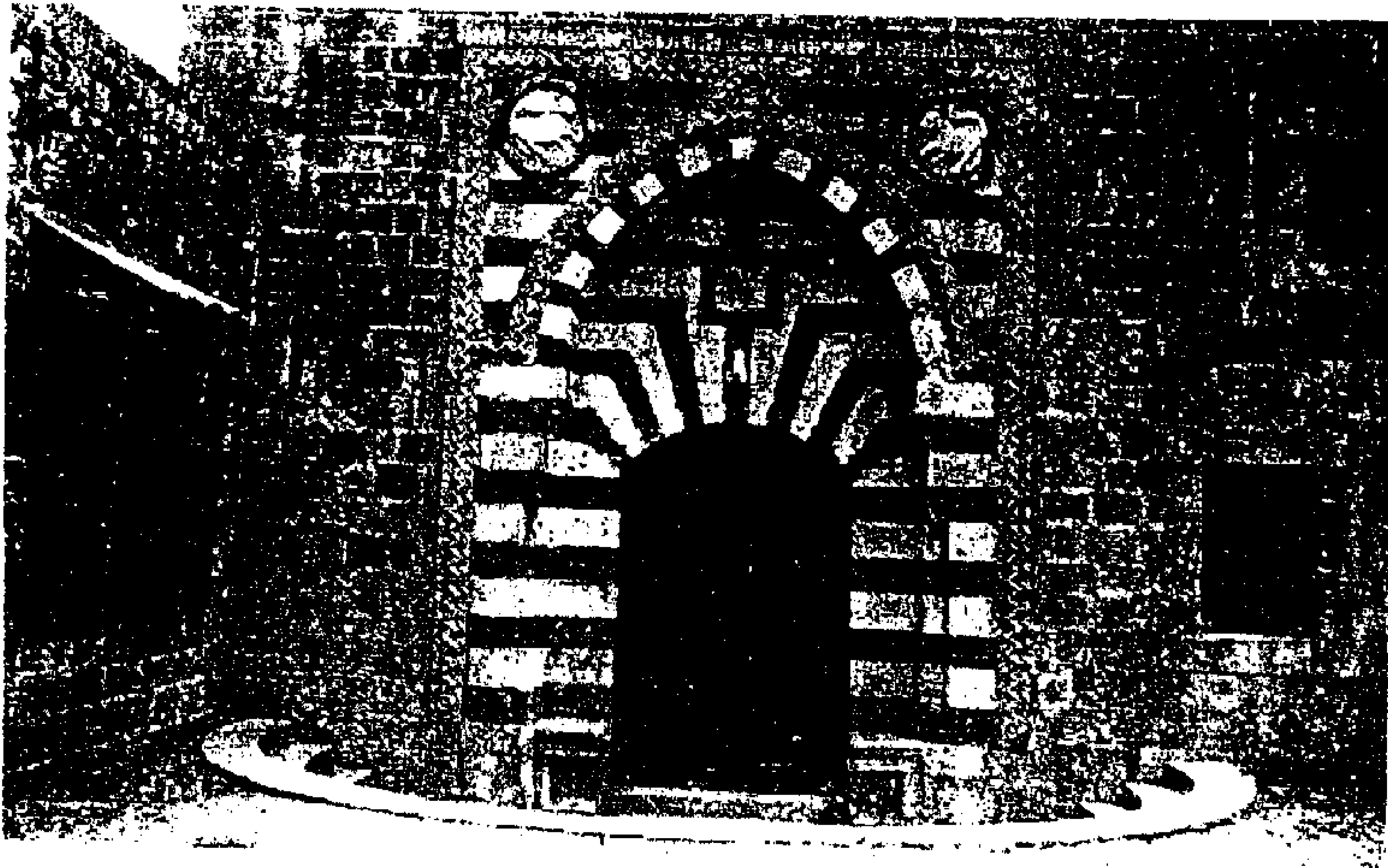
سليمان باشا

الصورة رقم ٣



الباب الرئيسي لسرايا آل باز في دير القمر

الصورة رقم ٤



الباب الرئيسي لسرايا الشهابيين في دير القمر

الصورة رقم ٥



إحدى قاعات قصر بيت الدين

الصورة رقم ٦



السلطان العثماني

محمد رشاد

الصورة رقم ٧



وزير الحربية العثماني أنور باشا في بداية

الحرب الأولى ١٩١٤

الصورة رقم ٨



الأمير فيصل بن الشريف حسين

شريف مكة

الصورة رقم ٩



الأمير فيصل وهو خارج من فندق فكتوريا في دمشق بعد اجتماعه إلى الجنرال اللنبي في ٣ تشرين الأول (من محفوظات مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت)

الصورة رقم ٩



خيالة العرب وهم يدخلون دمشق في أول تشرين الأول ١٩١٨

(من محفوظات مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت)

المصادر والمراجع

العربية

١ - آل صفاء، محمد جابر - تاريخ جبل عامل - بيروت دون تاريخ.

٢ - أبو عز الدين، سليمان - إبراهيم باشا في سوريا، بيروت، المطبعة الصحبة ١٩٢٨.

٣ - الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث - دار النهار للنشر بيروت ١٩٦٨.

٤ - الدبس، يوسف، تاريخ سوريا، بيروت ١٩٨٧.

٥ - الشدياق، طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان جزئين - الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٧٠.

٦ - العقيقي، أنطوان ضاهر، ثورة وفتنة في لبنان، نشر يوسف إبراهيم يزبك - لا تاريخ، بيروت.

٧- الحتوني، منصور، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية - بيروت ١٩٥٦ - ط٢ - نقحها يوسف يزبك.

٨- إسماعيل، عادل، المحررات السياسية والدبلوماسية، بيروت ١٩٧٥.

٩ - لا مارتين، ألفونس، رحلة إلى الشرق، هاشيت، باريس ١٩١٠-١٩١١.

١٠- الشهابي، أحمد حيدر، الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان، الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٦٩.

١١ - المعلوف، عيسى إسكندر، دواني القطوف في تاريخ بني معلوف، المطبعة العثمانية، بعبدا، ١٩٠٧.

١٢ - الخازن، فريد وفيليب، تعريب المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ إلى ١٩١٠، مطبعة الصبر، جونية ١٩١٠. (٣ أجزاء)
١٣ - أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، بيروت ١٩٨٧.
١٤ - الملك عبد الله بن الحسين، مذكرات، بيروت، آب ١٩٦٥، شارع الحوت.
١٥ - باز، رستم، مذكرات، بيروت الجامعة اللبناني، ١٩٦٨، ط٢.
١٦ - بازيلي، سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٨.
١٧ - توما، توفيق، فلاحون ومؤسسات الإقطاع لدى دروز وموارنة لبنان، من القرن ١٨ إلى ١٩١٤ - بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٧١.
١٨ - تشرشل، الكولونيل - جبل لبنان - عشر سنوات إقامة بين الموارنة والدروز ١٨٤٢-١٨٥٢، ترجمة فندي الشعار - دار الفارابي - بيروت ١٩٩٨.
١٩ - حتّي، فيليب - لبنان في التاريخ، دار الثقافة، بيروت دون تاريخ.
٢٠ - حوراني، ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة، بيروت، دون تاريخ.
٢١ - حكيم، أنطون-بيطار كلود ماري، سلسلة التاريخ بالوثائق، ج٦، السلطنة العثمانية - العرب والدول الكبرى ١٩١٤-١٩٢٠ - الدار اللبنانية للنشر الجامعي - البولصية - جونية ١٩٨١.
٢٢ - حماده، صبري، مذكرات في مجلة الأسبوع العربي العدد ٣٤٥، تاريخ ٩ آب ١٩٦٧.
٢٣ - الجامعة اللبنانية، منشورات ١٩٨١، أوراق خاصة.
٢٤ - ديب، بطرس، الكنيسة المارونية، دار الحكمة، مطرانية بيروت للموارنة، بيروت ١٩٦٢.
٢٥ - رستم، أسد، بشير بين السلطان والعزيز - القسم الأول، منشورات الجامعة اللبنانية ط٢ ١٩٦٦.
٢٦ - رستم، أسد، المحفوظات الملكية المصرية - بيان بوثائق الشام، بيروت - الجامعة الأميركية ١٩٤٠.
٢٧ - رستم، أسد، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي، منشورات الجامعة الأميركية، بيروت ١٩٣٠.
٢٨ - رئيف، خوري، الفكر العربي الحديث، بيروت ١٩٤٣.

٢٩ - زين، نور الدين زين، نشوء الحركة العربية - دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٩.
٣٠ - سويد، ياسين، التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٥.
٣١ - غيز، هنري، قصة إقامة بعض سنوات، بيروت ولبنان، باريس، المكتبة الفرنسية والأجنبية ١٨٤٧.
٣٢ - غنام، رياض، المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المصري، الدار التقدمية - المختارة، ط١، ١٩٨٨.
٣٣ - فريد بك محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار النقاش، ط٢، بيروت ١٩٨١.
٣٤ - محاضرات في التاريخ العسكري، المدرسة الحربية، الجيش اللبناني، ترجمة وتحضير النقيب طلال مهتار، ١٩٦١.
٣٥ - مشاقه، مخايل، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، بيروت ١٩٧٥.
٣٦ - مذكرات الجنرال التركي علي فؤاد، نقله إلى العربية نجيب الأرمنازي، كيف غزونا مصر، منشورات دار الكتاب الجديد، ١٩٦٢.
٣٧ - كتافاكو، أنطوان، فتوحات إبراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسوريا، عرّبها الخوري بولس قرألي ١٩٣٧، مطبعة القديس بولس، حريصا.
٣٨ - لامنس، هنري، سوريا، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٢١.
٣٩ - لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت دون تاريخ.
٤٠ - مزهر، يوسف، تاريخ لبنان العام، بيروت دون تاريخ.
٤١ - موسى، سليمان، الحركة العربية - دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٩.
٤٢ - نوري السعيد، محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسوريا، بغداد ١٩٤٧.

الأجنبية :

٤٣- Guys, Henry, Relation d'un séjour de plusieurs années à Beyrouth et dans le Liban, Librairie Française et Etrangère, Paris 1847.

٤٤- Nantet, Jacques, Histoire du Liban, Paris, Ed de minuit 1963.

٤٥- Weygand, Maxime, Histoire militaire de Mahomet Aly et ses fils, Imprimerie Nationale, Paris, 1936.

٤٦- Le Comte de Contaud-Biron, R, Comment la France s'est installée en Syrie (1918-1919), Paris 1923.

٤٧- George Stitt, A Prince of Arabia, George, Allen and unwin ltd. London.

٤٨- Revue Historique de l Armée Française, ministère des armées, Paris VII, 1967 No. 4.

٤٩- Les Armées Françaises dand la Grande Guerre, Mission militaire Française en Egypte, Château de Vincennes, Paris 1979, M.M.F.E.

٥٠- Général, du Hays, les Armées Françaises au Levant 1914 - 1919, - Château de Vincennes, Paris, Tome I et II, 1979.

فهرس الجزء (٢٠)

القسم الأول: جيش الإمارة الشهابية في عهد الأمير بشير الثاني الكبير - تنظيم وعمليات عسكرية - (١٧٨٨ - ١٨٤٠) ٥

الفصل الأول: التجنيد والتعبئة ٧
١ - توطئة ٧
٢ - التجنيد والتعبئة ٨
٢١ - أثناء حكم الأمير بشير الثاني ٨
٢٢ - خلال الحكم المصري للبنان ١٠
٢٣ - اندلاع الثورة ٢٠
٢٤ - تمرّد الشوف ٢١
٢٥ - الثورة في ضواحي بيروت ٢٤
٢٦ - الثورة في كسروان والمتن والمقاطعات الشمالية والبقاع ٢٥
٢٧ - جلاء القوات المصرية عن بلاد الشام ٢٨
٢٨ - إقالة الأمير بشير الثاني وتولية الأمير بشير الثالث ٢٨

الفصل الثاني: التنظيم والإعداد العسكري ٢٩
١ - التنظيم العسكري ٢٩
١١ - التنظيم ٢٩
١٢ - العديد ٣٢
٢ - الإعداد العسكري ٣٥
٢١ - التجهيز ٣٥
٢٢ - الأسلحة ٣٨

أ - الأسلحة القاطعة ٣٨
ب - الأسلحة النارية ٣٨
ج - المتفجرات ٣٩
٣ - التدريب والتكتية العسكرية ٤١
٤ - تأليف الأسلحة ٤٤
٤١ - المشاة ٤٤
٤٢ - الخيّالة ٤٥

الفصل الثالث: الحملات العسكرية للأمير بشير الثاني الكبير (١٧٩٠ - ١٨٠٤) ٤٧
١ - مبادئ الفن العسكري وقواعده ٤٧
١١ - الفن العسكري ٤٧
٢١ - المبادئ والقواعد ٤٧
ماهيّة المبادئ والقواعد ٤٨
١٤ - الارتكاز على المبادئ والقواعد ٤٩
أ - نسبية الأهداف والوسائل ٤٩
ب - حرية العمل ٤٩
ج - الحصيل الأقصى للوسائل أو الاقتصاد في القوى ٥٠
٢ - العصيان والتمرّد ضد الأمير بشير (١٧٩٠ - ١٧٩١) ٥٠
٢١ - معركة السعديات (١٧٩٠) ٥١
٢٢ - معركتا الشويفات والحرش (١٧٩٠) ٥١
في سياق المعركة ٥٢
٢٣ - معركة بعبدا ٥٢
سياق المعركة ٥٣
٢٤ - معركة حاصبيا (تشرين الثاني ١٧٩٠) ٥٤
٢٥ - المناوشات على محور شحيم - داريا - عنبال (ك١ ١٧٩٠ - آذار ١٧٩١) ٥٦
أ - معركة نهر الحمام (٢٧ تشرين الأول ١٧٩٠) ٥٦

ب - معركتا غريفة والجاهلية (٥ كانون الأول ١٩٧٢) ٥٦
ج - معركة غريفة الثانية (٧ شباط ١٧٩١) ٥٧
د - معركة غريفة الثالثة (١٠ شباط ١٧٩١) ٥٧
هـ - معركة شحيم (٢٥ شباط ١٧٩١) ٥٨
و - معركتا عانوت وعنبال (٩ و١٢ آذار ١٧٩١) ٥٨
ز - رجوع الأمير بشير الثاني إلى صيدا (٢٣ آذار ١٧٩١) ٥٩
٣ - كفاح الأمير بشير من أجل عودته إلى حكم الإمارة (١٧٩٣) ٦٠
٣١ - معركة المختارة (تشرين الأول ١٧٩٣) ٦١
٣٢ - معركة خان الكحالة (٥ تشرين الثاني ١٧٩٣) ٦٢
٣٣ - عزل الأمير عن الحكم ثم عودته (١٧٩٤ - ١٧٩٥) ٦٣
٤ - صراع الأمير بشير لتثبيت سلطته على البلاد (١٧٩٥-١٧٩٦) ٦٤
٤١ - معركة قب الياس ٦٤
٤٢ - معركة عمشيت (كانون الأول/ ١٧٩٥) ٦٦
٤٣ - معركة المندرة قرب قب الياس (كانون الثاني/ ١٧٩٦) ٦٧
٥ - صراع الأمير من أجل المحافظة على الحكم - عزله (١٧٩٩) ٧٠
٥١ - توطئة ٧٠
٥٢ - معركة الخريزات (تشرين الأول ١٧٩٩) ٧١
٥٣ - عزل الأمير بشير عن الحكم (١٧٩٩) ٧٣
٦ - صراع الأمير لاسترجاع الإمارة ٧٤
٦١ - توطئة ٧٤
٦١ - معركة نهر الحمام (بداية أول تشرين الثاني ١٨٠٠) ٧٥
٦٣ - معركة الشويفات (١٦ تشرين الثاني ١٨٠٠) ٧٧
٦٤ - معركة ضهور بعبدا (١٦ تشرين الثاني ١٨٠٠) ٧٨
٦٥ - معركة بعبدا الكحالة (١٨ تشرين الثاني ١٨٠٠) ٧٩
٦٦ - معركة خان مراد (١٨٠١) ٨٠

الفصل الرابع: الحملات العسكرية للأمير بشير الثاني الكبير
داخل الإمارة وخارجها (١٨٠٤ - ١٨٣١) ٨٣
١ - الأمير بشير يذهب لقتال الوهابيين في الديار الشامية (تموز ١٨١٠) ٨٣
١١ - الوهّابيون ٨٣
١٢ - الكنج يوسف والياً على الشام (١٨٠٧) ٨٥
١٣ - الإستنجاد بالأمير بشير ضد الوهابيين ٨٥
٢ - معركة دمشق ضد الكنج يوسف (الأول من آب ١٨١٠) ٨٦
٢١ - الكنج يوسف يتحدّى اللبنانيين ٨٧
٢٢ - تعبئة القوات ٨٨
٢٣ - الإتجاه نحو القتال ٨٨
٢٤ - الاستعداد للقتال ٨٩
٢٥ - المعركة ٨٩
٣ - إخضاع الثورات داخل الإمارة ٩١
٣١ - ثورة المتن وكسروان - عامية أنطلياس (١٨٢٠) ٩١
٣٢ - معركتا لحفد وعمشيت (١٨٢١) عامية لحفد ٩٣
أ - السير نحو القتال ٩٤
ب - المفاوضات ٩٤
ج - المعركة ٩٥
٤ - صراع الأمير ضد والي الشام
من أجل لبنان (١٨٢١ - ١٨٢٢) ٩٩
٤١ - أسباب الصراع ٩٩
٤٢ - معركة راشيا الأولى (شباط ١٨٢٢) ١٠٢
٤٣ - معركة راشيا الثانية (آذار ١٨٢٢) ١٠٣
٤٤ - معركة المزة - دخول الأمير ثانية إلى دمشق (٢٧ أيار ١٨٢٢) ١٠٦
أ - الإستعداد للقتال ١٠٧
ب - السير نحو القتال ١٠٨

ج - المعركة ١٠٩
(١) - مخطط الأمير ١٠٩
(٢) - مخطط والي دمشق ١٠٩
(٣) - التنفيذ ١٠٩
(٤) - النتائج السياسية للمعركة - عزل الأمير وفراره إلى مصر ١١٢
(٥) - عودة الأمير معززاً إلى لبنان ١١٣
٥ - الصراع الدموي بين البشيرين (كانون الثاني/يناير ١٨٢٥) ١١٤
٥١ - مخطط الشيخ بشير جنبلاط ١١٤
٥٢ - مخطط الأمير بشير الشهابي ١١٦
٥٣ - معركة مرج السمقانية (٥ كانون الثاني ١٨٢٥) ١١٩
٥٤ - معركة بعقلين (٢٥ كانون الثاني ١٨٢٥) ١٢١
٥٥ - معركة مرج بقعاتا (٢٥ كانون الثاني ١٨٢٥) ١٢٣
٥٦ - معركة الجديدة (٣٠ كانون الثاني ١٨٢٥) ١٢٤
أ - المعركة ١٢٦
ب - سقوط الشيخ بشير ١٢٧
٦ - مساهمة الأمير بشير في قمع العصيان في فلسطين (١٨٣١) ١٢٨
٦١ - توطئة ١٢٨
٦٢ - حصار قلعة سانور (شباط/فبراير - نيسان/ابريل ١٨٣١) ١٢٩
٦٣ - معركة العجة والفندقومية ونتائجها ١٣١
٦٤ - سقوط حصن سانور ١٣٢

الفصل الخامس: الحملات العسكرية للأمير بشير الثاني الكبير في ظل الحكم المصري لبلاد الشام (١٨٣١ - ١٨٤٠) ١٣٥
١ - توطئة ١٣٥
٢ - الهجوم المصري على بلاد الشام (تشرين الأول ١٨٣١) ١٣٦
٢١ - الجيش المصري عشية الهجوم ١٣٦

٢٢ - خطة اقتحام بلاد الشام (تشرين الثاني ١٨٣١) ١٣٨
٣ - مراحل الإحتلال المصري ودور الأمير بشير (١٨٣١-١٨٤٠) ١٣٩
٣١ - دور الأمير في حصار عكا (١٨٣١-١٨٣٢) ١٣٩
٣٢ - دور الأمير في الدفاع عن طرابلس (آذار/مارس ١٨٣٢) ١٤٣
أ - المعركة (٣١ آذار ١٨٣٢) ١٤٥
٣٣ - دور الأمير في قمع عصيان الشوف (نيسان ١٨٣٢) ١٤٦
٣٤ - دور الأمير في عملية الاستيلاء على دمشق (حزيران ١٨٣٢) ١٤٨
أ - المعركة (١٣ حزيران ١٨٣٢) ١٤٩
٣٥ - دور الأمير في عملية الاستيلاء على حمص (٨ تموز ١٨٣٢) ١٥١
أ - القوات المصرية ١٥١
ب - القوات العثمانية ١٥٢
ج - الإستعداد للقتال ١٥٢
(١) - خطة الدفاع العثمانية ١٥٢
(٢) - خطة الهجوم المصري ١٥٣
د - المعركة ١٥٤
٤ - الثورات والفتن ضد الحكم المصري في بلاد الشام ١٦١
٤١ - دور الأمير بشير في قمع عصيان صفد (تموز ١٨٣٢) ١٦١
أ - توطئة ١٦١
ب - العصيان في صفد ١٦٢
٤٢ - دور الأمير بشير في قمع عصيان طرابلس وعكار (تموز - آب ١٨٣٤) ١٦٥
أ - توطئة ١٦٥
ب - العصيان ١٦٥
٤٣ - دور الأمير بشير في قمع ثورة بلاد النصيرية (آب - تشرين الأول ١٨٣٤) ١٦٧
٤٤ - دور الأمير بشير في قمع ثورة الدروز في حوران ووادي التيم (١٨٣٨) ١٧٠
أ - توطئة ١٧٠
ب - ثورة الدروز ١٧١

٤٥ - دور الأمير بشير في قمع العصيان في عكار وبعلبك وجبل عامل (١٨٣٩) ١٧٨
٤٦ - دور الأمير بشير في قمع الثورة العامة ضد المصريين (١٨٤٠) ١٨٤
أ - الثورة في بلاد الشام ١٨٤٠ ١٨٤
أولاً - أسباب الثورة ١٨٤
ثانياً - إندلاع الثورة ١٨٥
ثالثاً - حملة عباس باشا وتراجع الثورة ١٩١
رابعاً - المعركة وقمع الثورة ١٩٢
(أ) - معركة زحلة ومناوشات المتن (نهاية حزيران إلى ١٠ تموز) ١٩٣
(ب) - القضاء على الثورة (٢٠ تموز ١٨٤٠) ١٩٤
٥ - سقوط الأمير بشير الثاني الكبير (١٨٤٠) ١٩٨
٦ - سقوط الإمارة الشهابية (١٨٤٢) ٢٠٢
٦١ - الأمير بشير قاسم ملحم شهاب حاكماً على الجبل (١٨٤٠) ٢٠٢
٦٢ - الثورة على الأمير بشير الثالث (أبو طحين) وسقوط الإمارة (١٨٤١-١٨٤٢) ٢٠٣

القسم الثاني: الثورة العربية الكبرى (١٩١٦ - ١٩١٨) ٢٠٩

الفصل السادس: العلاقات العربية العثمانية ومرحلة الانفصال عن السلطنة (١٨٦٠ - ١٩١٦) ٢١١
١ - توطئة ٢١١
٢ - نشوء القومية العربية ٢١٣
٣ - العلاقات التركية - العربية ٢١٥
٤ - الإصلاح وحلم العرب بإعادة الخلافة إليهم ٢١٦
٥ - الطورانية وحركة التتريك ٢١٧
٦ - إتصال العرب بالخارج ٢١٧
٧ - مرحلة الحذر بين العرب والأتراك ٢١٨
٧١ - معارضة الشريف حسين أمير مكة للحرب ٢١٨

٧٢ - بداية سوء التفاهم بين الدولة والشريف حسين	٢١٩
٨ - مرحلة الإنفصال عن الدولة التركية	٢٢٢
٨١ - جمال باشا ينكل بالزعماء العرب	٢٢٢
٩ - الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين	٢٢٢
٩١ - توطئة	٢٢٢
٩٢ - فصل العالم العربي عن تركيا:	
أ - مراسلات الحسين - مكماهون	٢٢٣
ب - حدود الدولة العربية المرتقبة	٢٢٤
١٠ - الإتفاقات السرية بين الخلفاء	٢٢٦
أولاً - اتفاق القسطنطينية	٢٢٨
ثانياً - معاهدة لندن	٢٢٩
ثالثاً - اتفاق سايكس بيكو السنة ١٩١٦	٢٣٠
أ - المنطقة الزرقاء	٢٣٢
ب - المنطقة الحمراء	٢٣٢
ج - المنطقة -أ-	٢٣٢
د - المنطقة - ب -	٢٣٣
هـ - المنطقة السمراء	٢٣٣
و- بنود أخرى	٢٣٣
الفصل السابع: الثورة العربيّة الكبرى (١٩١٦ - ١٩١٨)	**٢٣٥**
١ - الخطوات التمهيدية	٢٣٥
٢ - إعلان الثورة الكبرى	٢٣٩
٣ - القوات التركية عند إعلان الثورة	٢٤١
٤ - بداية انتصارات الثورة	٢٤٢
٤١ - عملية استسلام حامية الطائف	٢٤٦
٥ - مبايعة الشريف حسين «ملكاً على البلاد العربية»	٢٥٠

٦ - الخوف على الثورة ٢٥٣
٧ - الهجوم على المدينة المنورة ٢٥٤
أ - احتلال الوجه ٢٥٨
ب - الجيش العربي يحتل العديد من المراكز التركية ٢٥٩
٨ - احتلال ميناء العقبة (آب ١٩١٧) ٢٦٠
٩ - القوات الشريفية تزحف نحو بلاد الشام (١٩١٧-١٩١٨) ٢٦١
١٠ - تجريدة الحجاز الفرنسية (١٩١٦-١٩١٨) ٢٦٧
١١ - الجيش العربي في خضم الهجوم الكبير على الأتراك (١٩١٨) ٢٧٢
أ - الاستعدادات العسكرية ٢٧٢
ب - عمليات الجيش العربي في درعا ٢٧٤
ج - الهجوم الكبير (١٩ أيلول ١٩١٨) ٢٧٥
(١) - الإستيلاء على دمشق (١/١٠/١٩١٨) ٢٧٥
(٢) - الاستيلاء على المدن الكبرى في سوريا - الهدنة ٢٧٨

المصادر والمراجع ٢٨٩

الخرائط:

الخريطة رقم ١: معارك الأمير بشير الثاني ضد الأميرين حيدر وقعدان وغيرهم بين (١٧٩٠ - ١٧٩٦) ٦٩
الخريطة رقم ٢: معركة الأمير بشير ضد درويش باشا والي الشام (١٨٢٢) ١١١
الخريطة رقم ٣: معارك البشيرين، الشهابي والجنبلاطي (١٨٢٥) ١٢٥
الخريطة رقم ٤: معارك الأمير بشير شهاب الثاني في نابلس وحصاره قلعة سانور (١٨٣١) ١٣٤
الخريطة رقم ٥: معركة الأمير بشير وحليفه ابراهيم باشا في حمص (١٨٣٢) ١٥٦
الخريطة رقم ٦: المناورة واحتلال مدينة حمص من قبل قوات التحالف الشهابي المصري ١٥٧

الخريطة رقم ٧: معارك الأمير بشير الثاني حليف ابراهيم باشا (١٨٣١ - ١٨٤٠) ١٨٣
المشرق واتفاقية سايكس - بيكو ١٩١٦ ٢٣٤
القبائل المؤيّدة والمعارضة للحلفاء - منطقة عمل بعثة بريمون - بيزاني ٢٧١
الخريطة رقم ٨: حماية الجناح الشرقي من قبل تجريدة الشريف حسين - (الجيش العربي) (١٩١٨) ٢٧٩
الخريطة رقم ٩: احتلال شمال سوريا (١٩١٨) ٢٨٠

الصور:

الأمير بشير شهاب الثالث (أبو طحين) ٢٨١
سليمان باشا ٢٨٢
الباب الرئيسي لسرايا آل باز في دير القمر ٢٨٣
الباب الرئيسي لسرايا الشهابيين في دير القمر ٢٨٣
إحدى قاعات قصر بيت الدين ٢٨٤
السلطان العثماني محمد رشاد ٢٨٥
وزير الحربية العثماني أنور باشا في بداية الحرب الأولى ١٩١٤ ٢٨٥
الأمير فيصل بن الشريف حسين شريف مكة ٢٨٥
الأمير فيصل وهو خارج من فندق فكتوريا في دمشق بعد اجتماعه إلى الجنرال اللنبي في ٣ تشرين الأول ٢٨٦
خيالة العرب وهم يدخلون دمشق في أول تشرين الأول ١٩١٨ ٢٨٧


Bibliotheca Alexandrina
0587036